

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00952 5142

DC
103
.M9
193



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

FROM THE

LIBRARY OF

04-135493

SITY

E
F

ERSITY

UNIVERSITY OF
YAMBO
LIBRARY

الجامع

DC
163
Mgx



چان دارك
فی سبیل الوطن
تألیف
غایم محمد

920-7
J571g

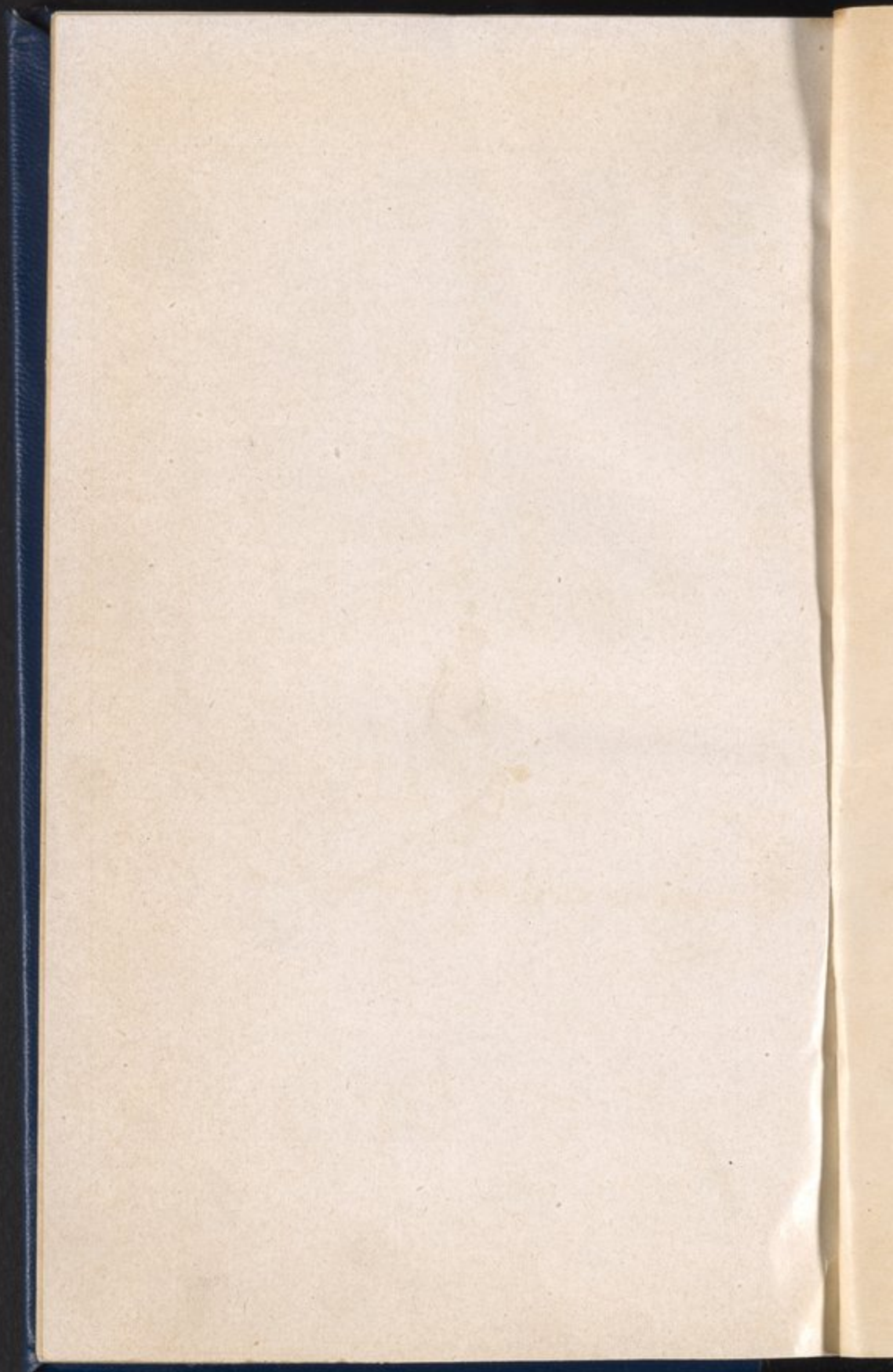
90, v
ع. ٤٥

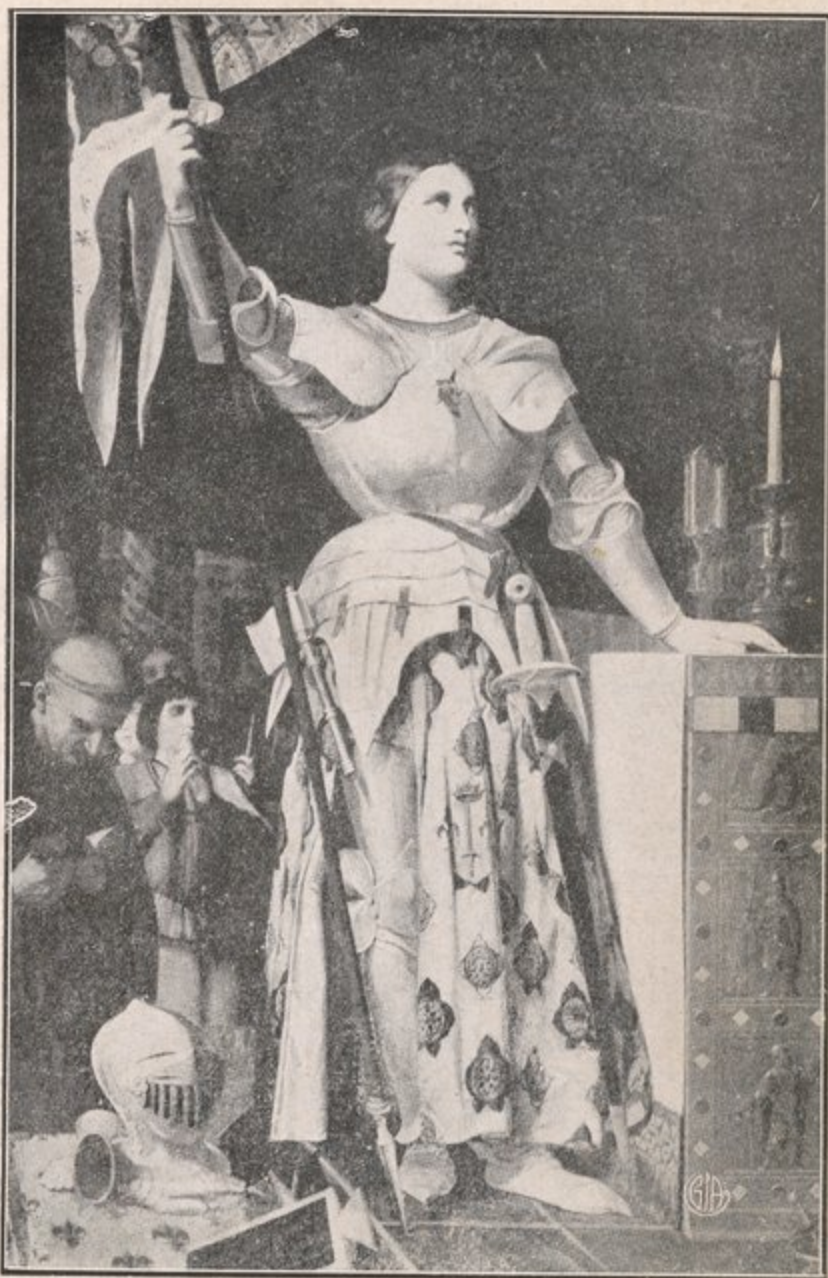
17056

E
OF

ERSITY

الجامع





جان دارك بريشة الرسام (انجريس) وهي معروضة بمتحف اللوفر

فهرس الفصول

	صفحة
تصدير	
مقدمة	
فرنسا في مطلع القرن الخامس عشر	١
نشأة جان دارك	١٣
رسالة جان دارك	٣٨
في الطريق إلى الدوفن	٦٣
عند الملك في شنون	٦٨
جان في بواتيه	٧٨
في سبيل النصر	٨٤
رفع الحصار عن أورليان	١٠١
في سبيل التاج	١٠٨
التتويج في ريمس	١٢٩
طريق التضحية	١٣٧
وقوع جان في الأسر	١٥٨
جان دارك في السجن	١٧٥
محاكمة جان دارك	١٩٠

صفحة

- ٢٣٤ المحاكمة السرية
٢٤١ توجيه الاتهام لجان دارك
٢٥٧ إعلان الحكم
٢٧٢ بعد صدور الحكم
٢٧٩ المأساة
٢٨٥ حياتها بعد موتها
٢٨٩ محاكمة جان دارك بعد موتها
٢٩٥ جان دارك بين الامتين الانجليزية والفرنسية
٣٠٢ الخاتمة



فهرس الصور

صفحة

- جان دارك على المحرقة (صورة الغلاف بالالوان)
— جان دارك بريشة الرسام (انجرس) وهى معروضة
بمتحف اللوفر .
- ١٣ — منزل جان دارك فى دومريمى
١٦ — الحجره التى ولدت فيها جان دارك فى دومريمى
٣٨ — جان دارك تستمع الى « الاصوات »
— ولى العهد (الدوفين Dauphin)
٦٨ — شال السابع ملك فرنسا .
- ٨٤ — دخول جان دارك الى اورليان
١٠١ — استيلاء جان دارك على قلاع اورليان
١٢٩ — تتويج شارل السابع فى كاتدرائيه ريمس
١٩٠ — محاكمة جان دارك

أهم المصادر

1. Personal Recollections of Joan of Arc.
By The Sieur Louis de Conte.
Translated by Jean Francois Alden.
By Mark Twain.
2. Jeanne d'Arc Par Joseph Delteil.
3. Causeries du Lundi par Sainte-Beuve.
4. Jeanne d'Arc, Her Life and Death.
by Mrs. Oliphant.
5. Joan of Arc by Hilaire Belloc.
6. The Story of Jeanne d'Arc
By E. M. Wilmot-Buxton.
7. The Story of JOAN OF ARC.
By Andrew Lang.
8. Saint Joan by Bernard Shaw
9. Life Lessons From Blessed Joan of Arc
by Father Bernard Vaughan, S. J.
10. Joan of Arc
And The Making of The French Nation.
By M. Orlidge Davis.

11. France, The Nation And Its Development.
By William Henry Hudson
12. Joan of Arc and England
By John Lamond
13. Little Master Pieces by Thomas de Quincey
14. The Fifteen Decisive Battles of The World
By Sir Edward . S. Creasy.
15. The Middle Ages by E. B. Osborn.
16. The Encyclopaedia Britannica.
Fourteenth Edition.
Volume 13

etc. , etc. . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصديـر

« أحببت جان دارك . وحي لها هو أهم سبب حملني على
ترجمة حياتها ، ولا حاجة إلى سبب آخر »
هذه كلمة أحد المترجمين لها من نوابغ الكتاب الفرنسيين ،
وهو « جوزيف دلتيل » الذي استحق كتابه عنها جائزة « فيينا »
لسنة ١٩٢٥

وفي الواقع أن هذه هي أيضاً كلمتي بعينها إلى كل سائل
يسألني عما حدثني إلى الترجمة لجان

فانحي « جان دارك » ليس وليداليوم ، بل هو قديم عميق .
في سنة ١٩١٨ كنت مدرسا بمدرسة رأس التين الثانوية
وجرت سنة المدارس الثانوية أن توصي مدرسيها بالقاء بعض
المحاضرات العامة على التلاميذ في غير أوقات الدرس ، فاخترت أن
أحاضر التلاميذ في « جان دارك » . وأما الآن نص تلك

المحاضرة التي أقيمت كما هو مسطور بحاشيتها « في يوم الأربعاء
الساعة ٣ والدقيقة ٣٠ من عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٨ »
وقد قلت في مقدمة تلك المحاضرة ما يأتي : « لم أكتب
« مذ عرفت أنامل قبض القلم وتحريكه ، ولم تنطق شفتاي مذ
« انفرجتا للنطق ، ولم يحقق قلبي ، ولم يحش وجداني وتنشرح
« جوانحي ، منذ ان خرجت الى الدنيا ، لأمر من الأمور هو
« اسمي وأرفع وأشرف من الغرض الذي أرمى اليه بموضوع
« محاضرتي اليوم !

« وان موضوع كلامي موضوع تناولته قبلي بالبحث
« والانشاد أقلام الفحول من المؤرخين والشعراء والناثرين
« البلغاء ، موضوع كتب فيه فولتير ، وشكسبير ، وسوزي ،
« وشيلر ، وغيرهم من الاعلام . إلا أنه بالرغم من ذلك التفاوت
« الشاسع بيني وبينهم سألقى بدلوى بين الدلاء عملا بالحكمة
« القائلة لكل مجتهد نصيب ... »

هذا ما كتبتة من خمسة عشر عاما . وأظهر ما يظهر في
عباراته شدة حماستي وعظيم حبي لجان دارك ، ذلك الحب
القديم العميق ... !

وفي سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ أقيمت محاضرتين عن جان دارك في المدرسة السعيدية ، ومن يدري لعلّي كنت مستمراً على القاء المحاضرات عنها لو لم أنقل من سلك التدريس الى الوظائف الادارية .

وفي الحق أنّي طوال العشرين السنة الاخيرة ، لم أقع على كتاب أو مقال في صحيفة من الصحف يدور موضوعه على جان دارك ، الا التهمته قراءة وتوفرت على درسه !

وفي كتابي اليوم ثمرة دراسة تلك السنين الطوال

وانى لأتهز فرصة هذه الكلمة لأتقدم بواجب الشكر إلى الاخوان الخالصاء الذين ساعدوني في اعداد الكتاب للطبع ، كما انى مهما قلت ورددت فلن أفي بما عليّ من الدين للمؤلفين الأ كابر من الغرب الذين سبقوني ، وكان لكتاباتهم عن « جان دارك » أكبر الفضل ، بل قل الفضل كله ، فيما عرفته عن بطلا أورليان وقديسة فرنسا !

القاهرة في مايو سنة ١٩٣٣

المؤلف

غانم محمد

مقدمة

يقع هذا التاريخ المشهود لحياة جان دارك ، الفتاة البتول ، بطلة أورليان ومنقذة فرنسا ، في مستهل القرن الخامس عشر . وهو جيل عامر بالأحداث الكبار . حافل بالدوافع والمؤثرات . فيه بزغت شمس النهضة الحديثة في أوروبا ، وأذنت طلائع الإصلاح ، حتى أخذت ظلمات القرون الوسطى تنجاب ، وبدأت تهباً العقول هنا وهناك للتفكير الحر ، وتنشط بعد الركود الطويل .

ولعل أشق أدوار الأمم ، وأشدها وطأة عليها ، وأعزها تضحية ، هو دور الانتقال والتحول من حال إلى حال : من قديم موروث إلى جديد مبعوث . ففي هذا الدور يقع التصادم قاسياً فاجعاً بين القديم والجديد ، ويكثر في بادئ الأمر الشهداء والضحايا بين دعاة التجديد . ذلك أنهم ثأرون على ماجرت به العادة وانعقد عليه العرف ، مبشرون بحقيقة تفتق الأذهان ، وتجر إلى تقويض أركان وتشديد أركان ،

فيقف في وجههم الجامدون والمغرضون ، ويشتدون في مناواتهم ،
وقد يستحلون في كبت هذه الحركات كل منكر ، ويقدمون على كل
كبيرة ، وبخاصة أولئك الذين تجي الدعوة الجديدة مبطله لشوكتهم ،
قاضية على نفوذهم . بيد أن المجددين لا يلبثون أن يثبتوا أقدامهم ،
ويسددوا إلى الأمام خطواتهم . فتتقدم قضيتهم ، ويعز أنصارهم ،
ويصيرون من قلة إلى كثرة .

وفي خلال هذا النضال يتساقط الهلكى من الجانبين ويسجل التاريخ
للقريقين وقائع وفواجع . ولا أظن القارىء بحاجة إلى الأمثال إذ
المثل بين يديه ملحوظة محسوسة يعرفها كل متتبع لحركات الإصلاح
في الأدب والسياسة والاجتماع .

وفي زمن جان دارك كان الجهل يرين على العقول والأفكار ، لا
يحس الفرد لنفسه ذاتية خاصة أو شخصية قائمة ، بل كان وجوده ملغياً
في المجموع ، وكان لزاماً عليه أن ينسج على منواله في الرأى والعقيدة
دون تفكير أو تعقيب . فالكنيسة ترى له الرأى ، وتحدد له صورة
العقيدة التي يؤمن بها ، دون أن يكون له أدنى حق في مناقشتها ، بل
عليه قبولها قضية مسلمة لا تقبل تأويلاً ولا تخريباً .

وكان لتفشى الجهالة في تلك الأيام أثره الكبير في رواج الخرافة ،
وانتشار الخزعبلات ، والاعتقاد في السحر . فتكاثر الدجالون والسحرة

من كل عجوز شمطاء، أو يافعة رقطاء . فدفع ذلك الكنيسة إلى إصلاحهم
نار حرب شعواء، تذهب بريحهم، وتستأصل شأقهم، في غير رفق
ولا هوادة، خشية أن يزاحمها مزاحم في السيطرة على عقول الشعب !
وحسبك دليلاً على نقمة الكنيسة عليهم، والمدى الذي ذهبت إليه في
الفتك بهم، أن تعلم أن أسقفاً واحداً أحرق في سنة واحدة ستائة
عجوز (١) . . . ! وقد جرى ذلك في أواخر القرن السابع عشر، أي بعد
زمن جان دارك بقرن ونصف قرن من الزمان .

ولم تقف مطاردة الكنيسة عند السحرة وسحرهم، بل تعدتهم إلى
كل مفكر فيما حو اليه من المظاهر الكونية تفكيراً يخالف ما رسمته
الكنيسة من قواعد وحدود !! وكان العلم وقفاً على القساوسة والرهبان .
والويل والثبور لمن تحدته نفسه يبحث أو تنقيب، فهو إذا اقتضح أمره
معدود من الخوارج على الدين، ومصيره مصير السحرة الماكرين،
أي الإعدام حرقاً ! ومن هذا القبيل حادث القبض على جاليليو
الرياضي الإيطالي المشهور (١٥٦٤ - ١٦٤٢) ومحاكمته، لأنه استعمل
المناظير، وأثبت صحة ما ذهب إليه قبله كوبونيك الألماني (١٤٧٣ -
١٥٤٣) من دوران الأرض حول الشمس، خلافاً للعقيدة القائلة
بأن هذا الكوكب الأرضي ثابت وأنه مركز العالمين ! ولولا أنه عاد

(١) نقلاً عن كتاب "تذكار جبتي" للاستاد الكبير عباس محمود العقاد

ففقض ما أبرم ، لأصبح رماداً تذروه الرياح . مع أن ما أثبتته أصبح
اليوم من البدهيات التي يلقيها الأطفال .

ولا يذهبن بك الوهم إلى أن الكنيسة تشدد في مطاردة خصومها ،
لأن سلطان الدين كان له أثره في تلك النفوس الجامحة ، يكبحها ويلزمها
مغالبة النفس على شهواتها ، والاستمسك بالآداب ، ورعاية الفضيلة
وصيانة الشرف ..! كلا! فان شيئاً من ذلك لم يكن في ذلك الزمن . بل
استفاضت فيه جميع المفاسد وغوايات الجسد ... وما من عصر في
التاريخ سادت فيه الرذيلة الفضيلة كذلك العصر ! ولولا أنه حديث
مستكره غير مستساغ ، والخوض فيه غير مستحب ولا مناسب ،
لقدمت بين يديك أيها القارئ بعض الأمثلة التي تفيض بها كتب
التاريخ عما اجتمع لهذا العصر من معائب وقبائح . فهو زمن المتناقضات
في ظاهره التدين ، وفي باطنه الفسق والفجور .

هذه اللحظة العجلى عن ميول الأفراد والجماعات وعقائدهم ، في
العصر الذي درجت فيه جان دارك ، ذكرناها كما ذكرنا بياناً عن
النظام الاقطاعي ، الذي كان سائداً في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة ،
في الفصل التالي . وذلك لكي ينصفها القارئ الحديث ، وينصف زمانها
إذا عن له أن يقدر ما وقع منها ، وما وقع لها من الفواجع . فانت
ذا حاكمت معاصريها بمقاييس العصر الحاضر واعتباراته ، فقد

تنكبت سبيل الرشاد، وحدث عن جادة النصفة . فشتان بين زماننا
وزمانهم . وإن عوامل البيئة ومؤثراتها تختلف في العصرين اختلافا
شاسعاً يجعل المقايسة بينهما من قبيل التعسف والاحالة .

أما جان دارك ، فقد كانت شخصية فذة ، اجتمعت لها صفات
ومميزات ، سميت بها عن مستوى معاصريها « كانت أمينة صادقة ، في
زمن فيه الأمانة ضائعة ، والصدق منكور ، وكانت وفية بالعهد إذا
عاهدت ، يوم أن غاض الوفاء وانطمست معالمه ومعانيه . شغلها
عظائم الأمور ، ونبل الأغراض ، في زمن عقول كباره مشغولة بالغرض
التافه والمرمى القريب . وكانت شريفة طاهرة الاردان في جيل لا
يعرف الطهر والشرف ، مقداما غير هيابة في زمن بطلت فيه الشجاعة
واقفرت فيه القلوب من دواعي النخوة . . . من هذه الناحية تمتاز جان
دارك على معاصريها . بل هي دائماً في الكفة الراجحة سواء أوزنت
بميزان الماضي ام كان بموازين الحاضر او المستقبل وزنها . ومن هذه
الناحية ايضا قد يلتمس العذر لمعاصريها إذا هم تعذر عليهم فهمها
فأحرقوها . ! .

وليس أدل على الفرق بين عقليتهم وعقلية العصر الحاضر من ان
تعلم ان الكنيسة التي امر رجالها باحراقها ، بتهمة خروجها على الدين
هي هي الكنيسة التي ترفعها الآن إلى مصاف القديسين ، وتجعل لها

بين اعيادهم يوماً من الايام الغر الميامين ، تقام لها فيه الصلوات ،
وترسل الدعوات .

وفي الحق ان امر جان دارك ، الذي ادهش اهل زمانها ، لا يزال
يحمل في طواياه ما يدهش له اهل الزمن الحاضر واهل كل زمان ..!
ولعمري إنها لعجيبة لا ينقضى منها العجب ان جان ، الفتاة القروية
السادجة ، التي لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها ، فضلاً عن أميتها
وجهلها ، تستطيع ان تتولى « القيادة العليا » لجيش أمتها ، وان تنتزع
القيادة من بين ايدي الخونة والذسائين الذين كانوا يحيطون بمليك
بلادها . ثم يتحقق ذلك في وقت انحطت فيه روح الجيش المعنوي
وضاع كل امل في النصر . فتنفخ فيه جان من روحها ، وتخلقه خلقاً
جديداً ، وتزيل مابه من فساد ، وتلم شعثه ، وتجبر انقسامه . ثم تقوده
الى النصر المبين ، وتجلي عن بلادها العدو المقيم .. ! فتاة قروية تنفذ
وطنها وهو من المهانة في الحضيض الاوهد ، وتحرر مواطنها من ربة
النير الأجنبي بعد ان فت اليأس في عضدهم وذلوا المستذليهم ! وترد
على ملكها عرش اجداده وحقه فيه ، بعد إذ استسلم لقضاء الله وقدره ،
وأخذ يعد العدة للفرار من بلاده !

حقاً إن هذا لاشبه بالمعجزات منه بحوادث التاريخ ومعالم الايام!
واسنا نعدو الواقع إذا قررنا انه لم يقيض لبشر من احد الجنسين غيرها

ان يتولى قيادة جيش وهو فى مثل سنها ولا يدري من فنون الحرب شيئاً ! وإن ننس لا ننس ان هذه الفتاة كانت اول رسل الوطنية الحديثة بمعناها الصحيح . فقد قامت تدعو أهل فرنسا إلى نبذ الخصومة • ضم الصفوف ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ولا ينفقوا ، وان يقوموا قومة رجل واحد فى وجه الغاصب الاجنبى عدوهم المشترك ! وكما كانت وطنية جان جذابة فى بساطتها ، يوم أخذت ترسل الرسائل إلى الانجليز تدعوهم : « ان يتقلوا إلى بلادهم التى أعطاهم الله ، وان يجلووا عن فرنسا التى اختص الله بها الفرنسيين ... ! »

ولقد كان للكنيسة مع جان دور هام بدأ بتشكيك الناس فى رسالتها ، وانتهى باتهامها بالزندقة ، وتسليمها للانجليز لى يحرقوها غير أننا نحب ان نقتصر فى ترجمة حياة جان دارك على الناحية الوطنية منها ، وأن نضرب صفحاً عن الافاضة فى موقف الكنيسة منها وموقفها من الكنيسة ، لعدم اهمية ذلك للقارىء المصرى من جهة ، ولتغير موقف الكنيسة من جان من جهة اخرى ، إذ أصبحت فى نظرها — كما هى فى نظر بنى وطنها على اختلاف مللهم ونحلهم — قديسة بين القديسين ، وعلم الوطنية الذى يهدى بهديه الوطنيين .

ويهمنا أن يعرف القارىء المصرى ان تفاصيل حياة جان دارك قد تكون أصح وأدق ما عرف عن عظيم فى التاريخين الحديث والقديم . ولا نغلو فى القول إذا قلنا إن اخبارها التى انحدرت الينا من عدة قرون

ماضية ، أصح وادق من ترجمة حياة نابليون مثلا ، ونابليون كما تعلم
اقرب اليها منها ، فهو من عطاء القرن التاسع عشر ، وهي قد عاشت
في القرن الخامس عشر . أتدرى لماذا ؟ لأن الوثائق الرسمية ومحاضر
جلسات محاكمتها في سنة ١٤٣١ ، - وبين دفتيها شهادة الشهود فيها على
اختلاف الواهيم وطبقاتهم ، من اهل القرية التي نشأت فيها ، والذين
زاملوا في الحرب والسلم ، والذين نصبوا انفسهم لها اعداء ، او كانوا
لها اولياء ، واقوال القضاة والقواد بين عاطف وناقم ، وكذلك محاضر
قضية رد اعتبارها ، التي اضطر الملك اليها بعد ربع قرن من حرقها ،
لكيما يدفع تهمة الاخذ عنها ، فيدحض عن نفسه عار بلوغه الملك
على يد ساحرة - هذه الوثائق جميعها ، كاملة غير منقوصة ، لا تزال
محفوظة في دارالمحفوظات الاهلية بفرنسا .

ولقد صدق من قال إن اخبار حياة جان دارك هي ، دون سواها
في التاريخ ، الاخبار التي سجلت امام هيئة قضائية مسئولة بعد ان
حلف اليمين القانونية على صحتها كل من رواها...!

واليك تاريخها العجيب !

This image shows a blank page from a ledger or account book. The page is cream-colored and features a faint, light blue grid pattern. The grid consists of a large outer rectangle divided into four quadrants by a vertical and a horizontal line. Each quadrant is further subdivided by a series of horizontal lines, creating a table structure with approximately 10 rows and 2 columns per quadrant. The lines are very light and the page is otherwise empty of any text or markings.



فرنسا

اشناء

حرب المائتہ سنہ

لندن

کالیس

فلندرز

ہینولت

بروکسل

باریس

روم

اورلیان

بوتیج

پوپاٹو

جین

بروئیل

تولوز

بارن

نکار

ارجن

پوسٹو

بریتانی

روم

نوار

پوپاٹو

جین

بروئیل

تولوز

بارن

نکار

ارجن

ارجن

خلیج

بسکی

جین

بروئیل

تولوز

بارن

نکار

ارجن

دوین

بروئیل

تولوز

بارن

نکار

ارجن

فرنسا

في مطلع القرن الخامس عشر

النظام الاقطاعي

بقيت أوروبا الغربية زهاء ستة قرون كاملة تبتدى من القرن التاسع للميلاد رازحة تحت نير النظام الاقطاعي . وكانت فرنسا من أكثر البلدان خضوعا لهذا النظام . وبعبارة أخرى إن نظام الحكم الحالي ، الذي يقوم على توزيع السلطات إلى قضائية ، وتشريعية ، وتنفيذية ، مع تعميم أحكامها على الدولة بأسرها . لم يكن معروفا في أوروبا إلى ما قبل الثورة الكبرى . ونظام الاقطاع ، كما لا يخفى ، يطلق على الروابط الاقتصادية والاجتماعية ، التي قامت عليها علاقات الناس بعضهم ببعض ، خلال تلك القرون العدة . ولا نعدو الواقع إذا قررنا ان هذا النظام ، أو على الأقل أصوله ، ظلت سائدة في غرب أوروبا إلى حين قيام الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ ، فقد عاش الأشراف ، طوال هذا الزمن ، شبه مستقلين ، يملكون الأرض ، ويحكمون من عليها ، ولا يسمحون لملك أو امبراطور بالتعرض لشئون « إقطاعاتهم » ، وإن كانوا يتظاهرون بالخضوع له ، ويساعدونه

كلما استعرت الحرب ونشب القتال .
ولامشاحة في أن فرنسا ، في القرن الخامس عشر ، كانت محكومة
طبقا لأصول ذلك النظام وتقاليده . وليس ثمة اى وجه من وجوه
الشبه بين ما كانت عليه فرنسا حكومة وشعبا في ذلك الزمن ، وماهى
عليه الآن . كان لها ملك ، وكانت للملك السيادة الاسمية على جميع
أشراف بلاده . ولكن نفوذه الفعلى لم يكن فى الواقع ، وبخاصة فى
القرون الأولى ، يتعدى دائرة قطيعته الخاصة . وكانت البلاد مقسمة
بين الاشراف الى ما يقرب من المائة قسم تتفاوت فى المساحة والنفوذ .
فمن الامارة الكبيرة التى تكاد تكون دولة مستقلة ، إلى القطيعة
الصغيرة التى لا تتجاوز مساحة ضيعة من ضياع الاغنياء فى الزمن
الحاضر . ولم يكن بين الملك وأمرائه من الصلات إلا ما قضى به النظام
من مساعدة الأشراف له وقت الحرب ، بكتيبة من المحاربين كاملة
العدة ، وبالمؤن . وفيما عدا ذلك ، كان الامراء مستقلين عنه ،
ومستقلين بعضهم عن بعض ، والناس يدينون بالولاء لامرائهم دون
الملك . ولهم وحدهم تعنو وجوههم ويقسمون يمين الطاعة والاخلاص
فكانوا بذلك فى حل من أن يقاتلوا تحت لواء سيدهم ، ولو كانت
الحرب ضد الملك نفسه .

وكانت الحروب والمنازعات بين الأمراء ، أو بينهم وبين
مليكيهم ، أو بينهم وبين جيرانهم ، أو بين السيد وأتباعه ، أو بين

الاتباع أنفسهم ، لا تكاد تخمد جذوتها أو تنتهى عند حد .
أما الشعب فقد كان بطبيعة الحال طبقات بعضها فوق بعض .
وأهم هذه الطبقات ، طبقة الأشراف ، وطبقة الفرسان ، وطبقة
زراع الأرض أو « الرقيق » ولكل طبقة من هؤلاء مصالح
تعارض مع مصالح الطبقات الأخرى ، فكانت تحاول الوصول
اليها ولو بالجور على حقوق الآخرين .

وفي الواقع كان الأشراف وحدهم هم المتمتعون بمزايا عهد الاقطاع
فقد اجتمعت السلطة في ايديهم ، وكان الملك ، كما مرّ بك ، لا يمتاز
عليهم بأكثر من لقب الملكية .

أما الفرسان فكانوا أهل طعن ونزال ، ومساير حرب وقتال
شبوا على مبادئ إنكار الذات ، وإيثار الغير ، ونصرة الضعيف ،
واحترام النساء .

وصارت الفروسية حرفة لأولاد الأشراف ، يروضهم عليها فارس
مشهور ، ابتداء من سن السابعة إلى سن الحادية والعشرين . وفي نهاية
تدريبه كانت تقام حفلة دينية يمنح فيها الشاب لقب « فارس » .

وأما طبقة الزراع ، أى الذين يقومون بفلاحة الأرض ، فقد
كان عليهم عبء الإلتاج ، يمنحهم الشريف الأرض فيزرعونها على
أن يعطوه جزءا مما تغل ، وان يتفرغوا للعمل فى أرضه أياما مقررة
فى كل أسبوع .

ولم تكن هذه كل القيود التي كانت على التابع لمتبوعه ، بل لازالت هناك قيود أخرى من بقايا عهد الرق في زمن الرومان ، مثل عدم تزويج التابع ابنه أو ابنته إلا بأذن من سيده ، وأن يقدم للسيد عند هذا الزواج منحة مالية ، وأن يفقديه بالمال إذا أسر في أثناء حرب أو قتال ، كما كان عليه أن يقدم لمولاه ، إذا شرفه بالزيارة ، قدرًا من الماشية ، والطير ، والعسل !

وكان الشريف هو الحكم فيما يشجر بين أتباعه من خلاف ، وهو الذي يقوم بجميع الأعمال الإدارية والحريرية التي تستلزمها شئون قطيعته ، مستقلا بكل هذه الشئون استقلالًا تامًا لا يشاركه فيها مشارك . ولذلك كنت ترى في كل مكان حكومة قائمة بذاتها ، تتصرف في شئون الإمارة طبقًا لتقاليدها الخاصة .

وجملة القول في النظام الاقطاعي إنه يستحق ما أطلقه المؤرخون عليه من أنه « كان الفوضى منظمة » .

في اللوحة المتقدمة عرفت شيئًا من الشئون الدنيوية وكيف كانت تجري في فرنسا خلال القرن الخامس عشر والقرون التي سبقتة ، بل والقرون التي لحقتة . والآن يحق لك معرفة طرف من شئون الناس الدينية ، إذ كانت لها أهمية خاصة ، في حياة الفرد ، وفي حياة الجماعة ، في ذلك الزمن .

وفي الواقع أنه من يوم ان جاهر أحد أساقفة رومة ، في القرن الخامس ، « بأن العالم تحكمه قوتان ، قوة الكنيسة وقوة الملك ، والأولى تفوق الثانية لأن الكنيسة مسؤولة أمام الله عن أعمال الجميع حتى أعمال الملوك أنفسهم » من ذلك اليوم وسلطان الكنيسة يتزايد حتى علا كل سلطان . وبعد ان كان الاساقفة ورؤساء الاديرة يحتمون بالأمراء المجاورين ، اخذوا ينسجون هم ايضاً على منوال الأمراء ، ويقسمون أرض الكنيسة قطائع يمنحونها « اتباعهم » ، ويكون لهم عليهم ما للأشراف على اتباعهم من حقوق وواجبات . واجتمع لرجال الكنيسة سلطان الدنيا وسلطان الدين . ومن ثم سارت السلطتان الدينية والديوية جنباً إلى جنب و إن كانت الأولى تدرجت في القوة والسلطان حتى أصبحت لها السيطرة العليا على الرعايا ، والملوك والأباطرة

تلك صورة من حال الناس الاجتماعية والسياسية ، والدينية ، في زمن جان دارك .

علاقة فرنسا بالانجليز

كانت العلاقة بين البلدين منذ وجود انجلترا ودخول البريطان فيها وهم من أهل « بريطانيا » مقاطعة في شمال غربي فرنسا ، ولا يزال اسم « بريطانيا » يطلق على الجزيرة إلى اليوم .

وفي سنة ١٠٦٦ أَدعى وليم دوق نورماندية ، في شمال فرنسا ،
عرش إنجلترا لنفسه بعد موت مليكها عن غير وارث . ثم عبر وليم
« المانش » وهاجم « هارولد » الذي اختاره القوم ملكا عليهم ، وهزمه
في موقعة « هيستنجس Hastings » الشهيرة سنة ١٠٦٦ ، وسمى باسم
« وليم الفاتح » وتوَّج ملكا على إنجلترا . ثم أسس حكومة قوية أدت
إلى امتزاج أهل « نورماندية » بسكان الجزيرة ، وصارت اللغة الفرنسية
لغة البلاط ولغة طبقات الاشراف « الارستقراطية » .

وفي تلك الاثناء ، كان ملك فرنسا يدعى فيليب الأول
(١٠٦٠-١١٠٨) وكان وليم دوق نورماندية ، بحكم النظام الاقطاعي ،
من اتباع ملك فرنسا فلما استولى على جزيرة البريطان وارتقى
عرشها ، بقى بصفته دوق نورماندية ، وطبقاً للتقاليد ، على تبعيته الاسمية
لملك فرنسا ، وان كان انصرافه إلى مملكته الجديدة قد أبعده عن
فرنسا ، فقوى بذلك نفوذ ملك فرنسا في داخلية البلاد .

وفي عهد هنري الثاني ملك إنجلترا (١١٤٤ - ١١٨٩) ضم الى
نورماندية ، التي ورثها عن الفاتح ، مقاطعتي « انجو » و « اكويتين » ،
فأصبحت أملاكه في فرنسا اكبر من أملاك التاج الفرنسي نفسه فيها .
وفي مدة حكم فيليب اغسطس (١١٨٠-١٢٢٣) ملك فرنسا ،
ضمت الأملاك الانجليزية في فرنسا الى التاج الفرنسي ما عدا

« ا كويتين » وذلك بعد موقعة « بوفى سنة ١٣١٤ » قرب مدينة « ليل »
التي انهزمت فيها جيوش الملك « جون » ملك إنجلترا امام جيوش
فيليب ملك فرنسا . ولكن حدث بعد ذلك ان تمكنت إنجلترا من
ضم بواتيه وغسقونيه اليها .

حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا (١٣٣٨-١٤٥٣)

ثم قامت بين البلدين الحرب المعروفة فى التاريخ بحرب المائة عام .
وكان أهم اسباب النزاع تمسك ملوك إنجلترا بحقوقهم فى املاكهم
الفرنسية ، بعد أن فقدوا نورمندية وأنجو ولم يبق لهم إلا أ كويتين
وبواتيه وغسقونيه ، وتصميم ملوك فرنسا على ضم تلك الاصقاع اليهم
وبسط نفوذهم عليها . ومن ثم لبث الفريقان يتحنان الفرصة للاشتباك
فى الحرب . وفى سنة ١٣٢٨ رأى ادورد الثالث ، ملك إنجلترا ، ان
الحظ مواتيه ، وان الفرصة سانحة لا لاسترداد املاكه فى فرنسا
فحسب ، بل للاستيلاء على عرشها لنفسه . ذلك انه فى تلك السنة مات
فيليب الرابع آخر ملوك أسرة « هيوكايت » من غير أن يخلف وارثا
لعرش فرنسا . ولما كانت أم الملك ادورد هى ابنة فيليب هذا ، فقد
طالب بعرش فرنسا بصفة الوارث الشرعى لحق أمه . ولكن ذوى الرأى
من الفرنسيين أدركوا مراميه ، وأحسوا مظامعه ، فقررُوا فيما بينهم
انه لا يجوز للمرأة أو وريثها ، طبقاً « للتقاليد القديمة » ان يتبوا العرش

فاتخبوا احد افراد أسرة فلوا ملكا عليهم باسم فيليب السادس .
فأسرّها ادورد في نفسه ، وأخذ يعد عدته لتلك الحرب الضروس ،
التي ما كانت لتنتهى إلا باحدى النتيجةين : اما استيلاء انجلترا على
عرش فرنسا وضمها إليها ، او طرد الانجليز نهائياً من فرنسا ومن
أملأ كههم فيها .

وفي سنة ١٣٤٦ هاجم ادورد الثالث ملك انجلترا شواطئ
« نورمندية » وأوغل فيها حتى أوشك أن يبلغ باريس ، والتقى
بالفرنسيين في « كريسى Crecy » حيث انتصر على فرسانهم بفضل
صفوفه المتراسة من المشاة الرماة ، المهرة في استعمال القوس والنشاب
وعلى أثر هذه الموقعة الحاسمة استولى الانجليز على « كاليه » .

وفي سنة ١٣٥٦ التقى « الأمير الأسود » ، ادورد بن ادورد الثالث ،
مع الفرنسيين في « بواتيه Poitiers » وانتصر عليهم ، وأخذ ملكهم
« حنا » الى انجلترا أسيراً .

وعلى الرغم من هذه الانتصارات ، اضطر ادورد الثالث لأن
يعقد مع فرنسا اتفاقاً (١) في سنة ١٣٦٠ تنازل بمقتضاه عن حقه في
تاج فرنسا ، وعن حقوقه في نورمندية في نظير تنازل فرنسا عن
بواتيه وغين وغسقونيا وكاليه ، أى ما يقرب من ثلث مساحة فرنسا .

(١) معاهدة برتني Bretigny

وتنازل ملكها عن حقه في طاعة ملك إنجلترا له بصفته أميراً على
« قطائع » من بلاده .

وتولى « الأمير الأسود » حكم الأقاليم الفرنسية نيابة عن والده ،
واشتد في معاملة الأهالي ، فزاد في سخطهم ، لأنهم كانوا يؤثرون
بطبيعة الحال الحكم الفرنسي ولذلك انتهزوا فرصة مرضه ، وازدياد
ضعف والده لكبر سنه ، وثاروا على الإنجليز . وتمكن ملك فرنسا
« شارل الخامس » (١٣٦٤ — ١٣٨٠) من استرداد الأقاليم التي كانت
في يد الإنجليز . وعندما مات « ادورد الثالث » لم يبق بعده من
الممتلكات الإنجليزية في فرنسا سوى « كاليه » وأقليم صغير حول
« بور دو » .

وفي سنة ١٤١٥ أراد « هنري الخامس » تدعيم ملكه ، وتثيته ،
واستمالة الشعب إليه ، فأعلن للبلاء حقه في عرش فرنسا من جديد
فانتهاز فرصة انقسام الفرنسيين كما سيأتي بيانه في موضعه ، وفي السنة
التالية هاجم فرنسا وانتصر عليها في واقعة « أجنكورت Agincourt »
بالقرب من مكان واقعة « كرسى » سالفة الذكر .

وكانت الفوضى حينذاك ضاربة بجرانها على فرنسا ، والاضطراب
بالغاً حدّاً لا مثيل له . فقد كان يملكها شارل السادس ضعيفاً مخبولاً ،
والأشراف والأمراء في نزاع مستمر ، كل يحاول الاستئثار بالسلطة

و «دوق برجنديه» أكبر الامراء يحاول انشاء دولة مستقلة . و «دوق أورليان» شقيق الملك ينازعه السلطة . أما ولي عهد المملكة فقد كان من الضعف الجثماني والعقلي بمكان . وفي هذه الظروف التعسة اضطرت حكومة فرنسا أن تعقد مع إنجلترا معاهدة «تروى Troyes» المشهورة سنة ١٤٢٠ ، ومن شروط تلك المعاهدة : ان يتزوج «هنرى الخامس» ملك إنجلترا بالاميرة «كترين» الفرنسية ، وانه إذا مات «شارل السادس» ملك فرنسا من غير وارث يصبح عرشها حقاً لملك إنجلترا ولخلفائه من بعده . ثم أخذت الدسائس الانجليزية تلعب دوراً هاماً بعد المعاهدة ، حتى انه لما مات «شارل السادس» ، ملك فرنسا المعتوه ، أعلنت الملكة «إزابلا» زوجته وأم ولي عهده للملاء ان ابنها ليس ابناً شرعياً لها !! . تريد بذلك حرمانه حقه في ولاية العهد وتمكين الانجليز من تنفيذ الشرط الخاص بضم عرش فرنسا إلى إنجلترا كما ورد في معاهدة «تروى» ، على اعتبار ان الملك شارل السادس توفى ولم يترك وارثاً شرعياً له .

وبهذا العمل الفاضح ، من جانب الملكة إزابلا ، آل العرش الفرنسى إلى هنرى السادس الذى خلف والده على عرش إنجلترا ، وهو لا يزال فى المهد صبياً إذ لم يكن قد تجاوز بضعة أشهر لما توفى والده فى سنة ١٤٢٢ . وعين دوق بدفورد Bedford وصياً عليه وبمساعدته

اعلن هنرى السادس ملكا على شمال فرنسا الى نهر اللوار جنوباً . وما زاد فى خطب فرنسا انضمام دوق « برجنديه » . وهى اكبر إمارات فرنسا ، إلى جانب الانجليز .

اما ولى العهد ، او « الدوفن Douphin » كما يلقبه الفرنسيون ، فقد كان ضعيفا ، خاملا ، فاطر الهمة مترددا ، فانه ارتد على عقبيه ومن انضم اليه من الانصار ، الناقمين على معاهدة « تروى Troyes » ، الساخطين على فعل الملكة فى تبرئها منه ، ارتد يتعثر فى أذيال الخيبة والفشل ، يسود الرعب عسكره ، ويشل عزائمه ، وبخاصة لما هزم الانجليز قواته فى « فرنى Verneuil » فى ١٧ من أغسطس سنة ١٤٢٤ ، حيث ذبح آلاف من الفرنسيين . ومن ثم لجأ الى جنوبي اللوار محتفيا وراء حصون « أورليان » التى كانت تعتبر مفتاحا لجنوب فرنسا .

وفى عام ١٤٢٨ ذاعت الانباء ان الانجليز يحاصرون أورليان ، وان سقوطها فى ايديهم أصبح أمرا لا ريب فيه . فقد كان الفرنسيون على حال من الفوضى ، وخور العزيمة ، وضعف الثقة بالنفس فكانوا يلوذون بالفرار لمجرد رؤية الجيش المغير . ومتى فقد الجيش ثقته بنفسه فقد ضاع منه كل أمل ، وخاب فيه كل رجاء .

ولكن بينماهم يعانون آلام هذا الفشل الذريع ، ويرزحون تحت عبء من العجز مقيم ، أرسل الله لهم من بدل يأسهم املا ، وقنوطهم

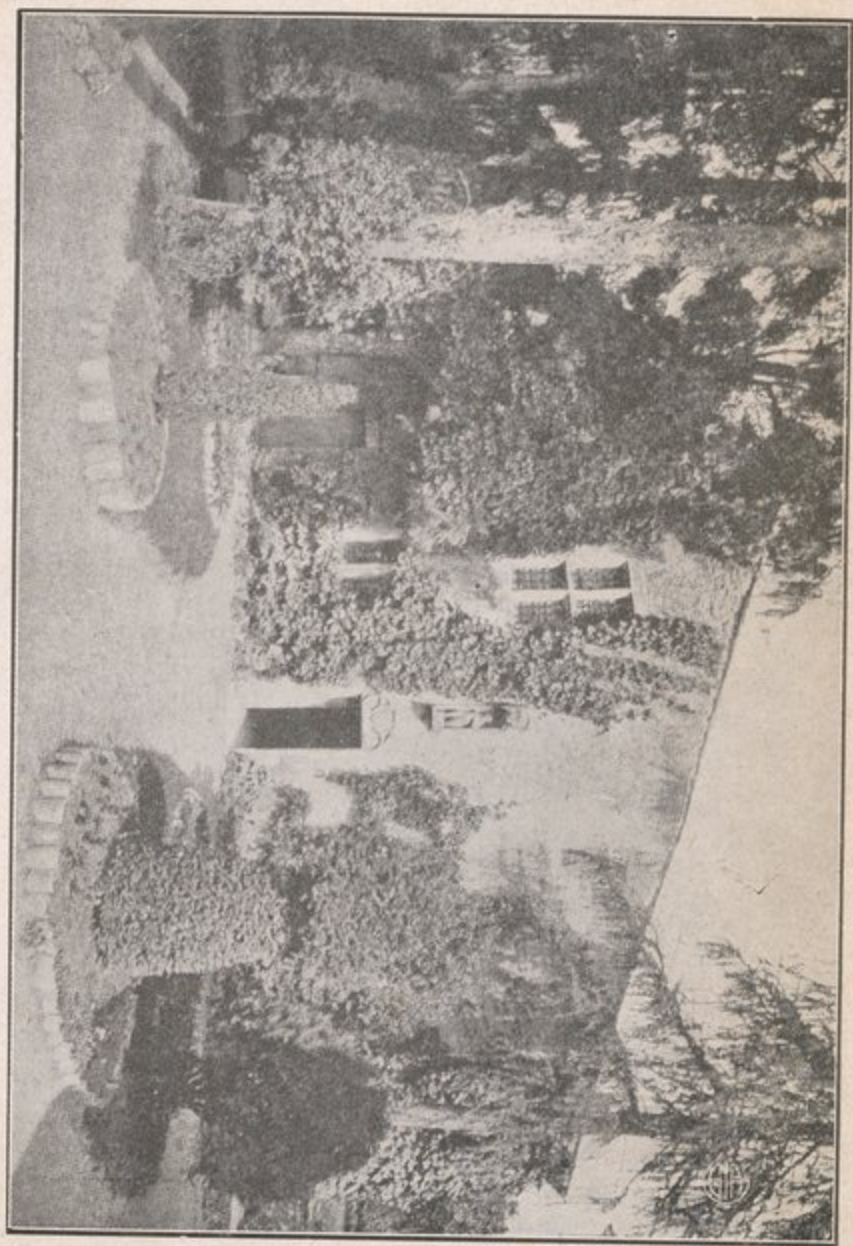
رجاء ، وبعث فيهم همما كانت قد فترت ، وأحيا منهم نفوسا كانت
خمدت . نعم . أرسل الله نصره « وإن ينصركم الله فلا غالب لكم »
فقد قدمت إلى أورليان فتاة اللورين « مخلصه فرنسا ، جان دارك
فعزوا بعد ذل ، وأمنوا من خوف ، وسادوا بعد عبودية ورق .

أما من هي جان دارك ؟ وما خبرها ؟ وما عملها ؟ فيكفي ان أبادر
بالقول لك هنا « انها اعظم امرأة أنجبتها فرنسا . او إن شئت فقل أنجبتها
الجنس البشرى كله » وفي الصفحات التالية تفصيل ما قامت به من عمل
في سبيل وطنها اترك لك تقديره ، فان شئت وافقت المؤرخ الذي
اقتبست منه الكلمة المتقدمة ، وان شئت خالفته في التقدير بعد
علمك بالحقائق كلها (١) .

ان الفرنسيين كانوا في ذلك العهد يتناقلون نبوة خلاصتها ان فرنسا ستضعها امرأة وستنقذها
فتاة من اللورين . فاما التي اضعها فهي ايرابلا التي ادعت عدم شرعية ولاية ابنها للعرش ، واما
منقذتها فهي جان دارك .

21

THE UNIVERSITY OF CHICAGO PRESS



منزل جان دارك في دو مريحي

نشأة جان دارك

يجتهد الكتاب عند محاولتهم بيان نشأة عظيم من العظماء أن يبرزوا لقراءتهم في عبارة خلاصة ، غرائب طفولتهم ، ونوادير حداثتهم ، وجلها في نظري ، إن لم يكن كلها ، من بنات أفكارهم ، ووليدة خيالهم . يقصدون بها إلى جذب القارئ ، وإرادته على استيعاب الموضوع الاصلى والغرض الاساسى منه ، في غير ملل ولا سأمه . لم يعزب ذلك عن بالى . عندما بدأت أجمع مادتي لهذا الكتاب ، وقد صادفتني في أثناء بحثي في تفاصيل حياة جان دارك كثير من النوادير التي تزعم تلك المصادر أنها وقعت لها ، أو جرت منها . ولكنني عزمتم أن أطرح الخيال جانباً ، وأن أقصر ما أدونه عنها ، في جميع أدوار حياتها على ذكر حقائق تلك الحياة ، مجردة عن كل زخرف وتزييق ، خلوا من كل تخيل وتنميق ، لعلمي أن حقائق حياتها المجردة كافية وحدها لاستثارة كل عاطفة نبيلة عند القارئ . ولعمري إن العاطفة التي تتحرك للحق . وتتحمس له ، وله وحده ، هي عندي خير وأبقى من عواطف يستثيرها الخيال ، وتحركها خوادع الأوهام ، فلا تلبث أن تخمد ، وتعود سيرتها الأولى من الجمود .

واليك حقائق جان دارك كما طبعتها على صفحات الدهر الخالدة

فاقرأها ، وأعتبر بها ، عسى أن تبر بوطنك كما برت هي من قبل
بوطنها

ولدت جان دارك في قرية دومرمي في مقاطعة « تشمبين » عند
ملتقاها بمقاطعة اللورين من أعمال فرنسا ، لستة أيام خلت من يناير
سنة ١٤١٢ للميلاد . أبوها جاك دارك ، وأمها إيزابل ، ولها إخوة
ثلاثة هم جاك وبيير وجين .

وكانت أسرة دارك معروفة في القرية بطيب سمعتها ، وتدين أفرادها .
وتعرف أمها باسم « الرومية » نسبة إلى رومية في نظر بعض المؤرخين
ويكون معناه « التي حجّت إلى رومية » مركز البابا ، ومقر كنيسة
بطرس الرسول ، وهو في نظر البعض الآخر لقب لأسرتها ، وحينئذ
لا يكون لهذا اللقب أى معنى خاص غير معناه العادى . وكانت
« الرومية » صالحة متدينة ، لا تغفل عن الكنيسة ، ولا تلهو قط عن
أعمالها المنزلية ، التي ينبغى لكل أم في مثل هذه البيئة أن تقوم بها .
فهى ابدأت تجد ماتعمله ، ما بين قيامها المبكر ونومها المتأخر . وكانت
تملاً ما قد تسميه وقت فراغها بالغزل والحياكة وما اليهما . فلا
نبالغ إذا قلنا إن إيزابل كانت حركة دائبة ، وكذلك كان زوجها له
حقل ، وله ماشية ، انصرف إلى رعايتها هو وولده جاك وبيير . وكان
الأب جاك ، فوق هذا ، بارز الرجولة في حركته وفي سكونه . في

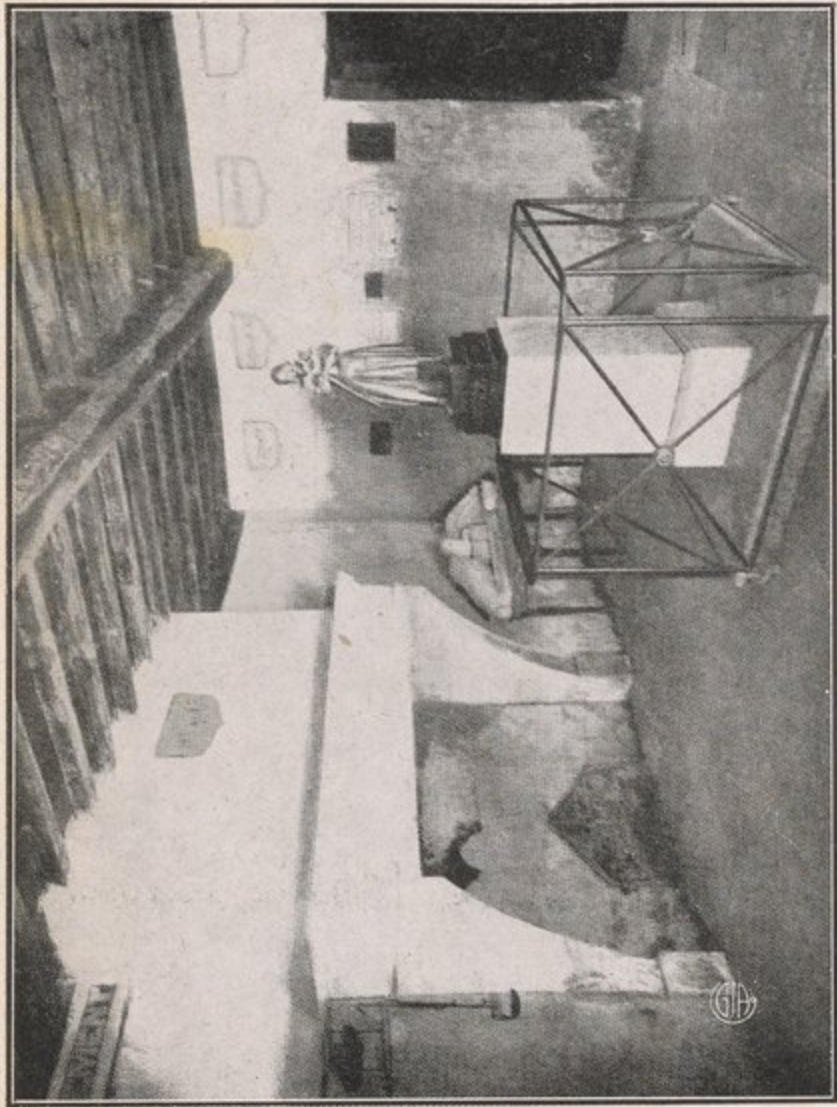
قوله وفي فعله . يرجع اليه في أمور القرية . فقد كان عميدها ،
وصاحب الرأي فيها ، والمتكلم عنها إذ حز بها أمر أو التأت عليها شيء .
أما ابنتاه جين و جان : فقد تزوجت أولاهما ، وانتقلت الى
بيت زوجها . وشبت الثانية - موضوع كتابنا هذا - في المنزل
مع أمها ، تساعدها ما استطاعت في عملها . وتذهب معها الى الكنيسة
كلما ذهبت ، تقيم صلواتها ، ثم تقفل راجعة الى واجباتها الأخرى
وكانت أحيانا ترعى غنم أبيها في الحقول المجاورة .

وأهم ما امتازت به جان ، وهى فى سنيتها الأولى ، على أترابها ،
مواظبتها على الذهاب الى الكنيسة ، وفرط ما كانت تبديه من
الاحترام لقسيسها ، وقد لفت تدينها هذا اليها أنظار الناس أجمعين ،
كبارهم ، وصغارهم ، فكان يسخر منها قوم ، ويعجب بها قوم ،
ويقبل عليها آخرون .

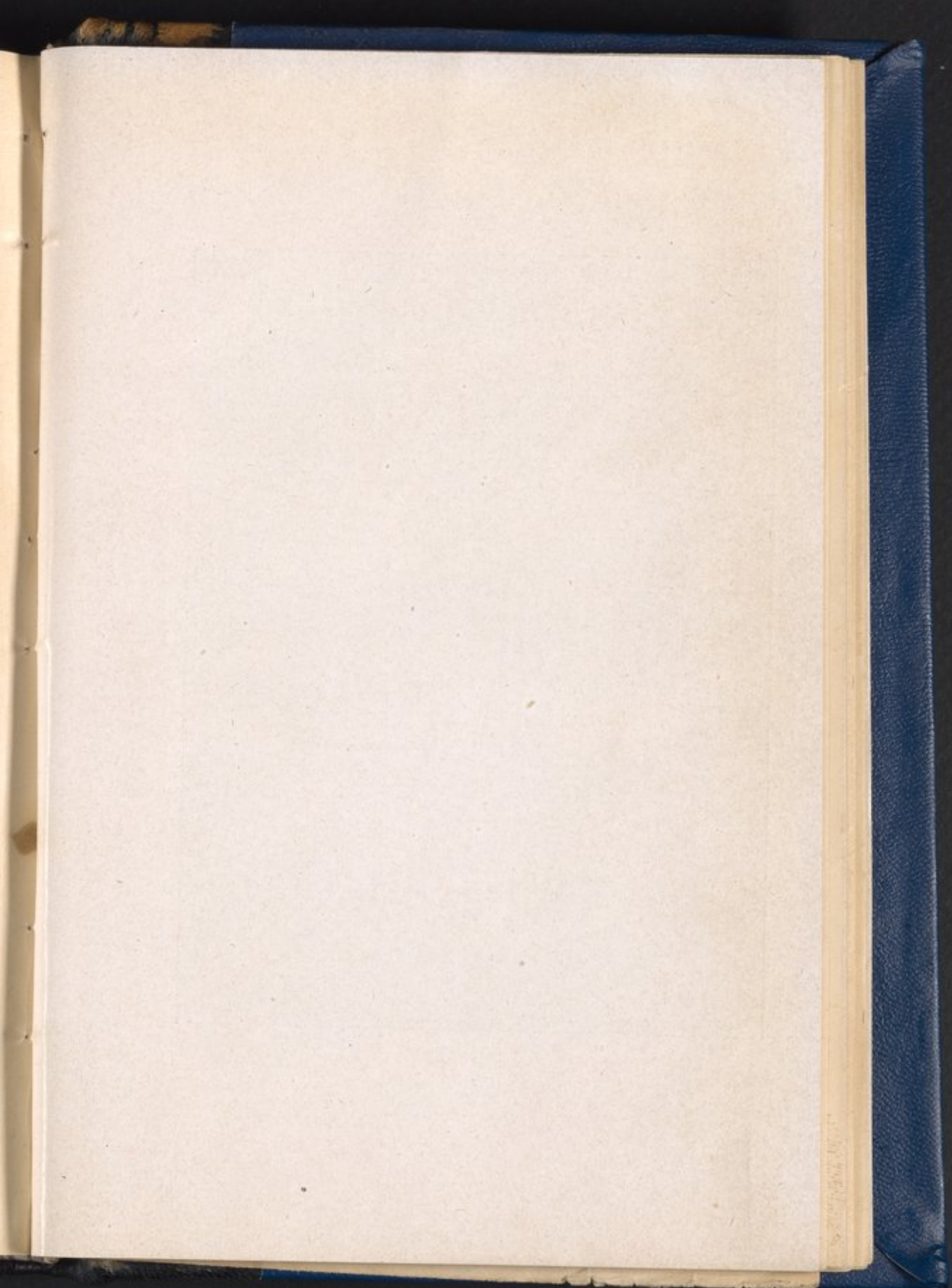
وهى ، بين هؤلاء وهؤلاء ، تمضى فى طريقها ، لاتعنى بالسخرية ،
ولا يبطرها الاعجاب . فأجمعت القلوب على محبتها . وكان رفقاًؤها ،
الذين يتهامون عليها ، وهى بعيدة عنهم ، يبادرونها بالاحترام اذا
هى قدمت عليهم وشاركتهم فى حديث ، أو زاملتهم فى لعبة من
العابهم . وقد كانت تزامنهم فى اللعب أحيانا قليلة ، لأنها كانت فى غالب
أوقاتها تنصرف الى الصلاة بينما الكل يلهون ويلعبون .

وكان بيت أسرتها قريباً من الكنيسة : يقع خلفها ولا يفصله عنها سوى حديقة المنزل . فشبت جان على نغمت الناقوس يؤذن القوم للصلاة . وكانت القرية في بقعة من الارض ، خلعت عليها الطبيعة بهاء ورونقا ، يمتد بينها وبين نهر الموز سهل تكسوه الخضرة ثوباً سندسياً ناضراً ، والازهار باسمه ماثولة في جوانبه ، ومن خلف القرية منحدر يعلو تدريجاً الى شرف من الارض تغطيه غابة كثيفة من شجر البلوط . وكانت هذه الغابة مستودع الاسرار الخفية لدى اولاد دومريمي . ففيها الجن ، وفيها التنين الهائل ، وفيها غير ذلك من الخفايا التي جسمها الخيال ، والتي لا اثر لها في الواقع . وانما هو الوهم يعبت بعقول الاطفال ، ويجد مرعى خصيباً في البيئه التي يخيم عليها الجهل . وليس اطفال دومريمي هم وحدهم الذين يتخيّلون الأخيلة العجيبة عن الغابات المجهولة ، والأمكنة المهجورة بل تلك سنة الاطفال في العالم كله . ودونك اطفال مصر جميعاً فاسألهم معتقداتهم في « خرائب » القرى تسمع منهم عجبا .

وفي الطريق إلى فوكولير ، مقر حاكم تلك المنطقة . وعلى مقربة من دومريمي فضاء مرتفع ، مغطى بالخضرة ، تقوم في وسطه دوحة ضخمة من شجر الزان ممتدة الفروع وارقة الظلال ، بجوارها عين ماء صافية . وحت ظلل تلك الدوحة ، وبجوار هذه العين ، كان اطفال



الحجرة التي ولدت فيها جان دارك في دوسمى.



دومريمي ، وكلهم من رعاة الماشية ، يقضون وقت فراغهم ، وفترات راحتهم زمن الصيف ، يلعبون ويرقصون ، وينشدون أغانيهم الساذجة البريئة . وكان من عادة هؤلاء الأطفال أن يجمعوا الأزهار ويلقوها في فروع تلك الشجرة اعتقاداً منهم أن الجن يأتون ليلاً فيبتهجون بتلك الأزهار وينعمون بها ، لأن الجن تحب كل ما هو عبقري جميل . وكان في اعتقادهم كذلك أن الجن تقابل الاحسان بالاحسان ، وتجزى الجميل بمثله ، فتحفظ لهم عين الماء صافية فياضة ، وتطارد الأفاعي والحشرات التي تسعى في إيذائهم . ولتعلق أطفال دومريمي بتلك الشجرة وما أنشئوه حولها من الأوهام والخرافات ، عرفوا بين أطفال تلك المنطقة باسم « أطفال الشجرة » وعرفت الشجرة باسم « شجرة الجنيات » .

وكاتت جان ، وهي ترعى غنم أبيها ، تذهب إلى الشجرة مع الذاهبين ، أو تقصد إلى الغابة إذا دعتهما الحاجة إلى الرعي ، ولا بد من أنها كانت تعتقد ما يعتقدده كل أولاد القرية في الغابة أو في الشجرة ، وإن كان قد عرف عنها أنها لم تنس صلواتها حتى وهي في الغابة إذ كانت تنبذ منها مكاناً قصياً ، وتتلو صلواتها ، وترتل أناشيدها .

وصاحبت جان صديقتين من جيرانها ، تدعى إحداهما « هومت » والأخرى « منجت » ، جعلتهما موضع ثقتهما ومحبتها . وسيكون لهما

الصديقتين شأن في المستقبل الذي ادخره القدر لجان . وستكونان بعد موتها ، وفي آخر عمرهما ، موضع الاجلال والاحترام ، لمجرد أنهما كانتا صديقتين لها .

وكان أطفال دومري ، كأترابهم ، يلقب بعضهم بعضا بألقاب تتضمن الإشارة الى صفة بارزة ، أو ميل خاص ، أو عضو شاذ أو غير ذلك مما تبتدعه « عبقرية » الأطفال الخاصة في أثناء المزاح وترويح النفس . ولم تسلم جان من تلك القاعدة ، بل وجدوا فيها وفي تدينها الظاهر ، وفي حالاتها النفسية ، ومظاهرها الخلقية مجالا واسعا للألقاب . فقد رأوا فيما يعترها من الخجل والارتباك ، لاسيما في حضور أجنبي عنها ، أن يلقبوها « جان الخجول » . ومنهم من لاحظوا عليها شدة تأثرها بأخبار الحرب ، ورأوا عنايتها الخاصة بمن يتفق مروره بدومري من الجرحى أو الفارين فكانوا يلقبونها « جان الوطنية » . ومنهم من كانوا يؤخذون بحماستها ، أو يدهشون لثباتها ، فلقبوها « جان الشجاعة » . ولتلك الألقاب البريئة ، الصادرة عن عقيدة الأطفال الساذجة ، أهمية خاصة في بيان ظروف نشأة جان ، والعوامل المحيطة بها ، التي كان لها الأثر الأكبر في تكوين عقيدتها . ودفعها إلى المضي فيما سارت فيه .

وقبل أن نبين تلك الظروف ، يجدر بالقارىء أن يعرف أن أهل دومريجي كانوا جميعاً من الوطنيين أنصار الدوفن الملك الشرعى ، أى من « الأرمينياك » : وتحيط بهم قرى تشميين وكلها من أنصار دوق برجندى حليف إنجلترا ، ومؤيد دعوتها فى عرش فرنسا . وإليك أيها القارىء بياناً موجزاً يفسر لك مركز « الأرمينياك » ومركز « البرجنديين » من النزاع القديم القائم بين ملوك فرنسا من ناحية وملوك إنجلترا من الناحية الأخرى ، ويعينك على تعرف الجانب الذى كانت « دومريجي » تؤيده ، وقد سبقت الإشارة إلى شئ من ذلك ، ولكن الأمر مهم يحتاج إلى زيادة الايضاح واليك البيان لما تغلب الانجليز ، بقيادة « الأمير الأسود » ، على الفرنسيين فى « بواتيه » سنة ١٣٥٦ ، وأسروا « حنا » ملك فرنسا ، وكان له ابن صغير اسمه « فيليب » أعجب به أبوه ، لاستبسالة فى الحرب ، ودفاعه المجيد ، فمنحه « مقاطعة برجندى » العظيمة ، جائزة له على شجاعته ، وهى فى شرق فرنسا ، يحكمها بلقب « دوق برجندى » هو وأولاده من بعده . ولقبه فوق هذا « فيليب الشجاع » . والقارىء يعلم ، من نظرية النظام الاقطاعى ، أنه يقضى بأن يدين كل أمير بالطاعة للملك ، فى مقابل ما أقطعه . وعلى ذلك حكم « دوق برجندى » مقاطعته الجديدة معترفاً للملك بحق الطاعة . واستمر خلفاؤه من بعده على هذا السنن . ولكن كرسنين ، وضعف الملوك ، أطمع دوق برجندى فى الاستقلال

بمقاطعته . ولما جلس على عرش فرنسا « شارل السادس » او
« الملك المجنون » كما كان يلقب ، تقدم « دوق برجندى » وأخذ
ولاية الحكم نيابة عنه . ولكن أخا « الملك المجنون » وكان يسمى
« دوق أورليان » ، نازع دوق برجندى ولاية الحكم بالنيابة نزاعاً
عنيفاً ، وانقسم أهل فرنسا من أشرف ، ورجال دين ، وعلماء ،
حزبين : حزب يؤيد دوق برجندى فى دعواه ، والآخر يؤيد دوق
أورليان . وأدى النزاع إلى أن قتل دوق برجندى دوق أورليان
غدرًا وغيلة ، فشبت الحرب بين أنصار الفريقين . ولما كان خلف
دوق أورليان المقتول قد تزوج من ابنة أحد أشرف جنوب فرنسا
العظام ، المسمى « أرمنياك » ، فقد أصبح أنصار أورليان يسمون
« الأرمنياك » ، وأنصار دوق برجندى يسمون « البرجنديين » . وأصبح
التناحر بينهما والتنافس قائماً على أيهما يستولى على باريس حاضرة
الملك ، ويستأثر بالسلطة فيها ، أو يقوم بالأمر نيابة عن ملكها
« المجنون » . وهكذا انقسم أبناء البلد الواحد ، وكانت نتيجة الانقسام
خراباً شاملاً ، وهلاكاً للأفئس وضياعاً للأموال . وهذا الانقسام
هو الذى حفز « هنرى الخامس » ملك إنجلترا إلى العودة إلى ادعاء
ذلك الحق القديم فى عرش فرنسا والذى قضى عليه قيام أسرة « فلوا »
بالحكم فى البلاد . وقد مكن الانقسام الملك هنرى من الانتصار الباهر

على « الأرمنياك » ، في أجنكورت سنة ١٤١٥ كما مر بك بيانه ، كما أنه
أسر دوق أورليان الصغير الذى خلف أباه المقتول . وتملك هنرى
المدن ، والقلاع الواقعة فى شمالى فرنسا ، الواحدة تلو الأخرى ، ومن
بينها مدينة « روان » العظيمة بعد حصار شديد . وبينما كان الملك
هنرى الخامس يتابع انتصاراته ، قتل « الأرمنياك » دوق برجندى
فخلفه فى الدوقية ابنه « فيليب » الذى صمم على أن يثأر لأبيه من قتلته
فانضم إلى هنرى الخامس على أمل أن يستقل استقلالاً تاماً بعد موت
ملك فرنسا ، نظير مساعدته للملك هنرى . ولذا كانت له ضلع فى تلك
الفضيحة التاريخية الكبرى التى اشترك فى تمثيلها الملك هنرى الخامس
والملكة إيزابلا ، زوج ملك فرنسا « المجنون » لكى يتمكنوا من تنفيذ
شروط معاهدة « تروى » وهى الفضيحة الخاصة بادعاء الملكة إيزابلا ،
السيئة السمعة ، أن ابنها « شارل » ليس شرعياً ، وأنه بهذا لا يحق له أن
يرث العرش : بهذا العار لطخت تلك المرأة الساقطة وجه ابنها لكى
تمكن الانجليز من تنفيذ الشرط الوارد فى معاهدة « تروى » كما مر
بك ، ولكنها كانت كاذبة فى دعواها كما أثبت المؤرخون ، وإن كان
تفريطها وإفراطها قد جعل فريقاً كبيراً من أهل البلاد ينفضون من
حول الابن قائلين « لو لم يكن حقاً ابناً غير شرعى لما اجترأت أمه
على إعلان ذلك » . ولم يعلموا ان المطامع والفسائس تعمى وتصم .

فما بالك والمملكة إيزابلا ، وإن تكن ملكة فرنسا ، إلا انها كانت غريبة عنها ، لأنها من أصل ألماني ، وكانت فوق هذا قليلة الاكتراث بقيود الشرف والعفة .

ومات هنرى الخامس فى سنة ١٤٢٢م . فخلفه ابنه ولما يكن قد جاوز الشهر التاسع من عمره ، باسم « هنرى السادس » ملك انجلترا . وقام عمه الدوق « بدفورد » وصياً عليه . وبعد شهرين من وفاته مات ملك فرنسا « المجنون » فأصبح هنرى ملكا على فرنسا أيضا كما تقضى معاهدة « تروى » وإعلان الملكة إيزابلا عدم شرعية مولد ابنها . أما « شارل » ولى عهد فرنسا ، الذى نبذته أمه ، فلم يبق له فى البلاد نصير سوى « الأرميناك » الذين اضطروا إلى الالتجاء إلى جنوبى فرنسا بعد أسر زعيمهم ، وتآلب كل القوى ضدهم : فالإنجليز قد استولوا على شمال فرنسا كله ، والبرجنديون قد تسلطوا على شرقها . وولى العهد بقواه المنحلة قد صار طريداً على اللوار ينتظر حكم الأقدار فيه .

ولنعد إلى أطفال دومريمى ، وألقاب جان ، وبيان ظروفها ، لأن مسرح الحوادث التى مر بك ذكرها ، أصبح يتطلب وجودها ، لكى تقوم بالدور الذى أعدته الأقدار لها . قلنا إن الأطفال كانوا يسمونها « جان الشجاعة » و « جان الوطنية » ، فما الذى دعاهم إلى اختيار تلك الألقاب لها ؟ وفيما كانت شجاعة ؟ ولم كانت وطنية ؟ إليك الايضاح

كانت دوميريمي بعيدة عن ساحة القتال المباشر . فقد كانت الحرب في شمالها أو غربيها . ولكن ليس معنى هذا أنها لم تكن متأثرة بالحرب وأخبارها . فقد كانت أنباء الوقائع يتردد صداها في كل الأرجاء بمجرد وقوعها . وكانت كمثل الأخبار في كل زمان ومكان تتجسم وتتضخم كلما انتقلت من مكان إلى مكان . فإذا حدث في واقعة مثلاً أن كان عدد القتلى لا يتجاوز المائة ، لا يلبث الرواة أن ينقلوه آلافاً مؤلفة . فالى دوميريمي كانت ترد الأخبار وقد ضاعفها الوهم ، وجسمها الخيال . وكان انزعاج القرية لها عظيماً ، لأنها كانت تدين بالولاء لولى العهد الشرعى كما أسلفنا .

ومن الأخبار الفاجعة التى وصلت إلى دوميريمي أخبار معاهدة « تروى » . وإليك وصف ما كان من الأثر لتلك الأخبار ، على الكبار والصغار من أهل القرية ، باختصار شديد عن رواية « لويس دى كونت Louis De Contes » غلام جان دارك وكاتم سرها ، ومواطنها ، والذي اتخذ « مارك توين » أقواله أساساً لكتابه المشهور عنها . قال : « فى يوم الثلاثاء كنا نرتع ونلعب تحت الشجرة ، ونعلق عليها الأزهار كعادتنا ، وبينما نحن كذلك ، إذ صاحت « منجت » الفتاة الصغيرة قائلة :

— انظروا ! ما هذا ! ؟

فالتف الأطفال حولها ينظرون ، واتجهت عيون الجميع إلى الجهة التي طلبت « منجت » منهم أن ينظروا إليها ، وكانت جهة القرية .

— إنها راية سوداء !

— راية سوداء !! كلا . أهي كذلك !!

— نعم . حقق النظر فلن تجدها إلا راية سوداء .

وبعد قليل من تحديق النظر وإمعانه ، عرفوا أن القادم عليهم ، يحمل راية سوداء ، هو الولد ايتين روز Etienne Roze فانتظروه متلهفين حتى صعد اليهم ، ثم ثبت عصاه في الأرض ، وطلب من الجميع أن ينصتوا حتى يسترد انفاسه ، فقد جاءهم يعدو لاهثا طول الطريق . فانصت الجميع ، ووقفوا حوله على أحر من الجمر ينتظرون ماوراءه من الأخبار :

لقد تواترت أخبار السوء ، ولهذا جمتكم أحمل هذه الراية السوداء فقد عقدت معاهدة في مدينة «تروى Troyes» بين فرنسا ، والانجليز ، والبرجندين . وفيها ضاعت حقوق فرنسا ، وانتكث عهدها ، وسلمت للعدو . وهذه المعاهدة هي من عمل دوق برجندي وتلك الشيطانة الرجيمة ملكة فرنسا . وتقضى المعاهدة ان يتزوج هنرى ملك انجلترا من الأميرة كترين الفرنسية فاعترضه صوت من الجماعة :

« ان هذا لا فتراميين ! أنتزوج أميرة فرنسية من سفاح أجنكورت؟
هذا بعيد لا يمكن تصديقه . ولا بد أنك قد أسأت سمعا فأسأت فهما »
— إذا لم تصدق هذا يا جاك (وكان جاك دارك أخو جان
هو المعترض) فاعلم أن ماهو آت أشد عليك وأنسكى . فقد قضى الأمر
على أن أى مولود من هذا التزواج ، ذكر ا كان أم أنثى ، يرث عرش
فرنسا و انجلترا معا هو وذريته من بعده

— « الآن قد تحقق كذب أخبارك لأن قانون الوراثة يمنع البنت
من وراثة العرش و بذلك يكون كلامك لغوا لا يمكن تصديقه ... »
وهنا ضج الجميع ، واختلطت أصواتهم ، وارتفعت صيحاتهم
استنكاراً وسخطا على ما سمعوه . ولما اشتد الضجيج وطال تقدمت
« هوفيت » صديقة جان وصاحت بهم « ليس من الانصاف أن تقطعوا
على إيتين كلامه بهذا الضجيج والصخب ، وعليكم ان تتركوه يتم
حديثه » ثم طلبت منه أن يستمر :

— « لم يبق عندى إلا أن أزيدكم علماً بأن شروط المعاهدة
تقضى أن يستمر ملكنا شارل فى الحكم حتى يموت . وبعد ذلك
يصير هنرى وصيا على عرش فرنسا حتى يكون له ولد يستطيع أن ... »
وقبل أن يتم عبارته قاطعه شاب قائلاً : « أبحمنا هذا السفاح ؟ ! هذا
باطل وكله بهتان . وماذا يكون من أمر الدوفن ؟ ماذا تقول المعاهدة

عنه ؟ ، فرد عليه ايتين « لا شيء ! إنها تسلبه عرشه ، وتتركه طريداً .
فصاح الجميع « تلك أخبار ملفقة لا يمكن أن نصدقها » وقالوا مستهزئين
« إن المعاهدة لا تسرى إلا إذا وقعها ملك فرنسا . وهو لا يمكن أن
يوقعها وهي تنزل بابنه كل هذا الاجحاف والظلم » . فرد عليهم ايتين
قائلا « دعوني أسألكم سؤالا : هل توقع الملكة معاهدة تسلب ابنها
حقه في الارث ؟ »

فأجابوا لما كانوا يعرفونه عنها « إنها لا تتورع عن أية كبيرة . إنها
امرأة آثمة . ولكن ما شأنها والمعاهدات ؟ إن المعاهدات وتوقيعها من
شأن الملك . وهي لا تملك حق التوقيع . وإن فعلت فتوقيعها لا قيمة
له . والمهم توقيع الملك »

أسألكم سؤالا آخر : « وما حال الملك ؟ أليس مجنوناً ؟ »

فرد جاك دارك على هذا السؤال بقوله :

« نعم . هو مجنون . والشعب يحبه من أجل ألمه ، ويعطف
عليه في محنته »

« انك لا تقول الا حقا يا جاك . ولكن أسأل مجنون عما
يفعل ؟ أليس يفعل ما يطلبه الذين حوله ؟ لقد طلبوا منه أن يوقع
فوقع ؟ »

فصاحوا « ومن الذي طلب منه التوقيع ؟ »

« الملكة » !!

وعند سماع رده علا الضجيج مرة أخرى وأخذت اللعنات تتساقط على رأس الملكة الخائنة . وصار الكل يضحون ويستنزلون اللعنات على الجميع . وأخذ بعضهم يموج في بعض . واختلط الحابل بالنابل وسمعوا جاك دارك يقول : — « وكثيرا ما تكون الاشاعات باطلة غير أنه لم يصل الينا في كل ما وصل أشأم ولا أجلب للعار ، أو أبلغ في التأثير مما سمعناه الآن ، وما انحطت منزلة فرنسا يوما الى مثل درك هذه الاشاعة التي يرويها لنا ايتين روز . لعلها من إشاعات السوء ، ولعلها كاذبة . وما مصدرك من هذه الاشاعة يا ايتين ؟ »

وفي تلك اللحظة اكفر وجه أخته جان التي كانت طيلة الوقت صامتا شاحبة مأخوذة بما يرويه ايتين من الأخبار . فما هو إلا أن سأل أخوها عن مصدر الاشاعة حتى أحست أن المصدر جدير بالتصديق فعلت وجهها صفرة وخافت مغبة الجواب . ولقد صدق حدس جان لأن المصدر كان قس « ما كس » البلدة المقابلة لدومريمي وما إن ذكر اسمه حتى شخصت أبصار الحاضرين ، وحبسوا أنفاسهم ، لأن القس كان موضع ثقتهم ، ومحل احترامهم . ثم تساءل الأولاد في لهف « وهل القس نفسه يصدق تلك الأنباء ؟ » « نعم هو يصدقها بل يقول إنه يعرف أنها صحيحة »

وهنا اغرورقت عيون البنات بالدموع ، وحمد الا وولاد في
أما كنهم ، وكان الأثم البادي على جان يشبه الأثم الذي يصيب
العجماوات إذا ضربت ضربة قاتلة ، اذ تحمل ألمها المبرح صامته
لا تبدى حراكا . وكذلك فعل في جان ألمها فمسح أخوها بيده على رأسها
يلاطفها ، فأخذتها ثم قبلتها شاكرة وهي صامته . وانقضت فترة طويلة
ساد فيها السكون .

وبعد أن خفت صدمة الأخبار بدأ الأولاد والبنات يتناقشون
ويتجادلون فيما كان ، وفيما كان ينبغي أن يكون ، وفيما سوف يكون
وودوا جميعاً لو كانوا كباراً يحسنون الرمي وتقليب السيوف ، فيخوضون
غمار الحرب ، وينتقمون لبلادهم من أعدائها شر انتقام . ومضوا
يتدرجون في أحلامهم ، ويسبحون في أخيلتهم . ولم تكن الفتيات
أقل حماسة من الفتيان . إذ ماذا كانت تكلفهم الحماسة ؟ الفاظ جوفاء
يلقونها هنا وهناك ، وبسط للاذرع وقبض لها في الهواء . وانتهر احد
الفتيان الخبيثاء دعاوى فتاة تغلبت الحماسة عليها وهي تقول « لو كنت
رجلا لقمتم للحرب الساعة » وأخرى ترفع صوتها وهي تشب كالجواد
على أهبة الموقعة « أوكد لكم أني ما كنت أعود من ميدان القتال ولو
اجتمعت انجلترا كلها أمامي ، فقال « إن الكلام هو كل ما تستطيعه
البنات . ولو جئت بألف منهن لمواجهة ثلثة من الجند لعرفت الفرار
كيف يكون » ثم التفت إلى جان وقال هازئاً « وتلك أيضاً قد تهددنا

بانها ستصبح جندياً مستعداً للقتال!!» وكانت جان معروفة بشدة
خجلها وتدينها كما مر بك ، فلم يكذب يمثّل جان الهادئة الوديعه جندياً
حتى قهقهه الجمع ، فدفعه السرور من عبارته الى أن يسترسل
ويقول « ولقد ترفض أن تكون جندياً بسيطاً ، فتصر على أن تكون
ضابطاً كامل العدة والسلاح ! ومن يدري ؟ فقد تأني هذا وتصر على أن
تكون قائداً عظيماً ينقض على الأعداء انقضاض الصاعقة ! » وكلما
ارتفع الشقى بجان رتبة من الرتب العسكرية ، ضج المكان بضحك
الجميع . كل هذا وهي في حياء وخجل من ضحك القوم منها . ولكن
سرعان ما انتقم الله لها منهم قبل أن يبرحوا مكانهم . وذلك أنهم بينما
كانوا يتضحكون ويتبادلون النكات ، اذ برز لهم من خلف الشجرة
وجه مخلوق مخيف هو وجه بنوا Benoist المعتوه ، وكان رجلاً أبله
قد حبسه أهل دومري في قفص حتى لا يزعج أولادهم في غدوهم
ورواحهم ، ولكن الأقدار شاءت أن يتمكن من فك أغلاله ، والسير
حتى الشجرة يحمل « بلطة » ، وقد طال شعره ، وأظلم وجهه ، وفاجأ
الصيدية تحت الشجرة وهم يضحكون من جان ويسخرون ، وكيف تصير
جندياً محاربا وهي الخجلة الوديعه .

وما أن رأى هؤلاء « الابطال » ، الذين دوخوا العالم في خيالهم ،
وجه المعتوه يطل عليهم من خلف الشجرة ، حتى انتثر عقد اجتماعهم
وتشتتوا . وسرعان ما اسلموا سيقانهم للريح طلب النجاة : فروا جميعاً

ولم يثبت منهم سوى جان : وقفت للمعتوه تتلقاه بجأش رابط ،
وجنان ثابت ، كأنه رجل عادى جاء يطلب منها شربة ماء مع أنه كان
يحمل البلطة مرفوعة في يده ، مستعداً للبطش بها ، وهو المجنون الذى
لا يدرى ما يفعل . صمدت له جان وحدها بينما كان الباقون قد وصلوا
إلى حدود القرية عدواً ، وبعد أن اطمانوا لحمايتها ، تلفتوا وراءهم ، فرأوا
ويا هول ما رأوا ! رأوا المجنون يدلف الى جان والبلطة مرفوعة في
يده . وما اعترتهم خلجة شك في أنه ها وبها على رأس الفتاة المسكينة
فجمدوا في أمكنتهم ينظرون ، وقد ملك عليهم الرعب حواسهم ،
وتقدمت جان من المعتوه وهو يشير إليها أن تقف مكانها أو يقطعها
إربا إربا . ولكنها تقدمت اليه ، رغم إشارته ، ثم أخذت البلطة من
يده ، وقبضت بيدها الأخرى على يده الثانية ، وسارت به في تودة
وهوادة نحو المدينة . فلما رآهما الأطفال قادمين ارتدوا الى القرية
يعلنون ما حدث ، ويستحثون الناس لتخليص جان من الوحش
الضارى ، فأقبلوا من كل فج ، وساقوا المجنون الى قفصه . وكان
حادث جان والمجنون حديث الناس في كل مجتمع وناد . بعد أن كانت
البلدة تغلى كالقدر من جراء أخبار معاهدة « تروى » لأن أخبارها ،
التي أذاعها القس ، كانت قد انتشرت سريعاً بين الكبار والصغار ،
وتولى القوم وجوم لم يقطعه الا حادث جان والمعتوه ومن هذه

الحادثة لقبته جان «بالشجاعة». وكانت موضع إعجاب الجميع. ذلك
الإعجاب الذي أخجل تواضعها وجعلها تتحاشى الناس فراراً من ثنائهم،
ومظاهر رضائهم.

ولم تكن أخبار معاهدة «تروى» هي كل ما تسرب من أخبار
الحرب الى دومريمي. فقد كانت القرية لا تخلو من الجند الفارين من
ميادين القتال أو عصابات النهب التي كانت تنتهز الفرص للسلب
والسطو على القرى الآمنة. وقد ألفت الناس سطو تلك العصابات على
قراهم وهم آمنون وكانوا يتوقعونها على الدوام. فقد كانت الحرب
القائمة في ذلك الزمن كالداء العضال تظهر أعراضه حيناً بعد حين،
حتى ضاق الناس به ذرعاً.

والواقع أن حديث الحرب وويلاتها، وهزائمها وانتصاراتها،
كانت دائماً مدار حديث القوم في طول البلاد وعرضها، لافي دومريمي
وحدها، ولا هي في مكان أقل منها في مكان آخر، وكان ذلك طبيعياً.
وما كان ينتظر أن يجلس القوم حول موقد النار في الليالي المقرورة
يتحدثون سرّاً أو جهراً في غير شؤون الحرب وما تجره من تكاليف
وأهوال، فتلك قرية قد دمرت تدميراً، وهذه كنيسة قوضت تقويضاً
ولم يرع العدو لها حرمة. وهناك ماشية اغتصبها العصابات المتجولة.
وهنا فظائع وحشية ارتكبت ضد الشيوخ العاجزين أو الأطفال

الوادعين . وكلما كان المحدث واسع الخيال فهو دائماً قادر على ان يسلب السامعين لبهم ، ويشده فكرهم . فتارة يثير حماسهم بما يجسمه لهم من حصد جيوش العدو ، التي يتخيلها قادمة للقتك بهم فتحصدها شرذمة قليلة من جنود الوطن . وطوراً يملؤهم حزناً وغماً بذكر الهزائم والمظالم التي تثقل رأسهم هما فيطرفون وجداً وأسفاً .

ولم يكن الموقد خاصاً بالكبار دون الصغار ، بل كان هؤلاء ينشطون إلى أما كنهم في زاوية من المجلس ينصتون إلى أحاديث الكبار في شغف ولهفة ، فاذا استوجب الموقف حماسة كانوا أول المتحمسين . وكثيراً ما كانت تسبقهم أيديهم أو أرجلهم إلى الحركة فتصيب جاراً مسناً من حيث يدرى ولا يدرى . وإذا كان الموقف محزناً غلبت عليهم مظاهر الحزن أو أجهشوا بالبكاء .

وكانت جان كغيرها من الفتيات تسمع قصص الحرب حول الموقد . وقد فاجأت القوم مرة بالنحيب المر عند سماع أخبار ما كان يحيق بفرنسا من المصائب . ولما سألتها إحدى النسوة عن سبب بكائها أجابتها على الفور « أبكى لآنتى أحب الملك » . وفي مرة أخرى وهي تستمع إلى فظائع البرجنديين أخذت تصرف أسنانها وتزمزم بين شفيتها اسم « ما كس » القرية البرجنديّة الواقعة على ضفة الموز المقابلة لدومري .

وكان أطفال دومريمي ، وعلى رأسهم جان ، في عراك مستمر مع أطفال ما كس . وكان يوم العراك يوماً مشهوداً بين الأطفال ، يستعدون له بمعدات القتال ، التي لم تكن في الغالب تتجاوز العصي والحصى ، وقطع الأحجار والأخشاب . التي يجمعونها من هنا وهناك ثم يسرون في صفوف منظمة يتقدمها الفتيان ويتلوهم الفتيات . وكانت الحملة غالباً لا تزيد على العشرين طفلاً من الجنسين ، يهاجمون أطفال القرية البرجندية ، وينهالون عليهم بالعصي والحصى وغيرها مما استطاعوا جمعه من الميرة والذخيرة فيقابلهم الآخرون بالمثل . ثم تسكن زوبعة القتال ، بعد أن تترك آثارها من شج رأس ، أو شق شفة . أو تورم عين ، أو رعاف أو نزف جرح ونحو ذلك . وبعد المعركة يضمون جراحهم ، ويغسلونها في ماء « الموز » ، ثم ينقلبون إلى أهلهم يقصون عليهم ما أظروه من ضروب الشجاعة والبسالة ضد أعدائهم .

وهكذا كانت تجرى الحياة بين دومريمي ، ذات الميول الفرنسية ، الموالية لولى العهد ، وما كس ، ذات الميول البرجندية . ولم يكن الكبار في القرية أقل تبادلاً لمقتضيات الخصومة والسخط ، إلا أن الأمور لم تتخرج بينهم إلى حد العراك الفعلي كما كان يفعل أبناؤهم ، بل لم تكن تعدو تبادل السباب والقذف .

وكانت تلك المعارك تشغل جان وتهتم لها فهي في خلال المعركة تتقدم الصفوف ، وبعد انتهائها تضمد الجروح . وكثيرا ما جرحت هي في أثناءها . ومن اهتمامها هذا لقبته « جان الوطنية » .

وفي أحد الأيام عاد الأطفال من إحدى معاركهم مع أطفال ما كس فوجدوا ساحة القرية تموج بالناس ، وعلى باب الكنيسة وقف قسيس برجندي يلقى على الجمع الحاشد أخباراً جعلتهم يبكون ويضجون ، ويرفعون أصواتهم باللعنة تلو اللعنة . وذلك أنه أخبرهم أن ملك فرنسا شارل السادس قد مات . وبموته أصبحوا هم وفرنسا وتاجها ملكاً للانجليز إذ صار هنري السادس . الطفل ملكاً عليهم كما قضت بذلك نصوص معاهدة تروى . ويطلب من الجمع أن يعلن ولاءه وخضوعه لذلك الملك الجديد ، لأنه عما قليل سيقضى على البقية الباقية من فرنسا التي لم تزل موالية لذلك الذي يسمونه « ولى العهد » مع أن المعاهدة من ناحية ، وفضيحة أمه من ناحية أخرى قد جردتاه من كل الحقوق .

وكان الناس كلما ألقى عليهم القسيس نبأ ، أو طلب منهم مطلباً ، هاجوا وصاحوا في وجهه وهو يقابل هياجهم بسكون وعدم اكتراث بين وبخاصة عندما ختم أنباءه طالباً إلى الجميع أن يصلوا معه لكي يطيل الله حياة الملك هنري ، ملك انجلترا وفرنسا ، وولى النعم المعظم . قال ذلك

بيرود جليّ . وقد عقد الغضب ألسنة الناس فلم ينطقوا ببنت شفة من هول ما سمعوا ومن بشاعة ما يحثهم القسيس على ترديده . وكأنه ظن أن انتقال الناس من مبدأ إلى مبدأ ، وتحولهم عن الولاء لعرش فرنسا ومليكتها ، إلى الولاء لعرش إنجلترا ومليكتها ، أمر هين سائع .

وكان أول صوت اخترق سكون القوم هو صوت الفتاة جان دارك وقد وقفت على كشب من القسيس ، فلم تكذب تسمعه يطلب من الناس الولاء لملك إنجلترا حتى واجهته في صوت رزين جاد « كنت أتمنى أن أرى رأسك يطاح من فوق جسدك ! إن شاء الله ذلك » . وقد فاهت بالجزء الأخير بعد فترة من نطقها بالجزء الأول .

وموقف جان هذا من مواقفها المشهورة ، وإن كانت قد وقفته وهي طفلة في العاشرة من عمرها . وذلك لأن قولتها للقسيس هي القولة الوحيدة التي أغلظت فيها جان القول طول حياتها .

ومن يوم أن جاء القسيس البرجندي يعلن أهل دومريمي بالتغيير الملكي والرعب يملاً قلوبهم . وقد أخذت العصابات الجوية تنتشر في أنحاء البلاد . وفي ربيع سنة ١٤٢٨ هاجم البرجنديون دومريمي في موهن من ليلة حالكة الجلباب فدعر سكان القرية ، وفروا للاعتصام بقلعة نيفشاتو Neufchâteau في غير نظام ، فأبطأوا الخطى ، فتقدمت جان ، وكانت قد سلخت ستة عشر ربيعاً من عمرها ، وطلبت في هدوء

من القوم أن ينتظموا في فرارهم . وبعد جهد جهيد تمكنت من تنظيم السير . وكان عملها في تلك الساعة مشهودا .

ولما ارتدت عصابة البرجنديين عن دومريمي ، بعد أن أعملت فيها التدمير والتخريب ، عاد إليها أهلها ، فوجدوها قاعاً صنفصفا تنعى من بناها . أموال ضائعة ، ومتاع مسلوب ، وماشية نافقة ، وحين ذاك أدرك أهل دومريمي حقيقة ما كانوا يسمعون من عمل تلك العصابات الطوافة ، وعلّموا شيئاً عن حقيقة ما تخلفه الحرب من خراب وشقاء ، وما فيها من غلظة وقسوة .

ولم يكن الأطفال أقل انزعاجاً عند عودتهم إلى القرية من آبائهم ، إذ وجدوا كل عزيز لديهم من متاع أو ماشية وقد عفت آثاره . وكان أفضع ما فوجئوا به أنهم وجدوا المجنون ، الذي تركوه في قفصه ، مضرجاً بدمه ، مطعوناً عدة طعنات ، وملقى به في ركن من أركان ساحة المدينة .

وفي الحق أن غارة تلك العصابات نهبت أهل دومريمي إلى حقيقة الخطر الذي يحيق بهم ، وجعلت ما كان يصوره الخيال لهم ، وهم جلوس حول الموقد في المساء ، حقيقة واقعة . فأظلمت الدنيا في أعينهم ، وأوصد باب الرجاء في وجوههم . ألم يكونوا من أنصار ولى العهد ؟ وأين هو الآن ؟ وأي رجاء له في النصر ؟ لقد استولى الانجليز على كل

فرنسا شمالى اللوار ، واستولى البرجنديون على الشرق ، ولم يبق إلا
فرنسا جنوبى اللوار . وحتى هذا القسم منها لا يمكن أن يقال عنه إنه
كان يخضع لولى العهد الشرعى خضوعاً تاماً لأن انتصارات الانجليز
المتتابعة قضت على هيئته ، وشتتت شمل جيشه . وزاد فى ضعفه موت
والده وتولية هنرى السادس ملكاً على انجلترا وفرنسا ، كل هذا قد أفقده
كل أمل فى عرشه ، فضلاً عن أنه كان بطبيعته خامل الذكر ، ضعيفاً ،
هيباً ، رعديداً ، متردداً فى تصديق نسبه بعد كل الذى جرى من أمه .
ثم كان فوق ذلك من ذوى المتربة فمن أين يأتيه النصر ؟ تلك هى
الأفكار التى كانت تجيش بها صدور أهل دومريمى ، وتملأها همماً
وغماً . وخصوصاً حين بدأت حكومة العهد الجديد تفرض عليهم
إتاوات تجبى منهم فى مواقيت معينة ، وكانوا قد عرفوا كيف تجبى
تلك الضرائب فى مدن فرنسا الأخرى ، وما يصحب جبايتها من
إرهاق وقسوة وظلم فوق ظلم . غيوم متلبدة لا يعرف متى تنقشع ؟
هذا ما كان يقرأه المتوسم على جباه أهل دومريمى قرية جان دارك
فى تلك الحقبة من الزمن .

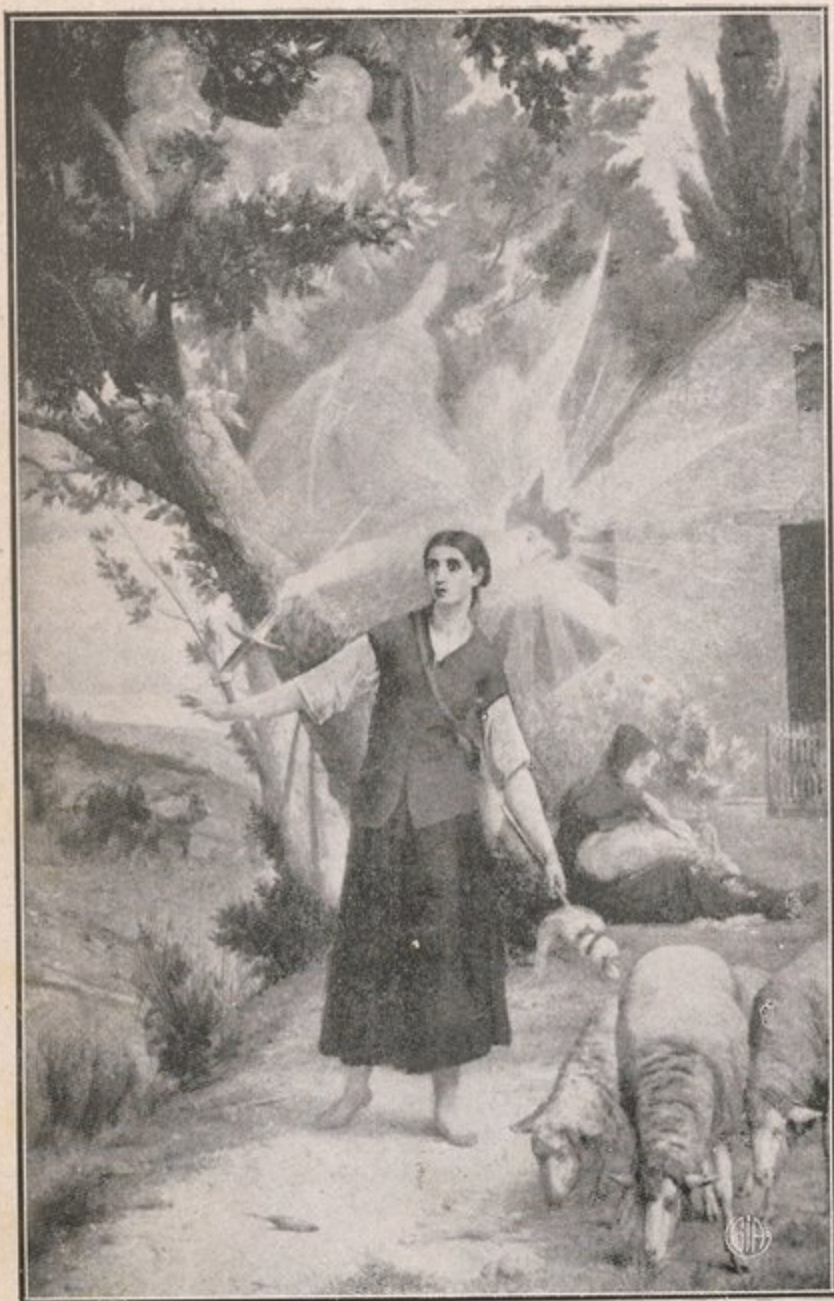
رسالة جان دارك

و كانت أرزاه دومريمي خاصة ، ورزايا فرنسا عامة ، شغل جان الشاغل . تذكرها في صلواتها وخلواتها . وتردها مع أترابها . وتطرقها في أحلامها . وقد بدأت تعلو وجهها سحابة من الحزن الناشئ من التفكير العميق ، وإن كانت قد ظلت على عهدها الأول من العطف على المساكين ، وأبناء السبيل ، والميل إلى الخير ومساعدة الناس .

ولكن تفكير جان كان يشتد يوماً فيوماً ، واسترعى التفات الجميع صمتها العميق ، ورغبتها في العزلة ، فقد كانت دائماً مشغوفة بالايواء إلى الغابة ، أو الاعتزال تحت الشجرة .

ماذا كانت تفعل يا ترى ؟! أخذ كل امرئ يعزو حال جان الطارئة إلى ما عرف عنها من التدين والتقوى . والكل يعجب من أمرها . وما دار بخلد أحد أن يلتمس غير التدين سبباً لهذه الحال .

ولكن اسمع أيها القارئ ، واعلم ما كان يدعو جان دارك للخلوة ، ويحجب إليها العزلة . فان صدقت ما سأروي به لك ، بطل عجبك . وإن لم تصدق فإدح أنت فكرك ، وكذ قريحتك في تعليل ما حدث . وعلل له بما تشاء من مختلف العلل وكل ما أدين به لك ، هو صدق الرواية ، وأمانة النقل . أما التعليل ، وبيان رأى العلم فيما جرى للفتاة ، فليس من شأنى . أو على الأصح ليس من شأن هذا الكتاب .



جان دارك تستمع إلى « الأصوات »

الش
في
التا
عل
ص
إلى
ال
أم
و
تص
له
وأ
مز

وإليك ما حدث للفتاة وقت أن بدت عليها علامم التفكير
والاطراق الطويل

في يوم من أيام الصيف ، في شهر يونية حين كانت جان في منتصف
سنتها الثالثة عشرة ، وبينما كانت ترعى غنم أبيها ، جلست على شرف
من الأرض ، تحت ظل شجرة من أشجار الغابة ، تفكر في حال وطنها
وما اتباه من ويلات ، وما ينتظره من سقوط . وفي حال ذلك المسكين
الذي قست عليه الطبيعة فجاء عليلا سقيما ، وقست عليه أمه فخرمته
أبوّة أبيه ، كما حرمت أمومة أمه ، طوعا للدسائس الأجنبية ، وتملقا للقوة
كانت تفكر في «شارل ولي العهد» أو كما يقتضيه الحق والعدل ، شارل
السابع ملك فرنسا . في هذا وفي غيره من المصائب والمحن كانت تفكر
جان وهي على الربوة ، صامته وما هي بصامته ، وناظرة وما هي بناظرة
بل سابحة في ملكوت الفكر غارقة في بحر الخيال . وبينما هي مطرقة ذات
يوم في تفكيرها ، وإذا بأوراق الشجر تهتز كاهتزازها عند مر النسيم
وإذا بالطيور تجتمع وتغرد كأنها في فرح عظيم . فانتبهت جان من
إطراقها ، ورفعت رأسها نحو الشجرة وأغصانها التي اهتزت فجأة ،
فشعرت برعدة تتمشى في جسمها طولا وعرضا ، وسرت فيها رجفة
لم تدركها في بادئ الأمر سيبا . ورأت الأنوار تحيط بها من كل جانب :
أنوار ليست كأنوار النهار ، ولا هي أنوار الليل ، ولكن أنوار أحست

أنها هابطة عليها من السماء. ثم تبينت ، وهي مضطربة ، هاتفا وسط
الأنوار يناديها ، ويردد اسمها ، ويقول لها في وضوح « جان .. جان
لاتخافي . كوني ابنة طيبة . فسوف تذهبين لنجدة ملك فرنسا ، فتقدمت
جان ، في ذهول تام ، نحو الصوت ، فرأت أن التي تخاطبها هي
« القديسة كاترين » ترافقها قديسة أخرى ، وقد وقفنا في وسط هالة
من النور بين غصون الشجرة . ثم شجعها ابتسامها فتفرست فيها جان
وتحقت تمام التحقق من أن التي تخاطبها هي القديسة « كاترين » وأن
التي بجوارها هي القديسة « مرجريت » وكان اعتقاد أهل اللورين
فيهما أنهما من كبار أولياء الله الصالحين . وبعد أن قالتا لجان ما قالتا
اختفيتا عن الأنظار . وعند اختفائهما انتفضت جان من مكانها « كما
انتفض العصفور بالله القطر » وقامت تملفت عن يمينها وعن شمالها ،
وفوقها وتحت قدميها . أحلم هو أم يقظة ؟ ! وتولاها ذهول وإن شئت
فقل غبطة وسرور ، أم ترى هو شعور خوف وجزع فقد قامت تردد
ما سمعته ترديداً آلياً « جان لاتخافي كوني ابنة طيبة فسوف تذهبين
لنجدة ملك فرنسا » . ثم أخذت تعود الى طبيعتها شيئاً فشيئاً ، ولما
هدأت قليلاً ، قامت الى غنمها تجمعها من المرعى ، وعادت الى المنزل
ولم يبق بها من أثر ما رأت إلا خفقان بسيط مالبت أن زال عنها .
وكتمت جان خبر ما رأت عن الجميع واحتفظت به سرّاً لم تبسح به لأحد
، هناك رواية أخرى نجدها في بعض المصادر عن أول الأصوات

وكيف تركتها . نوردها هنا . ولك أن تصدق هذه أو تلك ، فالروايتان عن مصدرين جديرين بالاحترام ، فكلاهما ناقل عن شهادة الشهود من الأهل والجيران ، وغيرهم من السكان الذين دعوا عند محامتها لتأدية الشهادة . ومن أقوال جان نفسها التي أدلت بها أمام قضاتها .

قال أصحاب الرواية الثانية إن جان كانت تجمع الأزهار مع لداتها في الحقول وتلعب معهم ، فسمعت من قال لها ، إن أمك في حاجة اليك ، وكانت جان تطيع والديها طاعة عمياء ، فعادت مسرعة إلى أمها . ولكن أمها قابلتها مشدوهة وقالت إنها لم ترسل في طلبها . فخرجت جان إلى حديقة المنزل ، ووقفت تنظر غربا نحو الهضاب المجاورة . وكان ذلك وقت الظهر . وبينما هي واقفة إذ أضاء نور يخطف البصر ، فتملكها الذعر والوجل . وناداهما من وسط النور صوت ملائكي أن تكون ابنة صالحة . ثم طلب منها أن تقوم لملك فرنسا ، الذي حرمه أعداؤه تاجه ، وأن تخصصه وتتوجه في ريمس . وكان الصوت صوت الملاك ميخائيل .

وبعد ذلك تتفق الروايتان على أن الأصوات ظلت تناديها مرة في كل يومين أو ثلاثة أيام ، وفي مكان منعزل عن الناس . وكان الذي يتجلى لها دائما هما القديستان « كاترين » و « مرجريت » تسمعهما وتراهما رأى العين ، ونخاطبهما كما تخاطب الناس . وتعلقت جان

بقديستيتها ، وصارت تنتظر ظهورهما على أحر من الجمر ، فاذا همتا بالرحيل أذرفت الدمع السخين ، لأنها كانت تود أن ترافقهما الى السماء وبقيت جان على هذه الحال ، من رؤية القديسين . وسماع أصواتهم ثلاثة أعوام ، وهى تكتم الخبر عن جميع الناس لأنها لم تؤذن بإذاعة السر .

وكانت جان تشير الى رؤياها بقولها « أصواتى » وكانت « أصواتها » تخاطبها دائما فى شؤون فرنسا وما نزل بها من المحن . وكثيرا ما كانت تنبئها بها قبل وقوعها . وهذا ما جعلها تكتتب أحيانا وتظهر علام الألم من قبل أن يحزب الخطب ، أو يجد ما يدعوها إظهار الحزن ولم تفاجئ « الأصوات » جان بوقوع الاختيار عليها لتخليص فرنسا من بلاياها إلا بعد مضى وقت طويل . وعلى الرغم من هذا لم تسكد جان تسمع من القديسين ما ألقى عليها من عبء حتى أبدت دهشتها كيف يتاح لها ، وهى القروية الجاهلة بفنون الحرب وأساليبها ، أن تقود الجيوش ، وأن تدك القلاع ، وتفك الحصار ، وهى التى لم تتركب جواداً قط . وكيف يمكنها وهى الفتاة ، أن تختلط بالجنود ، وأن تعيش عيشتهم القاسية فى مضاربهم ومعسكراتهم ، وما تدرى كيف الوصول إلى مقر « ولى العهد » . كل هذه أمور بدت لجان كأنها مستحيلة لا قبل لها بها ، ولكن « أصواتها » دلت أمامها كل صعب . ويسرت

لها كل عسر . وألقت في روعها أنها هي المختارة من الله لانقاذ فرنسا ،
وطرد الانجليز منها ، وإجلاس ولي العهد على عرشه الذي اغتصبوه
منه وسيتم لها كل هذا . وستستطيع في عشرة أسابيع أن تهدم
ما أقامته إنجلترا بالدم والحديد ، والخبث والدهاء ، في عشرات السنين !
وكانت « الأصوات » قد أمرت جان أن تذهب إلى روبرت
دى بودريكور ، حاكم فوكولير ، لكي يجهزها بما يلزم لها من المعدات ،
ثم يرسلها إلى ولي العهد لاتمام مهمتها . وهنا أيضاً أدركت جان الحيرة
إذ كيف السبيل إلى الحاكم ؟! وكيف الخروج من القرية ؟ وماذا هي
قائلة لأمها وأبيها وإخوتها ؟ أتعلن خبر « أصواتها » وفحوى رسالتها ؟
وإنها إن فعلت كان الجنون أقل ما ترمى به بين أهل قريتها ؟ أم تفر
هاربة تحت جناح الليل الساتر ؟ إذن لتناولتها السنة السوء . وهي الفتاة
الطاهرة التي لم يعرفوا عنها سوءاً من قبل . ماذا تفعل إذن لانقاذ
ما كانت تعتقد أنه أمر ربها اليها ؟ !!

لنتركها في حيرتها الى أن تهتدى الى مخرج من مأزقها . ولننتحدث
مع القارىء قليلاً في شأن « أصواتها » .

ليس الكاتب بأقل منك دهشاً ، أيها القارىء . واستغراباً لأمر
هذه « الأصوات » الملائكية التي كانت تبلغ جان الرسالة . فاذا كنا
متفقين في الاستغراب ، فهلا نستطيع أن نتفق أيضاً على إنصاف جان

في تصديقها ، الأصوات ، وإيمانها الراسخ بأنها كانت ترى بعينها
القديسين ، وأنها كانت تسمعهم ينادونها في صوت عذب رقيق . إذا
تشبثت بأن تحكم عليها بالعقل الحاضر ، عقل البخار ، والكهرباء ،
والراديو ، والنسبية ، وما إلى ذلك من مستكشفات العلم الحديث ،
فاني أخشى أن يصعب عليك إنصافها . أما إذا رجعت بعقلك الى الوراثة
خمسةائة عام ، وتقمصت روحا غير روحك الخالي وعقلا غير عقلك
الحاضر ، وحكمت بما توحيه إليك البيئة ، والعرف ، والعقيدة ، فلست
أشك في إنصافك عقل جان . ولست بمغيد عليك ما كتبتة في المقدمة
من تاريخ القرون الوسطى إذ أنه أصبح كافياً أن يقال إن هذا عمل من
أعمال تلك الأيام الخالية حتى يحتاط العقل والفكر في وصفه بما
يستحق ، أو إن كان يعرف كنه تلك القرون ، وصفه وصفاً ينطبق
على ما كان لها من ميزات . ثم لا تظن أيها القارئ أن جان دارك
هي الفذة في تاريخ البشر التي قالت بسماع أصوات تناديه ، أو أنها
جاءت ببدعة لم يسبقها أو يلحقها بمثلاً أحد ، فان كتب المباحث
الروحانية تفيض بأنباء أمثال تلك الأصوات . وهنا أود أن أترك
القول للعلامة المحقق المشهور الأستاذ «محمد فريد وجدى» فقد اطلعت
على مقال له في إحدى الصحف (١) اليومية ، تكلم فيه عما للمباحث

(١) البلاغ في مساء الثلاثاء ١٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ - ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩٣٢

الروحانية الراهنة من تعليقات لمثل حال جان دارك وأصواتها .
وما عساه يكون لها من تعليق . قال حضرته « وللباحث الروحانية
الراهنة مجال هنا (ظهور روح في صورة شخص) للقول فسيح ، فقد
نجمت مسألة العقل الباطن وصارت أساساً لتعليقات حوادث شاذة
كانت تعتبر من أوهام الموسوسين أو من أحيال المدلسين » .

« أما هذا العقل الباطن فهو ما ظهر من التجارب ، في التنويم
المغناطيسي ، من أن لكل إنسان شخصية باطنة ، أرقى بما لا يقدر من
شخصيته العادية ، هي التي توحى إلينا الآراء الصالحة ، والآداب
العالية ، وتحاول وهي في عالمها إصلاحنا ، وتربيتنا ، وكف سلطان
الأجساد عن أسرنا لمطالبها الخسيسة » .

« ونجمت مسألة أخرى ، وهي إمكان ظهور كائنات روحانية
لبعض المستعدين لرؤيتها ، تخاطبهم أو تظل ملازمة لصمت عميق .
وقرروا أن من تلك الأرواح الصامتة ، ما كان يراه نابليون الأول
من الشبح الذي كان يلازمه . ومن المتكلمة ، الروح التي كانت
تظهر لشيخ الفلسفة اليونانية «سقراط» الحكيم ، وقد صرح هو
بذلك ، وأثبتها له تلميذه « افلاطون » ونقل ذلك عنه جميع كتاب
تاريخه من الغربيين » .

« وفي العالم اليوم رجال ونساء كثيرون يؤكدون رؤيتهم

لأمثال هذه الكائنات ، و يقيمون الأدلة المحسّنة على صدق ما يشاهدون
بنقلها للكراسي ، ورفعها للناضد الثقيلة أمام الباحثين .
« وقد أثبتت اللجنة العلمية الانجليزية ، التي نديتها الجمعية الملكية
لفحص هذه الخوارق الروحانية ، في تقريرها الذي رفعته ، وطبعته ،
وترجم الى أكثر اللغات ان روحا غير منظورة الامن الوسيط
رفعت ثمانية منهم ، وقفوا على منضدة كبيرة ، الى سقف الحجرة التي
كانوا يجربون فيها ، فأثبتوا ارتفاعهم بدليل محسوس ، وهو كتابتهم
اسمائهم في النقطة التي ارتفعوا اليها مجتمعين »

ألا تستحق جان دارك إذن أن نصدقها ، وهذه هي حال البحث
العلمي في « أصواتها » التي كانت تناديها ؟ خصوصا وأن الرسالة قد
جاءتها في أمر كان همّ الكبار والصغار ، آناء الليل وأطراف النهار ،
ألا وهو أمر فرنسا « وطنها الجميل » كما كانت تسميه . وما نزل به من
كوارث ، وما لحق به من عار باحتلال الأجنبي لأقاليمه ، واغتصابه
عرشه ؟ إني أصدق جان . الفتاة الساذجة ، الظاهرة ، التي نشأت في
بيئة صالحه ، بقدر ما كان تلاميذ سقراط الحكم يصدقونه في سماع
« هاتفه » أصدق أنها كانت تسمع ، عندما كانت تخلو الى نفسها في الغابة
أو تحت الشجرة ، أو في حديقة بيتها المطل على الكنيسة ، « أصواتا »
تدعوها إلى إنقاذ الوطن والدليل على صدقها أنها أنقذت وطنها بالفعل
من ورطة لم يقع في مثلها وطن من الأوطان حتى اليوم .

وإليك حوادث الدهر معها ، أو حوادثها مع الدهر . أرويهالك
كما وقعت لها ، أو وقعت منها . ولا إخالك إلا مصدقها كما صدقها
من كانوا ألد أعدائها من قبل .

تركنا جان في حيرة من أمر خروجها لمقابلة حاكم فوكولير .
وقدهاها التفكير في اللحظة الأخيرة « أو في الساعة الحادية عشرة »
كما يقول الاء فرنج ، إلى وسيلة رأت فيها بصيصاً من الأمل للخروج
من مأزقها . وذلك أنها تذكرت أن لوالدها قريباً ، جرت عادة أبناء
دارك أن يلقبوه « بالخال » يسكن هو وزوجه في قرية تسمى « بيورى
لِ بى Burey - Le Petit » على مسيرة ثلاثة أميال من فوكولير مقر
الحاكم . وكان قريبها هذا يسمى « دوران لا كسار Durand Laxart » .
فاتصلت به جان بطريقة من الطرق ، ويظهر أنها اتفقت معه على أن
يستأذن والديها في أخذها معه إلى بلدته . بحجة مرض زوجته
وحاجتها إلى العناية بها في أثناء مرضها . فلم يسع والد جان إلا
الموافقة على رجاء قريبها ... وما علمتا أنهما بهذه الموافقة وضعا الحجر
الأساسى فى بناء أمة من أكبر الأمم ، وإقامة مجد خالد على الزمن ...
ولما علمت جان برضاء أبويها عن رحيلها مع خالها كادت تطير فرحاً
بتحقيق أول خطوة فى سبيل تنفيذ ما أمر القديسون به . وكانت
جان ، فى هذا الوقت ، فى السابعة عشرة من عمرها . معتدلة القامة ،

لها عينان براقتان تنفذ بهما إلى أعماق محدثها . قد أكسبها اتصالها
بالقديسين وقاراً و قدساً ، ورزانه وصمتاً ، جعلت بينها وبين من
حولها صلة احترام وإعجاب في كل مكان تحل فيه .

خرجت جان مع خالها مهللة ، مستبشرة بما أتيج لها من التمهيد
لتحقيق رسالتها .

وفي الطريق ، أطلعت خالها على مكنون سرها ، وأحاطته بحلية
خبرها ، وخبر أصواتها ، وما رسمته لها من خطة في الذهاب إلى
روبرت دي بودريكور حاكم فوكولير لكي يعد لها معدات السفر إلى
مقر « ولي العهد » في ميدان القتال .

ويظهر أن جان لم تجد كبير عناء في إقناع « خالها » بصحة رسالتها .
لأنه خرج بها في اليوم التالي لوصولها ، وسار إلى فوكولير لكي
يصحبها في دخولها إلى الحاكم .

وها هي جان ، القروية الساذجة ، في أثوابها التي أخلقتها يد
البلي ، والتي نصل لونها ، وحنائها الخشبي الذي برزت منه أصابعها .
تقف بباب حاكم عسكري ممن ألفوا الحرب وعركوا صروفها ، لهجة
عسكرية ، وطبع جاف ، فكل حقيقة مهما وضحت لديهم ، وكل
عاطفة مهما سمت في أعينهم ، لا تغني عن السيف شيئاً . فالحسام عندهم
« في حده الحد بين الجد واللعب » . هم جفاة غلاظ أولئك الأجناد .

وقفت جان ، ومعها خالها ، بياب الحاكم تستأذن عليه في الدخول
وكان ذلك ظهرا ، وهو يتناول مع ضيوفه طعام الغداء . وبينما هو
منهمك في حديثه مع الضيوف ، وما من حديث في فرنسا على مائدة
الطعام أو حول موقد النار كان يخلو من ذكريات الحرب وما حل
بفرنسا من ويلات وما هو مقدور لها من سقوط ، إذ بالحاجب يهمس
في أذنه كلاما لم يسمع الحاضرون منه شيئا إلا قول الحاكم فجأة :

— تريد أن تتحدث إلى ؟

— نعم ياسيدى .

— أمر مدهش ! دعهما يدخلان .

ودخلت جان في بساطتها القروية ، وتقدمت في خطى ثابتة ، ومثلت
بن يدي دي بودر يكور . أما خالها ، وهو قروي ساذج كذلك ، فقد
أخذ بما حوله من أتهة ورواء ، فخذلته شجاعته ، فوقف في منتصف
الغرفة وفي قبضة يده قبعته الحمراء ، وقد سحقها بين أصابعه من شدة
ضغطه عليها ، وهو لا يدري ما يفعل ، ينحني هنا وينحني هناك في
عجلة وارتيباك .

وما إن ألقى الحاكم نظرة على جان حتى سألها في لهجة عسكرية جافة :

— ماذا تريدن أيتها الفتاة ؟

— أريد من روبرت دي بودر يكور حاكم فوكولير أن يرسل

و للدوفين ، بأن يتريث ولا يهاجم العدو حتى يأتيه العون من عند الله .
فبدت على الحاضرين علامم الدهش ، و تهامسوا فيما بينهم ... مسكينة !
انها بلا شك مصابة بدخل في عقلها ... و قطع دى بودر يكور دهشتهم
بقوله لها : -

- ما هذا الكلام الفارغ ؟ ! الملك - أو من تسمينه الدوفين -
سيتريث رغم أنفه ، بغير حاجة إلى مثل هذه الرسالة . (و يقصد
بودر يكور أن الملك قد أصبح في حالة من اليأس المميت ، والعجز
المطلق ، و تمام الافلاس . فليست لديه قوة يقدم بها على الحرب . ولهذا
فهو في غير حاجة إلى من يدعوه للتريث) .

- هل لديك كلام آخر ؟

- إن عليك أن تعطينى حرساً مسلحاً وأن ترسلنى معه إلى
الدوفين .

- ولماذا أفعل هذا ؟

- لكى يولبنى قيادة الحرب العامة ، لأنى قد كلفت طرد الانجليز
من فرنسا ، و تتويج الملك .

- ماذا تقولين ؟ ! أنت !! أنت يا طفلة تفعلين هذا !! ؟

- نعم . كلفت أن أفعل كل هذا .

— أحق هذا؟ ومتى يتيسر لك انجاز المهمة؟
— سأتوج الملك في السنة القادمة . وبعدها يصبح سيد فرنسا .
وهنا انفجر الحاضرون ضحكا وسخراً . . . ولما هدأت العاصفة ،
التفت إليها الحاكم مستفسراً :

— ومن هو هذا الذي أرسلك للقيام بهذا العمل العظيم؟
— مولاي .

— ومن هو مولاك هذا؟

— هو الله رب السموات .

وهنا تمايلت رؤوس الحاضرين تهمس . . . مسكينة . قد فقدت
صوابها . . . طار عقلها . . . تهرف بما لا تعرف .

ثم التفت الحاكم إلى « لا كسار » وخاطبه في لهجة خشنة : —
« خذ هذه الفتاة ، وعد بها إلى البيت ، ثم اضربها بشدة لتقلع
عن هذيانها هذا . أسمعت ! »

فانحنى لا كسار ثم هم بالخروج . وهنا التفتت جان إلى روبرت
دى بودريكور وقالت له في كثير من الجذ والحزم : —

— « إنك ترفض اليوم إعطائي الحرس . ولا أدري لرفضك سببا
وتلك مشيئة الله . ولذلك سأعود إليك مرارا حتى تعطيني ما أمر
الله به : »

حدث ما حدث بين جان وروبرت دي بودريكور في داخل
القلعة التي كان يسكنها ، بين سماع الحرس والخدم وبصرهم . وسواء
أكان عن طريق هؤلاء ، أم عن طريق عدم اعتصام جان بالصمت ،
عن رسالتها كما كانت تفعل قبلا ، فإن خبر ماجرى انتشر في المدينة ،
وتناقلته الألسن بسرعة ، وكانت له ضجة ، وكانت له دهشة ... ومن
المدينة انتشر الخبر في الريف المجاور إلى أن سمعت به دومريمي . ومن
غريب أمر تلك القرية ، وقد نشأت فيها جان ، طاهرة الذيل ، عفة
اللسان ، أنها كانت أشد القرى سخطا عليها ، وتحقيرا لها . وكان والد
جان يتميز من الغيظ ، فمن ناحية وجد ابنته مضغة في الإفواه ، ومن
ناحية أخرى كان تصرف ابنته شائنا في نظره . وثقلت عليه المصيبة
وازدوجت بين ضياع سمعته وفقد ابنته . وتذكر المسكين أنه كان
ذات مرة قد رأى في نومه أن جان تختلط مع الجند في غير كلفة فهب من
نومه مذعورا ، ونادى اخوتها وقال لهم : لو أن ما رأيته في نومي وقع
من جان فعلا لأغرقتها في النهر . وأن لم أفعل فأغرقوها أنتم .

هذا ما كان من أمر دومريمي بادية ذى بدء عند سماعها الخبر .

وقد اختلف المؤرخون فيما فعلته جان بعد صدمة الحاكم لها
فمنهم من روى أنها عادت إلى دومريمي فقوبلت فيها بمظاهر السخط
والاستياء من أهلها جميعاً ، وأنها قابلت سخطهم بالصبر المشوب
بالأم ، وثبتت على عقيدتها ثبات الطود الراسخ ، كأن لسان حالها

يقول « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون ». ومنهم من روى أنها لم تعد إلى دومري قط بعد خروجها مع خالها أول مرة؛ وهو الأرجح لأنها وقد أعلنت رسالتها بعد أن كتبتها عن دومري نيفا وثلاث سنوات؛ لم يكن طبيعياً أو منتظراً أن تعود إلى قريتها لأول صدمة فلا هذا يتفق مع ما عرف عنها من قوة الشكيمة؛ وصدق الإيمان ولا مع ما كانت تلح به أصواتها عليها من وجوب الإسراع إلى معونة « الدوفن ».

إذن نقول مع من قال من المؤرخين إن صدمة دي بودريكور لم تقعد بها، ولم يثبطها سخط الساخطين، ولا سخرية الساخرين، بل أخذت تتردد عليه ملحة في إجابتها إلى ما طلبت.

ولكى تكون جان قريية من مقر الحاكم، انتقلت من بيوري (Burey) قرية خالها، إلى فوكولير نفسها؛ وسكنت مع امرأة صالحة زوج أحد الصناع. ثم انصرفت إلى حياة العبادة، والصلوات في أوقاتها، وأخذت تنشر دعوتها بين زوارها الذين أخذوا يؤمنون منزلها زرافات ووحدانا، رجالاً ونساءً، جاءوا إليها بعد الذي ترامى اليهم من أخبارها، وهم بين مصدق ومكذب، حتى إذا جلسوا إليها، وسمعوا حديثها، وتبينوا يقينها، أخذوا بقوة إيمانها، وخرجوا من لدنها مؤمنين.

وجان في بساطتها ، وغذوبة لفظها ، مع اتساق قوامها ، وبريق
عينها الزرقاوين ، وبصرها الحديد ، وهي بعد فتاة في السابعة عشرة
من عمرها ، ذرقة اللسان ، حاضرة البديهة ، لا تكاد تتوجه اليها بالسؤال
حتى تبدرك بالجواب المقنع السديد . جان هذه كانت لا بد أن تقنع
سامعيها ، وأن تحير معارضيها . ولذلك لم تلبث طويلا في فوكولير
حتى كان اسمها في كل مكان ، وازدحمت المدينة على رحبها بالذين
جاءوها من كل فج . ودومريمى التى قابلت خبرها بالسخط فى بادىء
الامر تحولت إلى الإعجاب بها ، بل أخذت تباهى بها وتفخر بأنها من
فتياتها . ورضى عنها أهلها وعشيرتها ، وخرج اليها أخواها بيير وجين
وعند خروجهما قامت دومريمى بأسرها تودعهما ، ولاغرو . أليس
هما شقيقى من تخاطب الملائكة ! وتحدث إلى القديسين !

وساعد على انتشار دعوة جان أن الناس تذكروا فيما ورد عن سلفهم
من قديم الزمان (وقد سبقت الإشارة الى ذلك) ان فرنسا استضيعها امرأة
وستنقذها «فتاة من اللورين» . كانت هذه النبوة متداولة نحو الثمانمائة عام ،
تنبأت بها امرأة حكيمة اسمها «مرلان Merlin» وتذكرها الشعب بمجرد
ظهور دعوة جان وذيوعها . واعتقدوا أن المرأة المقصودة فى النبوة للضياح
هى ايزابل أم ولى العهد ، التى نبذته ، ومكنت للانجليز من عرش فرنسا
وأنه لم يبق إلا ظهور «العدراء» التى ستنقذ فرنسا وهامى جان (وهى

عذراء ومن اللورين) تقول إن الله أرسلها لطرده الإنجليز ، وتخليص البلاد منهم ، وتويج الملك الطريد فوق عرشه .

تلك عقلية القرون الوسطى ، وتلك نماذج من عقائد ورثها القوم عن آبائهم ، هي عندهم موضع التقديس منهم ، فيجب أن نجعلها دائماً نصب أعيننا ، حتى يسهل فهم اتجاه الأفكار والميول في ذلك الزمن .
وعلم « دوق لورين » الكبير بأمر جان ، وكان مسناً ، مريضاً ، أضناه السقام ، فظن أن في جان شفاؤه فأرسل في طلبها . وأجابته دعوته ، ويظهر أنه طلب منها أن تشفيه برقاها وتعاويدها ، ظناً منه أنها تأتي بالمعجزات . ولكنها ببساطتها المعهودة أقنعتة أنها ليست من أهل المعجزات . وإنما أمرها الله أن تخلص فرنسا وأن تتوج الملك . وفي الحق أن جان لم تدع قط أنها تستطيع الاتيان بالخوارق والمعجزات ، ولم تخرج في يوم من الأيام عما رسمه لها القديسون من حدود ، ولم يخرجها عن تلك الحدود تكاثر الناس حولها ممن أخذوا يقدسونها ، ويتبركون بلبسها أو بلبس ثيابها ، بل بمجرد رؤيتها أو الاقتراب منها .

وفرحت جان بلقيا أخويها في فوكولير فرحاً شديداً . وقد حملا لها تحية والديها المحبوبين . ورأت جان أن تجدد محاولتها لدى الحاكم ، فذهبت إليه تسأله أن ينفذ لها ما تريد ، فوجده كالصخر ثابتاً على رأيه فيها لا يتحول عنه . فخرجت من عنده غاضبة آسفة ، ولكنها

غير يائسة . فان كان هو كالصخر ثباتاً على رفضه ، فقد كانت أشد
من الصخر ثباتاً على إيمانها . والايمان كما تعلم يزحزح الرواسى .
وفي يوم من أيام انتظارها الممض ، جاء اليها شاب من النبلاء ،
في السابعة والعشرين من عمره ، اسمه « جين دى متز » وابتدرها
بالسؤال :

« ماذا تصنعين هنا ؟ هل حتم علينا أن ننتظر حتى يطرد الملك
نهائياً من فرنسا ونصبح عبيداً للانجليز ؟ » فأجابته فى هدوء وجد :

— « جئت هذه المدينة الموالية للملك ، ألح على حاكمها أن
يرسلنى إليه ، فبدلاً من إجابتي إلى سؤالى أخذ يحقرنى ولم يعبأ بى .
والضرورة القصوى تقضى أن أكون مع الملك فى منتصف الصيام
الكبير ، ولو سرت على قدمى حتى أبريهما إلى ركبتى » ، إذ لن
يستطيع أحد سواى انقاذه . لا اسكتلندا حليفته ، ولا غيرها من
الدوقات والملوك . وسأذهب إليه حتماً لأن مولاي يريد ذلك . »

— ومن هو مولاك ؟

— مولاي هو الله .

وعند هذا الجواب الحاسم ركع ذلك الشاب النبيل بين يديها ،
على طريقة الفرسان فى ذلك العصر ، وأقسم لها أنه بمشيئة الله
سيأخذها إلى الملك . ثم سأها :

متى ترغبين في السفر؟

فردت عليه جان ردها المشهور « اليوم خير من الغد؛ والغد خير

بما بعده . »

وفي هذا الرد جمعت جان خلاصة أخلاقها منذ أن أعلنت رسالتها إلى ان فارقت الحياة . فقد كانت في كل عمل تولته ، وقد تولت أعمالا جسيمة ، لا تؤخر للغد ما تستطيع عمله اليوم . وستمربك أمثلة كثيرة تدل على تأصل هذا الطبع فيها .

وكان « جين دي متز » أول مؤمن بها من طبقة الأشراف ، إذا استثنينا دوق لورين الكبير ، وان كان الدوق قد صدق فيها ما صوره له خياله من قدرتها على المعجزات . ثم جاءها في اليوم التالي شريف آخر اسمه « برتران دي بولنجي (Bertrand de Poulengy) وكان قد رآها عند روبرت دي بودريكور ، وهي تلح عليه في تنفيذ رسالتها ، وأقسم لها بالله وبشرفه أن يكون معها وأن يتبعها أنى سارت

ولسائل أن يسأل ولماذا أطالت جان مكثها في فوكولير ، وأصرت على أن يكون ذهابها للملك بوساطة الحاكم؟ هل لم يكن في إمكانها أن تسير للملك مع من تختاره من بين آلاف المعجبين بها ؟ !

يبدو هذا التساؤل وجيهاً ، ولكن عند التأمل تظهر حكمة جان

في تشبثها بأن يكون ذهابها إلى الملك عن طريق الحاكم الرسمي ، مزودة
بكتاب منه .

أولا : كان ذهابها للحاكم تنفيذاً لأمر « أصواتها » ، وما كان لها
ان تبدأ عملها بمخالفة مصدر وحيها .

وثانيا : لو ذهبت من غير الطريق الرسمي لصعبت عليها مهمتها ،
بل لاستحالت عليها لأن حاشية الملك وقواده ما كانوا ليسمحوا بقبول
فتاة تتقدم اليهم من عرض الطريق لتقول لهم إنها مرسلة من عند الله
لكي تنقذهم . فقبول الحاكم المحلي لها ولرسالتها كسب لنصف المعركة ،
لانه يلقي على عاتقه مهمة التمهيد لقبولها عند السلطات العليا ، ويحفظ
لها اعتبارها عند دخولها عليهم . ثم لا تنسى ان الطريق التي عليها ان
تقطعها لكي تصل إلى مقر الملك ، كانت غير آمنة . فالبلاد قد وقعت
في أيدي العدو من ناحية ، وصارت عرضه لفتك العصابات المتجولة
من ناحية أخرى ، فلا بد لها من حرس مسلح تسير معه ، وهذا
ما كان يمكن لها تديره من غير طريق الحاكم الرسمي . وفوق كل هذا
لا تنس أن جان كانت في السابعة عشرة من عمرها ، ولم تكن قد
طرقت تلك البلاد من قبل .

وفي يوم السبت ١٢ من فبراير سنة ١٤٢٩ قصدت جان إلى
روبرت دي بودريكور يبدو عليها شيء من علائم الحزن واضطراب

البال ، ولما تمكنت من مقابلته بادرته قائلة : « لقد أسأت كل الاساءة
في تعطيلي هنا إلى اليوم ، وهاهي جيوش الدوفين تبلى بهزيمة منكرة
على مقربة من أورليان ، والخطر بتلك المدينة محقق . وهكذا
ستوالى خسائره وانت تؤخر ايفادى اليه . . . » وهنا قاطعها دى
بودريكور وكأنه قد ضاق بها ذرعها .

« ماذا تقولين ؟ ! اليوم خسر الدوفين معركة على مقربة من
اورليان ؟ وانت من انباك ما حدث ؟ وبينك وبين المسكان الذى
تذكرين مسيرة ثمانية ايام للراكب المجد ؟ ! »

فردت جان وهى أهدأ ما تكون : « نبأتنى أصواتى (وستعلن
نبأه بعد حين) » فأخذ بودريكور يجوب الغرفة ذهوبا وجيئة ، وهو
يهدر بالفاظ عسكرية خشنة ، تعود أمثاله فى ذلك الزمن أن يقسموا
بها بين كل عبارة وعبارة ، أو يرددوها وحدها إذا ما اشتد غيظهم ،
وهاجها نجهم . ثم أطرق برهة كأنما يفكر فى أمر خطر له مفاجأة ،
ثم التفت إلى جان وقال فى لهجة من يعطى وعدا : -

« اسمعى ! إذا صدقت أنباؤك فسأرسلك للملك وأعطيك
ما تريدن . . . » فهللت أسرة جان ، وحمدت الله على أن أيام الانتظار
قد آذنت بالزوال ، لأنها كانت على يقين من صدق الأنبا . إذ أن
أصواتها لم تكذبها قط . ثم أخذت جان تعد نفسها للسفر ، وكان

خالها وجين دى متز و بولنجى قد اشتروا لها جواداً ، وأخذوا يعدون ما يلزم من معدات السفر .

و فى اليوم العشرين من فبراير أسرت إلى جين دى متز و بولنجى بأن يستعدا للسفر يوم ٢٣ الساعة ١١ ليلا ، فأبديا دهشتها من تحديد الميعاد قبل أن يعلنها الحاكم بالموافقة ، ولكن الامر لم يتعد الدهشة ، ومضيا يستعدان لما أمرت به . وكانت نية جان قد صحت على اختيار ذلك الموعد للسفر لانه موعده غير مألوف ، وكذلك اعترفت أن تسلك طرقا غير مألوفة ، لكي تتفادى الوقوع فى شرك الاعداء الذين كابوا يسيطرون على معظم الطريق .

وبعد اسبوع من مقابلة جان الاخيرة للحاكم أو أكثر قليلا وصل إلى الحاكم رسول من عند الملك اسمه « كولىه دى قين » Colet de Vienne وتقل إليه أن الملك مُنى بهزيمة عند روفراى Rouvray (١) وهنا بادره دى بودر يكور بالسؤال

— ومتى كان ذلك ؟

— كان يوم السبت ١٢ من فبراير . . . وكانت القوات الانجليزية

تحمل المؤونة إلى جيشهم المحاصر لأورليان ، فوجدت القوات الفرنسية تقطع عليها الطريق ، فوقع القتال بين الفريقين وتشتت فيه شمل جيش الملك .

(١) وهى الموقعة المعروفة باسم « موقعة سمك الرجة » لأن المؤنة كان معظمها منه بمناسبة صيام الكبير

وعند سماع الخبر أخذت بودريكور حيرة يعرف القارىء سببها ،
فقد صدقت جان فيما قالته عن الحرب قبل وصول رسول الملك
بثمانية أيام . ولم يبق أمامه إلا تنفيذ ما وعدها به .

ولكى يطرد من ذهنه كل شك ، رأى أن يتحقق بنفسه من أن
جان لا تخضع لتأثير شيطان يوحى إليها بما تقول وما تفعل ، فقام
من فورهِ ، وأخذ قسيساً ، وقصد في موكبه إلى بيت جان . وهناك
طلب منه أن يفحص الفتاة ، فان كان عملها من عمل الشيطان طرده
برقاه وتعاو يده ، وأما إن كانت لا تخضع لشيطان من الشياطين ،
تقبلها ونفذ لها أمرها . فتقدم القسيس وأخذ يتلو كتابه ، ثم صاح
بها قائلاً : « إن كنت من أهل الشرف اخرج ، وإن كنت من أهل
الخير فتقدم . . . » فتقدمت جان وركعت على ركبتيها ولسان حالها
يقول « لعلمكم آمنتكم وطردهم الشك من رؤوسكم » .

وإزاء هذه البيانات لم يجد بودريكور بداً من تجهيز الفتاة بما
طلبت .

وفي اليوم الثاني والعشرين من فبراير ، أى في الميعاد الذى حددته
جان لرقيقها ، كان كل شئ معد للسفر .

واتفقت جان و بودريكور أن تتزى بزى الرجال حتى لا تلفت
النظر إليها بوجودها بين شردمة من الرجال . وفى الساعة المحددة

للرحيل كنت ترى جان في لباس الجندي ، من القبعة التي تشبه
القلنسوة ، إلى الجورب الطويل ، والقميص العسكري ، (والجرتر
والمغناز) ... ولم يكن في مقدور من لا يعرفها أن يميزها من بين
الفرسان في ثيابهم المعهودة في ذلك الزمن . وفي تلك الساعة جاء إليها
الحاكم وسلمها كتاباً للملك ، وأمر لها بالحرس الذي طلبته ، ومن بينه
« كولى دى فيين » الرسول القادم أخيراً من عند الملك ، فقد كان
قد آتم مهمته ، ولم يبق له إلا العودة ، فكلفه دى بودريكور مرافقة
الجماعة .

وفي الساعة الحادية عشرة تماماً انطلقت الجماعة من باب المدينة
الغربي ، وجان أشد أهل الأرض فرحاً بما نالت من نصر ، وبما
حققت من أمنية ، وبما نفذت من أمر « أصواتها » . وهكذا بدأت
رحلة جان بل قل مغامرتها تلك المغامرة التي كانت قصتها من أروع
ما عرف تاريخ بني الانسان .

نفيه : قد يلاحظ القارىء ان انصار الملك من الفرنسيين كانوا يسمونه « الملك » رغم
اغتصاب العدو لعرشه واما جان دارك فبقيت في اغلب الاحيان تدعوه بلقبه الاصلى
وهو « الدوفن » (Dauphin) اى « ولى العهد » الى ان تمكنت من تويجه
في ريمس واصبح الملك الشرعى في نظر الجميع

في الطريق الى الدوفن

وكانت جماعة جان دارك مؤلفة من ستة فرسان في رواية ، وفي رواية أخرى من ٢٥ رجلا بما فيهم الحرس والخدم . وكان من بينهم بيير وجين شقيقا جان ، ومن بين الحرس الذي اختاره بودريكور على عجل ستة من الرجال غير المدربين على الحرب والقتال ، ولم يسبق لهم ركوب الخيل من قبل .

وتوقعت الجماعة ان بعض هؤلاء الحراس السذج قد يحاول الفرار في أثناء الطريق ، وبخاصة وهم لا يزالون في منطقة فوكولير . فمنعا لهذا الاحتمال ، سار جين دى متر في المقدمة ، ودى بولنجي في المؤخرة . وأما جان فكانت هي وأخواها في وسط الجماعة ، واستمر هذا الترتيب الى أن خرجوا من منطقة فوكولير . ودخلوا في الأرض التي يسيطر عليها العدو . ولم يكن النفوذ الحقيقي لحاكم فوكولير ، يمتد إلى أكثر من مسيرة ثلاث ساعات .

أما المسافة بين فوكولير و«شنون Chinon» حيث الملك ، فكانت مائة وخمسين فرسخا على الأقل ، يقطعها المجد في عشرة أيام . وأما الطريق فكانت وعرة المسالك ، شعثه الأديم ، فيها السهل المملوء بالمناقع ، وفيها الآكام والوهاد ، وفيها مجارى الماء العميقة ، والمسارب الوشلة ، مع ندرة الجسور ، وقلة المعابر .

وكان ذلك في فصل الشتاء، حيث الزمهرير القارس، والمطر الهاطل في أغلب الأحيان، والأرض تغشاها طبقة من الجليد.

ولما كان جل الطريق يقع في أرض العدو، رأت جان وجماعتها أن يجعلوا سفرهم ليلاً واختفاهم نهراً، مبالغة في الحيلة، وإمعاناً في الحذر. فكثيراً ما عبروا مجارى الماء والبرد على أشده، وكثيراً ما قضاوا أوقات راحتهم بالليل أو النهار على الأرض العارية يغطيها الجليد وهم لا غطاء لهم إلا ما عليهم من الثياب.

في أول الرحلة وبعد بضع ساعات من المسير، علا صراخ الجدد من الحراس الذين لم يعتادوا ركوب الخيل من قبل إذ، أحسوا كأن أرواحهم تزهق، وكأن أجسامهم تدق، فكانت جان تشجعهم وتبث فيهم روح التجلد والصبر بكلماتها العذبة تارة، وبقدوتها المثلى تارة أخرى. وساروا في الليالي الثلاث الأولى بمعدل ١٢ فرسخاً في الليلة الواحدة، ولم يعترضهم الناس في بادئ الأمر في مرورهم، اعتقاداً منهم أنهم «من الجماعات الحرة» كما كانوا يسمون العصابات الجائلة، وكان كل ما يرجوه الناس من هؤلاء أن يمروا بسلام.

أما في الخمس الليالي التالية، فقد بدأت مصاعب الطريق وأهواله تتجلى لهم، فان خبر سفر جان عذراء فوكولير كان قد نمي إلى كل البلدان وكان ذكرها وذكر رسالتها قد استفاض في جميع الأنحاء، فأخذ القوم

يتربصونها في الطريق ، ولولا أنها كانت قد وضعت نصب عينها من أول الرحلة أن تتخذ إلى «شنون» طريقاً غير الطريق الذي ألفه الناس ، وأن تسير في مسالك ملتوية غير مطروقة ، لتسنى للأعداء الاهتداء إليها ومن يدري فقد كان يمكن حينئذ أن يتغير وجه التاريخ . ومع تجنب جان الطريق العامة ، فقد قابلها الكمين سبع مرات ، وجرت بينها وبين رجاله مناوشات ، وخسرت جان اثنائها بعض رجالها ، ولكنها ، ولم تعرف شخصيتها قد تمكنت من التغلب عليهم ، والسير إلى الامام نحو غايتها

قلت لك ان بعض الحراس الجدد ضجوا من شدة ما لحقهم من ركوب الخيل لأول مرة ، وازداد ضجيجهم ، وكثرت بوادر تمليلهم كلما أحسوا شدائد الطريق المختلفة . وفي ذات يوم جلست الجماعة تستريح في ظل شجرة لكي يرفهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من تعب ووصب ، وما أصابها من وعناء السفر ، وجعل بعضهم يتحدثون عن السر في صبر جان وجلدها ، وقدرتها الخارقة على احتمال المكاره وكيف ، وهي الفتاة الصغيرة ، التي لم يسبق لها ركوب الخيل قط ، لا تضج كما ضجوا ، ولا تن كما أنوا ، ولا تعباً بمشقة ، ولا يظنها تعب . وبينما هم يبحثون وينقبون في أمر جان ، خطر لأحدهم أنها لا بد وأن تكون ساحرة !... نعم ساحرة !... وفي بضع ثوان كانوا جميعاً يقولون ساحرة ، وإلا لما استطاعت أن تخوض غمار الخطر وهي آمنة

مطمئنة ، كأنها بنت بجدتها ، أو كأنها تقود فرقة من رفقائها في القرية وهم ذاهبون تحت « الشجرة » .

وأخيرا صمموا على اغتيالها والخلاص من سحرها ولكن الله كشف سوء تدبيرهم قبل أن يقدموا على فعلتهم الشنعاء . وأراد دى متز ودى بولنجي أن ينفذا في المتآمرين عقوبة الإعدام جزاء وفاقا ، ولكن جان أبت واستكبرت وقالت :- « لا هؤلاء ولا غير هؤلاء يستطيعون قتلي قبل أن أتم رسالتي . فلماذا أحمل نفسي جريرة دمهم . ادعوهم إلى ... » ولما مثل المتآمرون من حراسها بين يديها ، أعلنتهم في هدوء طبيعي بقولها المتقدم ، ثم التفتت إلى كبيرهم وقالت له . « إنه لمن المحزن أن تتآمروا على قتل نفس بريئة وأنت نفسك على حافة القبر . »

وشاءت المقادير أن ينقلب حصان هذا الرجل في أول مجرى ماء يعترض الجماعة بعد حادث التآمر وأن يموت الرجل رغم كل محاولة لانقاذه . وبذلك صدقت نبوءة جان ، وعظمت بين الجماعة مهابة وجلالا ثم تابعوا السير على هذا المنوال من خطر ووعثاء حتى وصلوا إلى دير « سنت اربان Saint Urban » ومنه قصدوا إلى « أوكسير Auxere » ثم إلى « جين Gien » وفي « جين » دخلوا أرضا موالية ورأوا « اللوار » وزالت مخاوفهم واطمأنوا إذ أصبحوا من « شنون » قاب قوسين أو أدنى . ثم دخلوا قرية تسمى « فييربوا Fierbois » ومنها أصبحوا على مسيرة ستة

فراسخ من مقر الملك : و كان دخولهم فيها في الليلة العاشرة لخروجهم
من فوكولير .

وبوصول جان إلى الارض الموالية ، لم تعد تخفى نفسها ، ولا الغاية
من سفرها . فهرع القوم إليها من كل صوب ، وتحدثت بخبرها أورليان
المحصرة ، و انتعشت الآمال بقدمها ، وأرسلوا الرسل للملك لكي يعنى
برسالتها حتى ينقذهم الله على يديها .

وفي « فيربوا » أرسلت جان رسالة للملك حملها إليه دي متر ،
و دي بولنجي وكان فحوى رسالتها أنها سافرت مئات الأميال لكي تحمل
إليه بشرى طيبة ، وأنها ترغب في مقابلته شخصياً ، وأنها ستعرفه مهما
احتجب واستتر .

وفي اليوم التالي وصلت جان إلى « شنون » . وكان ذلك في يوم
الأحد ٦ من مارس سنة ١٤٢٩ .

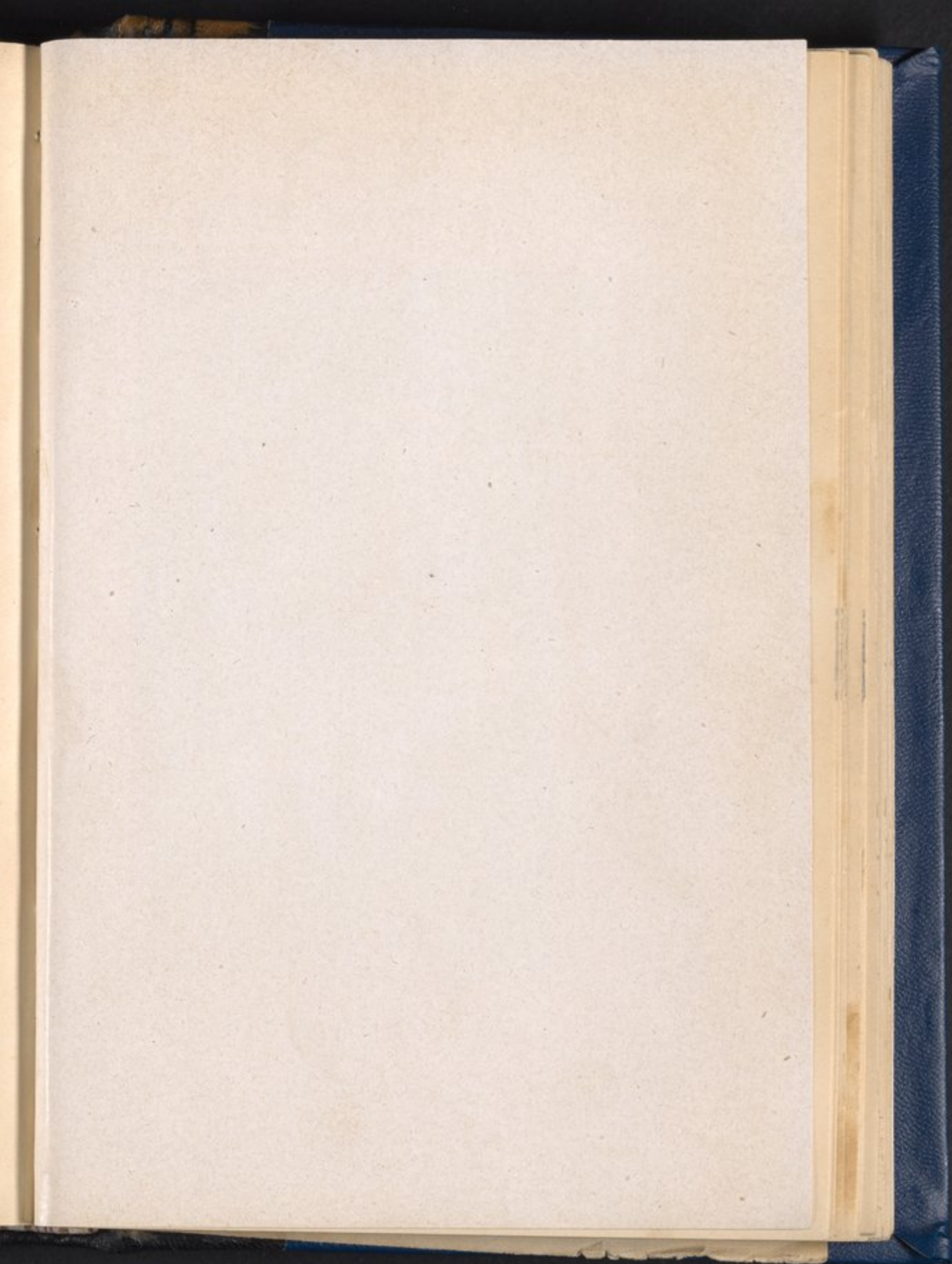
عند الملك في شنون

وفي شنون نزلت جان في فندق شهير ، ونزل معها رفاقها . واستعدت لمقابلة الملك ، ولكن دي متز ودي بولنجي حاملًا رسالتها إليه أفهماها .
أنهما لم يجدا بين حاشية الملك أذنا صاغية ، وأن وصولها إلى الملك ليس بالأمر السهل . وفي الواقع كان الملك محوطًا بأخس البطانة ، ممن يتصلون بأعدائه سرا ، غير آبهين لشيء إلا أن تمتلي بطونهم وخزائنهم وبعدهم « فليأت الطوفان . . . ! » فلما وصلت الأنباء بقيام جان ، وعلم القوم بدعواها ، أخذوا يدسون لدى الملك ويوصونه بالحدز منها والتريث في أمرها ، لا عن حكمة وحسن تدبير ، بل لاعتقادهم أن قيام أي نفوذ غير نفوذهم حول الملك يغض من شأنهم ، وقد يكشف ما خفي من أمرهم .

وكان كبير أولئك الدساسين جورج دي لايريمواي ، (La Trémoille) ذى الثروة الطائلة ، وصاحب النفوذ الأول لدى الملك ، لأنه كان يقرضه المال الذي يعيش به . وكان يشاركه في النفوذ رئيس أساقفة ريمس وكبير رجال الدين في المملكة ، « رينولت » دي شارتر « Regnault de Chartres » . هذان كانا الكوكبين الساطعين في حاشية الملك . ويليهما في النفوذ « جو كور Gaucourt » ،



ولى العهد (الدوفن Douphin) شارل السابع ملك فرنسا



رئيس ديوان الخاصة ، وكان رجلا عسكريا من الذين لا يفقهون في غير الشؤون العسكرية شيئا .

أما من عدا هؤلاء من البطانة فكانوا أصفارا لا قدرة لهم على تصريف الأمور .

جاءت جان ، والملك كما قال عنه ، مارك توين ، كالفار في المصيدة لا يملك لنفسه من الأمر شيئا ، يبرم اليوم ما ينقضه في الغد ، مترددا مستسلما ، في فقر مدقع ، ويأس ساحق ، وظلام حالك ، لا يدري لنفسه منه مخرجا . وما كان يفكر إلا في وقف القتال ، وترك المقادير تجري في أعتها ، والهرب إلى بلد أجنبي ، فقد انقضى على حصار الانجليز لأورليان خمسة شهور ، وكان سقوطها بين أيديهم أمرا محققا لأن الملك كان في الواقع بلا جيش . وكان هو ، ومن حوله ، والشعب من ورائهم ، قد فقدوا كل أمل في النصر . وفقدان الأمل في النصر أكبر نكبة من فقدان الجيش . وسقوط أورليان كان معناه سقوط فرنسا حكومة وشعبا في أيدي الانجليز لأنها كانت مفتاح جنوبي فرنسا كله أو الجزء الباقي منها مواليا للعرش الفرنسي ورافضا للتسوية القاسية التي حدثت في « تروى » .

وكانت جان تعد الساعات في انتظار مقابلة الملك . وقد علم الشعب في أورليان بحضورها ، فأوفد الوفود كما ذكرنا من قبل إلى الملك .

وجاءت الوفود إلى جان في الفندق ، ونقلوا إليها ما يعرفونه عن
تردد الملك وخموله . وجموده عن السعى في خلاصهم ، فكانت جان
تؤكد لهم في لهجة طبيعية هادئة قرب الفرج وزوال ما هم فيه
من شدة .

ثم علمت جان أن من أقرباء الملك الموجودين معه « الملكة يولند
Yolandi » ملكة صقلية ، وكانت تذكره طائفة الدساسين الذين
يحيطون بالعرش ، فلما علمت بأمر جان عطفت عليها ، وشجعت الملك
على استقبالها . وظهر أن الملك كان يود أن يستقبل جان دارك ،
ولكنه لم يستطع مخالفة ما كان يتلقاه من الأيحاء أو الأمر من « لاتريمواي »
ومن رئيس الاساقفة ، إلا أن ذبوع أمر جان . وضغط الحوادث قضى
على رجال الحاشية ألا يظهروا بمظهر المعارض المتعنت الذي لا يهمه
شيء . فتظاهروا بالاهتمام على أن يأخذوا بالتسويق والمماثلة . فعدوا
مجلس البلاط ، وقرروا أن يوفدوا لجان في الفندق أربعة من رجال الدين
يتلقون منها الرسالة التي تحملها للملك فقابلتهم جان ومن معها بالاحترام اللائق
من غير بادرة اجترأ أو حركة سخط . ثم أخبرتهم في هدوئها وصراحتها
أن الرسالة خاصة بالملك وأنها لا تقدمها إلا لشخصه . فخرج الوفد غاضبا .
ولكن الملك لما عرف ردها أعجب بأرادتها .

ثم فكر رجال الحاشية أو قل دائما « لاتريمواي » ورئيس الاساقفة
في إرسال وفد آخر ، إلى موطنها في اللورين ، يجمع المعلومات عنها ،

وعن نشأتها ، وعن أسرتها ومركزها . . . وكانت غايتهم من كل هذا
الارجاء والتسويق . وكانوا يفعلون هذا وأورليان على مقربة منهم تحتضر
وأخيراً تمكن الذين عطفوا أو أخذوا يعطفون على جان ، منذ
وصولها ، أن يحملوا الملك على مقابلتها رغم أنف معارضيهما .

وأذن لها في مقابلة الملك يوم الثلاثاء ٨ من مارس أى بعد
وصولها إلى « شنون » بيومين . وفي هذا دليل على سرعة تغلبها على
معارضيهما ، الذين لو أتيح لهم تنفيذ أغراضهم لعرقلوا مساعيها
دهرا طويلا .

وفي المساء تحددت المقابلة بين الملك وجان دارك . وفي الساعة
المحددة كنت ترى جان ورفاقها يمتطون صهوات جيادهم ويصعدون
في المنحدر المؤدى إلى باب القلعة مقر الملك . وفي هذا المنحدر حدث
حادث ظريف لجان ورفاقها . وذلك أن فارسا كان ينزل المنحدر بينما
كانوا صاعدين ، فعندما اقترب من جان وجماعتها أخذ يسب ويقذف
ألفاظا منكرة ولا يدرى أحد لذلك سبباً ، ولعله يكون قد ضايقه أن
جان ورفاقها لم يفسحوا له مجازا كافيا لمروره ، أو يكون قد عرف
القادمين وكان من الفريق المعارض لفكرة الاهتمام بجان ، لأن
الحرس وضباطه كانوا أيضاً قد انقسموا في أمر جان بين محبذ ومستهجن
فلم يتمالك من إظهار غيظه عند رؤيته الجماعة صاعدة لمقابلة الملك

وسواء أ كان هذا أم ذاك هو السبب ، فانه لم يكذب يتهى من ألفاظه
البذيئة وأيمانه الغليظة حتى التفتت إليه جان قائلة له فى اهتمام « أتجعل
الله عرضة لأيمانك وأنت جد قريب من الموت ؟ ! »

بعد قولها هذا بساعة واحدة ، زلت قدم هذا الفارس ، وسقط
فى اللجة ، ولم يجد من ينقذه ، ومات غرقا .

استمرت جان فى صعودها إلى أن انتهت إلى ممر حجرى يؤدى
إلى الردهة الكبرى الواقعة فى الجهة الجنوبية للقلعة ، وتقدم الكونت
دى فنديم أحد أمراء الاسرة المالكة لىكى يتولى مراسم تقديم جان
إلى الملك .

وكان رجال الحاشية أو قل « لا تريمواى » ذو الجسم الضخم ورئيس
الاساقفة قد اتفقوا مع الملك على ان ينكروه لجان بأن يرتدى ثيابا
عادية لا تميزها شارة من شارات الملك أو علامة من علاماته ، لينظروا
أهى مهتدية إليه أم غير مهتدية (فان كانت كما تزعم مرسله برسالة الهية
عرفته وإن كانت دعواها زورا لم تعرفه واختلط عليها الأمر) واتفقوا
على أن يجلسوا أحدهم على العرش مبالغة فى تضليلهم إياها

فلما دخلت جان القاعة ، وكانت تسطع فيها مئات المصابيح
الزيتية ، وجدت جمعا لا يقل عن الثلاثمائة من رجال ونساء فى مختلف
الأزياء والألوان ، كل يلبس لباس طبقته بين الناس . وكان لى

النساء بريق امتزج بضوء المصابيح فخطفت بلمعائها الأبصار... مناظر تدهش العقول، وتحير الألباب، وتزيغ الأبصار، وعلى هذه الحال دخلت جان في ثوبها العسكري لم تخلع منه سوى قبعتها ودثارها الخارجي، يقودها الكونت دي فندوم، فأخذت في هدوئها المعهود تلتفت شمالا ويمينا، باحثة عن الملك، غير حافلة بمن أجلسوه مكانه وبينما هي تجيل بصرها باحثة كان بعضهم يضلها بقوله، هذا هو الملك! انه هنا...! ها هو هناك...!، ولكنها لم تلبث أن قصدت الى الملك الحقيقي في غير خطأ أو تردد، ثم ركعت أمامه، وقالت وهي تحديق فيه « أيها الملك الكريم أطال الله بقاءك »

فأسرع شارل قائلا :

« لست أنا الملك...! ان الملك هناك (مشيرا الى الجالس على العرش) ، فلم تتحرك جان من أمامه وقالت « باسم الله مولاي أنت هو . وليس أحد سواك . أعطني الجند أنقذ أورليان ، وأذهب بك الى ريمس ، Rheims حيث تمسح بالزيت المقدس ، وتضع التاج على رأسك ، فهذه هي إرادة الله ... »

عرفت جان الملك من غير تردد ، وألقى في روع الحاشية أنهم أمام شخص غير عادي ، ثم انتحيت به ناحية منعزلة « وأسرت اليه ، بضع كلمات تهلل لها وجهه ، ثم عاد يعلوه نور اليقين والاطمئنان ، مصدقا لما بين يديه ، مؤمنا بجان .

وقد عجز كل المؤرخين عن معرفة « ما أسرته » جان للملك . هذا الذي بدله من شكه يقينا ومن تردده ثباتا واطمئنانا . ويقول المجتهدون منهم أن جان أسرت اليه انه هو الملك الشرعي حقا ، وأنه وارث عرش أبيه ولقبه في غير شك ولا ريبه كما ألقى في روعه عندما أعلنت أمه الفاجرة عدم شرعيته ، الأمر الذي كان يقض مضجعه ، ويزيد قلقه . وقد خلا يوما الى نفسه ، وأخذ يصلي لله ويدعوه مخلصا أن يكشف له ما خفي من سر مولده ، وختم دعاءه راجيا إن كان ابنا غير شرعي أن ينزع من قلبه حب الملك والسلطان . فجاءت جان تسر اليه أن الله استجاب دعاءه ، وأرسلها اليه تبلغه في جلاء أنه هو ابن الملك حقا فارتفع عنه كابوس الشك . وأخذ يفرح بزواله عنه . وآمن بجان لأنها لم تكن تعلم هي ولا غيرها أمر شكه في شرعيته ، أو تعرف سر صلاته ودعواته من أجل إزالة ما علق بذهنه عنها .

وبعد هذه المقابلة الموفقة ، انتقلت جان بأمر الملك للسكنى في أحد أبراج القلعة المسمى « برج كودراي » مع ضابط اسمه « وليم بلييه William Bellier » من ضباط الحرس هو وزوجه . ونزول جان في هذا المكان من القلعة ، دليل على ما جعل لها من الأهمية . وخصوصا وقد اعطاها الملك خادماً خاصاً بها اسمه « لويس دي كونت Louis de Conte » وحارسا من الفرسان النبلاء اسمه « جون

دلون John d' Aulon « وقسيساً يلزمها اسمه » جون بسكرل
John Pasquerel

ولم تلبث جان أن تعرفت بأحد النبلاء وهو « دوق دالنسون
Duke de Alencon » أحد أقرباء الملك : وكان شاباً شجاعاً وسيم
الطلعة ، يتصل نسبه إلى الدم الملكي من جهتين : جهة ميلاده ، وجهة
زوجته . فقد كان متزوجاً بابنة دوق أورليان وابنة عم الملك . وكان
نزوعاً للحرب والفروسية ، صادق الوعد ، ثابت المبدأ . وقد وقع
مرة أسيراً في إحدى الوقائع (١) فعرض عليه إطلاق سراحه على شريطة
أن يعلن تأييده لحق ملك إنجلترا في العرش الفرنسي ، وأن يقسم بيمين
الطاعة والولاء له ، فرفض في شمم وإباء ، ودفع فدية باهظة ، وخرج
من الأسر موفوراً الكرامة . ولهذا السبب كان « دالنسون » محبوباً ومحترماً
من الجميع .

سمعت به جان فأحبهته قبل أن تعرفه ، ولما جرت مقابلتها للملك
كان غائباً لاشتغاله بالصيد والقنص ، وفي صباح اليوم التالي للمقابلة ،
دخل عند الملك فوجد جان عنده ، فقدمها الملك إليه ، فرحبت به جان
وقالت في بساطتها المعهودة « كلما ازداد أنصار الملك من أمراء بيته كان
في ذلك خير للجميع » . وفي اليوم التالي ، أي يوم الخميس ١٠ من مارس ،

(١) موقعة قرني في ١٧ اغسطس سنة ١٤٢٤

تقابل «دالنسون» مع جان مرة ثانية . وفي ذلك اليوم عقد المنك مجلساً يتألف من جان ودالنسون ولا تريمواى فى إحدى غرف الملك الخاصة واستمر اجتماعهم حتى تناولوا الغداء سوياً . وفى هذا الاجتماع سمع دالنسون حديث جان عن مستقبل فرنسا ، وعن رسالتها فلم يتردد فى تصديقها . ومن ثم صاراً صديقين حميمين يجمعهما رأى واحد ، فى إخلاص و يقين ، الى أن فرقت حادثات الدهر بينهما كما سيجىء بيانه .

ولكن ما كان للملك أن يتخلص من نفوذ لا تريمواى و رينولث دى شارتر رئيس الاساقفة بسهولة ، وقد استمر الاثنان يحذران من الاندفاع وراء جان . . وهى « الفتاة القروية ، الوضيعة النشأة ، والتي لا تستطيع هى أو أى فرد من طبقتها . طبقة الزراع ورقيق الارض أن يدرك دقائق السياسة وخوافيها ، ودروبها ومسالكها ، أو أن يعرف مزايا اللباقة السياسية ، وأخذ الأمور بالخب والخديعة ، وأنى مثلها أن تعرف مافى الحرب من خدعة ... ! » بهذه العبارات الخلابة وإن كانت جوفاء . كان الخبيثان يحرضان الملك على عدم الانصياع لجان فى تلهفها على السير حالاً لانقاذ أورليان المحاصرة ، وتنفيذ أمر الله فيها .

وبدلاً من السير إلى الميدان ، تقرر أن تفحص جان أولاً ، وهل هى فى تصرفاتها تخضع لشيطان شرير أو تصدر فيها عن وحى ملك كريم

ونجح أهل الدسيسة والطمع في إقناع الملك بأن شرف التاج
متوقف على فحص الفتاة أولا قبل أن يعهد إليها بأى عمل من
أعمال الدولة .

ومن ثم قصد إليها في مسكنها كثير من العلماء وكبار الاشراف
والكل يفحص ويدقق ، ويدهش ويعجب مما كان يجده من يقين
الفتاة ، ورسوخ إيمانها ، في بساطة ومن غير ادعاء ، وأرسلت الرسل
الى دومريمي تبحث وتنقب عن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بنشأتها
وسلوكها حتى قامت بدعوتها .

ولم يكتفوا بهذا ، بل قرروا ارسالها الى بواتيه Poitiers لكي
تفحص وتختبر .



جان في بواتيه

وكان في بواتيه جامعة كبرى ، فيها علماء اللاهوت ، وفيها فقهاء القانون ، ونزح اليها بعض العلماء ممن كانوا في جامعة باريس ورفضوا أن يؤيدوا دعوى انجاسترا في العرش الفرنسي وبقوا مخلصين لولى العهد .

ولما سمعت جان بقرار إرسالها الى بواتيه صاحت قائلة : « الى بواتيه؟ أما يشبعوا فحماً وبحشاً؟! » أورليان تتعذب وتحتضر ! وهم يضعون الوقت في الفحص والبحث ! ربّ أولنى صبراً على ما يفعلون . هيا بنا الى بواتيه . . . »

ولم تكن بواتيه بعيدة عن شنون فهى على مسيرة يومين منها للراكب جنوباً ، وتقع على نهر صغير يسمى فيين Vienne . وسبق جان اليها رئيس الأساقفة لكي يتولى فحصها بنفسه . وهناك جمع لها اعلام العلماء في الروحانيات امثال « سجون Seguin » الدومنيقي وأصله من ليوج وهو أشهر علماء عصره في الروحانيات « وسجون Seguin » الفرنسي سكاني ، ثم غيرهما من علماء اللاهوت والقانون . ورأس حضرته الهيئة التي تألفت لامتحان جان وتحقيق امرها

وتقدمت جان أمام الهيئة في غير خوف ولا وجل ، وليس لها من نصير سوى قلبها الكبير . وروحها العظيم . وعقيدتها الراسخة في

صدق دعواها . وأجابت عما كان يوجه إليها من الأسئلة بصراحة
تامة ، وقصت على الهيئة ما كان من أمر رؤيائها ، وما سمعت من نصيح
وما صدرت لها من أوامر ، في اخلاص وصدق كان له أثره في قلوب
أعضاء الهيئة الذين أنصتوا إليها كأن على رؤوسهم الطير .

وبقيت ثلاثة أسابيع بين شقى الرحى ، تجلس وحدها أمام منصة
جمعت كل مشاهير العلماء ، في ثيابهم المزر كشة . ولحاهم الطويلة :
وهم يحاولون أن يستنبطوا لها من عويص المسائل والوسائل . ما عساه
يتزلق بها إلى الخطأ وينحدر بها إلى الخطيئة . فقصدهم جميعا في تودة
وتأن وكظم للغیظ . فخارت ألبابهم ، وألباب غيرهم ممن شهدوا
جلسات امتحانها .

وفي ذات يوم أخذ العلماء يضيقون عليها الخناق بأسئلتهم اللاهوتية
الملتوية . واعتراضاتهم اللفظية المعقدة . وأسائدهم الروحانية الغامضة
فعيل صبرها والتفتت إليهم في شيء من الحدة ثم قالت :

« أنا لا أعرف الألف من الباء ولكنى أعرف أنى مرسلته من
عند الله لتخليص أورليان من بين أنياب الغاصب . وتويج الملك في
ريمس . وما عدا ذلك من مسائلكم التي تناقشونى فيها ضائع بلا جدوى ... »
ولا غرابة إذا عيل صبرها فقد كانت تجلس الساعات الطوال ،
تتلقف السؤال من هذا ، وترد على ذلك ، من غير أن يتخلل الوقت
فترة استراحة ، أو تبرح مكانها لتلاحق الأسئلة عليها ، بينما كان

قضاتها اذا تعبوا تسللوا الى الخارج للاستجمام ، وخلفوا بعضهم يسأل و يناقش الفتاة المسكينة ، ومع كل هذا لم تتململ او تضعف ، وقلما بدت عليها إمارات الغيظ . ثم انها تخرج ، مع ذلك ، من المناقشة ظافرة دائماً .

وفي يوم سأها سيجوان الدومنيقي سؤالاً جعل كل السامعين يرهفون آذانهم الى ردها ، وظن البعض انها سوف تحير جواباً ، وأن الحججة ستلزمها ، ونبوء بعد ذلك بالفشل . بدأ الداهية سؤاله في نعومة ظاهرة :

- تؤكدين أن الله يريد ان يخلص فرنسا من الاستعباد الانجليزي؟
- نعم . يريد الله ذلك .
- وتريدين جنوداً على ما أعتقد لكي تخلصي بها اورليان ؟
- نعم . والخير في ان يكون ذلك سريعاً .
- إن الله قادر على شيء ، وقادر على أن يفعل ما يشاء . أليس كذلك ؟

— بكل تأكيد . ما في ذلك شك
وهنا رفع الماكر رأسه فجأة ، وقذفها في زهو وقوة بالسؤال
الآتي :

إذن نبشني ، إذا كان الله قد أراد تخليص فرنسا . وهو قادر على
على فعل ما يريد فلماذا إذن تحتاجين للجنود ؟

ولم يكذب انتهى هذا الكاهن من سؤاله حتى ضج المكان بالحركة
واشرأبت الأعناق ، وأصاحت الأذان ، لكي يسمعوا جوابها وقد
ظنوا أنها سوف يرتج عليها وقد استدرجها السائل حتى أوصلها إلى
مأزق . وبينما كان يهز رأسه إعجاباً بنفسه ، ويرى أمارات الاستحسان
على الوجوه ، كانت جان رابطة الجأش هادئة ، وأجابت في نغمتها
الحازمة التي أصبحت مألوفة عنها : « يا هذا إن الله يساعد من يساعد
نفسه ، وعلى أبناء فرنسا أن يقوموا بأعباء الحرب وهو يؤتيهم النصر
من عنده ! »

فأخذت الحاضرين هزة إعجاب ، حتى أن السائل نفسه لم يستطع
إخفاء إعجابه ودهشته من الرد المسكت الذي أحتمته به .

وفي مرة أخرى ضاق بها قضاتها ذرعاً ، ورأى أحدهم وهو سجون
الفرنسكاني أن يختصر عليها وعليهم طريق المناقشة ، فقال لها وهو
يحاورها :

— إن الله يقضى إلا نصدقك حتى تجيئي لنا بمعجزة . فأين هي ؟
فاستشاطت غضباً ، وانتفضت قائمة ، وقالت في حدة :

— « ليست « بواتييه » مهبطاً للمعجزات ، ولم أجيء إليها لكي أقوم

بمعجزات .. أرسلوني إلى أورليان وهناك ترون المعجزات حقا .
واعطوني من الجند كثيراً أو قليلاً . . . ودعوني أرحل . . .

قالت ذلك في إخلاص وحماسة . فعلا ضجيج القوم بهتفات
الاستحسان وصيحات التأمين .

وبقيت جان ثلاثة أسابيع كاملة ، وفي بعض الروايات تسعة أيام
فقط ، وهي تناقش وتحاور ، وكانت طيلة هذه المدة تنزل في بيت « دام دي
راتابو Dame de Ratabeau » زوج أحد أعضاء « برلمان » بواتييه .
وكان هذا المنزل وقت نزول جان فيه ، محط رحال كبار القوم ، رجالا
ونساء ، يقصدون إليه لكي يتحدثوا معها ، وينصتوا إلى صوتها العذب
ثم يخرجون وقد سحروا بحلو حديثها ، وقوة إيمانها .

وفي آخر الأمر كسبت جان المعركة ، واضطر قضاتها إلى أن
يحكموا بالإجماع لمصلحتها . وإليك نص حكمهم :-

« لقد تحققنا وبهذا نعلن أن جان دارك المعروفة باسم « العذراء »
مؤمنة صادقة الإيمان ، وكاثوليكية سليمة العقيدة ، ولا شيء في شخصها
أو لفظها يخالف الدين . وواجب الملك أن يتقبل ما تعرضه عليه من
المساعدة ، لأنه إذا رفض معونتها حرم نفسه معونة الله ... »

وقوبل الحكم بهتاف الاستحسان المتواصل ، وأقبل الجمع الحاشد
في شغف وحماسة على جان مهئين معجبين بما نالت من نصر وفخار .

وفي ذلك الوقت عادت بعثة الرهبان ، التي كانت قد أوفدت إلى موطن جان تبحث وتنقب في نشأتها ، وأعلنت أن صفحة جان في موطنها ، من يوم ولدت إلى يوم سارت قاصدة حاكم فوكولير وإلى يوم خرجت من فوكولير قاصدة « شنون » نقية ، ناصعة ، طاهرة لا يشوبها أدنى غبار .

وبقى بعض الموسوسين يشكون في مطابقة تزيي جان بزى الرجال لأصول الدين وتقاليده ، ولكن اثنين من العلماء ، وكان أحدهما عميد جامعة باريس فيما مضى ، أفتيا بأنه لا جناح عليها في ارتداء زى الرجال لأنها تقوم بعمل الرجال ، والعدل يقضى أن تتزيي بزيمهم ما دامت تعمل عملهم ... إلى هنا ، وبهذه الأحكام وتلك المباحث ، بلغت جان ذروة النصر الأدبي لنفسها . ولم يبق أمامها إلا أن تحقق النصر المادي لبلادها ومليكها .



في سبيل النصر

دوى حكم بواتيه في الأرجاء ، وبعث روحا جديدة في كل مكان .
وانمحي كل شك في صدق جان .

وحملت الرسل نبأ الحكم إلى الملك فكان جوابه الذي ما كان يملك
سواه أن أصدر أمره بتعيين جان « قائدا عاما للجيش » وعين دالنسون
رئيس أركان حرب لها .

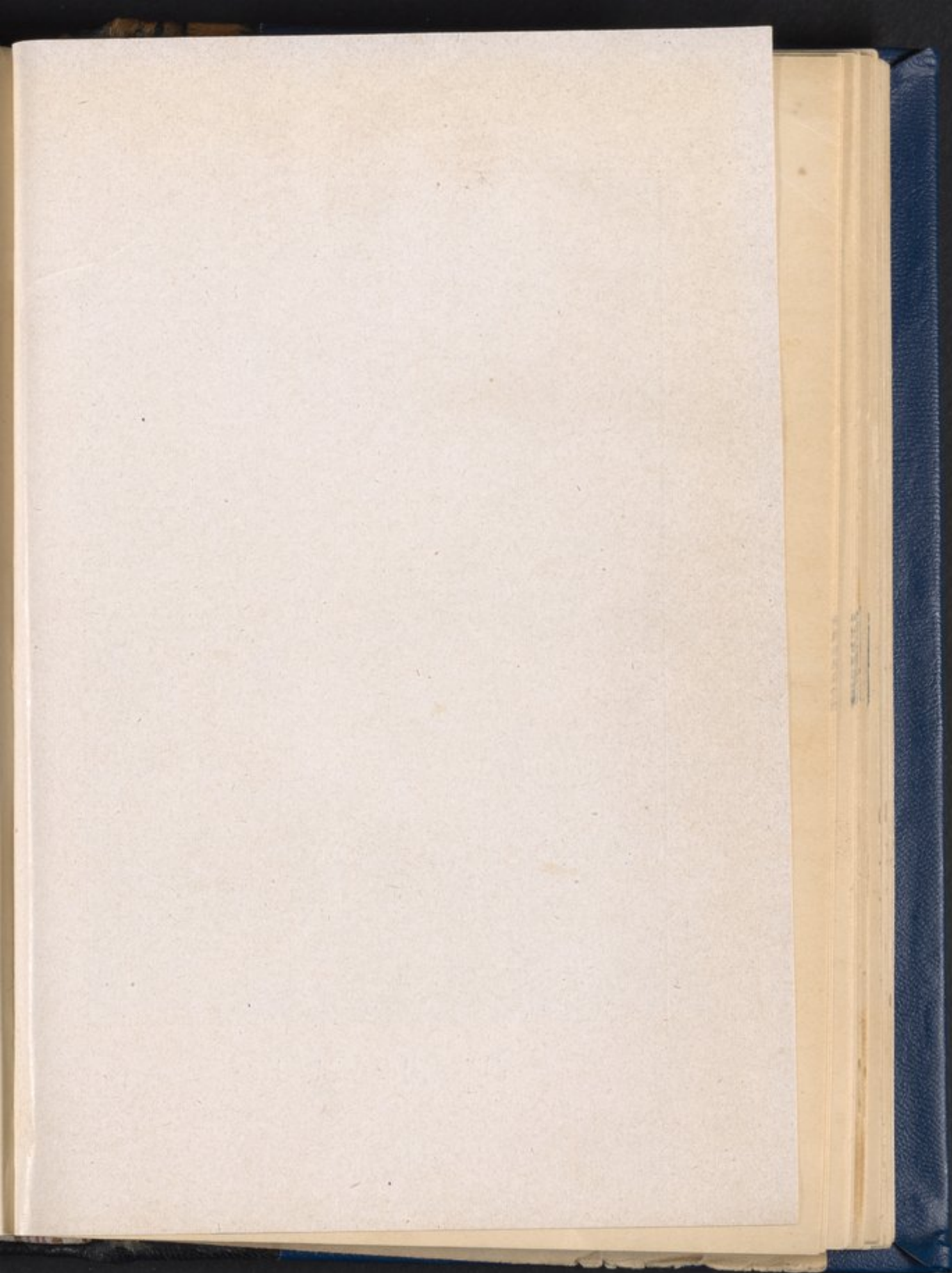
جان فتاة دومريمي ، الوديعه ، تصبح القائد العام لجيش فرنسا !
ويصير أحد أمراء البيت المالِك رئيس أركان حرب لها ! لَحَقُ تلك
إحدى المعجزات .

وقبل أن تبرح جان بواتيه ، أملت بلاغا يرسل إلى القائد العام
الانجليزى ، تدعوه فيه إلى مغادرة البلاد وتسليم الحصون . وإن لم
يفعل حاق به الويل والخسران العظيم .

وأمر الملك بأن يصنع لجان شكة كاملة من السلاح الأبيض عند
أحد مشهورى القيون في مدينة « تورز Tours » وأن يكون من أنخر
صنوف الصلب المموه بالفضة المحلى بالنقوش ، وأن يكون من الصقل
كالمرآة اللامعة . وأمرت جان أن يصنع لها علم خاص قالت إنها تلقت
أوصافه من القديسين ، وذلك أن يكون من الكتان الأبيض تنقش



دخول جان دارك إلى أورليان



عليه زهرة الزنبق رمز المملكة ، وصورة المسيح يحمل الدنيا في يده ، وعلى جانبيه شكل الملكين الحارسين ، ثم ينقش عليه إسم « يسوع ومريم » . وأمرت كذلك بصنع علم صغير آخر تنقش عليه صورة ملاك يقدم زهرة الزنبق للعدراء مريم .

وأراد الملك أن يقدم لها حساما ولكنها أرسلت في طلب آخر كان محبوباً في كنيسة « سنت كترين دي فييربوا » لم يكن يعرف مكانه أحد من قبل . وقيل في تعليل ذلك إن « أصواتها » هي التي أرشدتها إليه . وأنها لا بد وأن تكون قد سمعت به في أثناء مرورها بذلك المكان ، عندما كانت في طريقها من فوكولير إلى الملك ، فقد استراحت قليلاً في فييربوا وزارت كنيستها .

ووجدت الرسل الحسام حيث وصفت جان . وفي « تورز » صقل وأزيل عنه الصدا . وتناقلت الألسن خبره فكان معجزة أخرى لها . وتبرع أحد صناع « تورز » بإعداد غمدين للسيف ، أحدهما من القطيفة الخضراء ، والآخر من القماش الذهبي لكي تستعمله في أيام المهرجانات الكبرى . ولكن جان آثرت أن يعد لها قراب من الجلد اكتفت به دون غيره .

وأرادت أن تبادر بانقاذ أورليان وإسعافها ، فاتخذت « بلوا Blois » قاعدة لها تجمع فيها المؤنة والذخيرة ، ومنها تسير إلى أورليان التي

كانت تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام بمعدل إثني عشر ميلا في اليوم.
وإلى « بلوا » قصدت جمهرة المتطوعين ، وزمر المجندين ، جاموا
إليها في تحمس عظيم ، ينشدون أهازيج الفرح والسرور ، وتأخذهم
نشوة الغبطة بالعمل تحت لواء جان

وأرسلت جان القائد « لاهير La hire » إلى « بلوا » ليتولى إدارة
الشئون العسكرية ، وإعداد المعدات الحربية ، والمساعدات المادية التي
أخذت تنهال على المكان منذ اتخذته جان مستودعا تجمع فيه عدتها
للحرب والقتال .

وبعد أن آتمت استعدادها الحربي في « تورز » ، قامت في جحفل
لجب ومعها بالنسور ، قاصدة إلى « بلوا » لكي تشرف على الجيش
المحشود فيها .

وفي « بلوا » وجدت جان أن الحركة الحربية قائمة على قدم وساق .
ولكنها لاحظت أن كثيراً من الموبقات فاشية بين الجند ، وأنهم
كانوا إلى الفوضى الذين لا يعرفون نظاما ، أقرب منهم إلى الجيش
المنظم . رأت البغايا على عادة ذلك الزمن ، تسير مع الجيش جنبا
إلى جنب ، كما رأت الفسوق والمعاصي تغشى الجند بشكل مروّع .
فاستدعت « لاهير » إليها ، وكان رجلا ضخما ، مدججا بالسلاح من
فرعه إلى قدمه ، إذ كان من القواد العظام ، وألقت إليه بأوامرها من

وجوب بث روح النظام ووقف العريضة الخارجة عن الحد، والقصد في الشراب وطرده العاهرات . وأن يطهر كل مجند نفسه بالاعتراف أمام قسيسه . وأن يحضر المجندون جميعاً الصلاة كل يوم مرتين . فهال «لاهير» ما تأمر به جان . وهو المستهتر الذي لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ارتكبها . وأجس كأنها تطلب مستحيلاً فالجيش جيش والكنيسة كنيسة ! وما يفرض هنا لا علاقة له بما يفرض هناك ! أللحرب نذهب أم للصلاة ! كل هذه الهواجس مرت سراعاً بخاطر «لاهير» . وجان تلقى إليه أوامرها . وظن أنه يستطيع تحويلها عما تأمر به . فخاب ظنه ووجدتها في حزمها الشديد لا تقبل هوادة ولا لنا فيما تراه مخالفاً لعقيدها فاضطر أن يصدع بالأمر . وفي ثلاثة أيام صار المعسكر كأنه خلق جديد . تقام فيه الصلاة في مواعيدها . واختفت النسوة الساقطات . وكبح جماح لاهير ونحمت فيه جذوة الفساد . وكسرت حدة نفسه المولعة بالشر ، وأخذ يروضها على المبادئ الجديدة التي بثتها جان في الجيش .

ومكثت جان في بلوا ثلاثة أيام ولما استوثقت من كل شيء أمرت بالسير قُدماً الى أورليان .

ويحسن قبل أن نصف ما حدث أن نبين موقع أورليان وما أقيم حولها من حصون ... كانت أورليان على الشاطئ الأيمن لنهر اللوار ، وكان حولها سور عليه عدة قلاع . وكان عدد سكانها في ذلك الوقت

نحو عشرين ألف نسمة ، وكانت تبلغ في امتدادها على النهر نحو ثلاثة ارباع الميل . وكان يصل ما بين ضفتي النهر امام المدينة جسر ذو تسع عشرة قنطرة . وفي آخر الجسر من الجهة الجنوبية قلعة تسمى «لى توريل

« Les tourelles

ولما جاء الانجليز يحاصرون المدينة أسرع أهل أورليان بهدم الجزء الجنوبي من الجسر ليحولوا دون دخول الانجليز منه ، فاستولى الانجليز على القلعة المتقدمة ، وحفروا أمامها خندقا وسلطوا عليه ماء النهر . ثم أقاموا على الخندق جسرا يفتح ويغلق عند الحاجة . ثم بنوا قلعة على مقربة من الجسر ، مع أن القلاع المعروفة باسم «لى أوغسطينيان Les Angustinian ، كانت على مقربة منه . وأنشأ الانجليز حول أورليان حصونا أخرى كثيرة ، كان أهمها أربعة حصون هي سنت لورنس « St.-Laurence » غرب المدينة وعلى مقربة من النهر لكي يحرس طريق بلوا Blois ، وحصن «باريس» لكي يحرس طريقها ، وحصن «لى أوغسطينيان» الذى كان يحرس طريق الجنوب . وقبيل مجيء جان دارك كان الانجليز قد أتموا بناء حصن أطلقوا عليه إسم «سنت لوب St Loup» إسم الضاحية التى بنى فيها ، وذلك لكي يحرسوا الطريق من الشرق . وكان يتخلل تلك الحصون معاقل كثيرة تشبه سلسلة متصلة . ولكن بالرغم من تلك المعاقل التى

أقاموها لم يكن جيشهم المحاصر للمدينة كافياً لمنع المدد والمؤونة عن المدينة منعاً تاماً . ولم تكن قواهم المبعثرة بين الحصون العديدة تكفي لصد جيش كبير يأتي لنجدة المدينة . وعند مجيء جان لنجدةها ، كان الانجليز ينتظرون مدداً ، يبلغ ستة آلاف مقاتل ، قادمًا إليهم تحت قيادة سر جون فولستاف Sir John Falstaff

تلك كانت حال أوليان عند ما كانت جان تعد الجيش في « بلوا » لانقاذها وكان قد مضى عليها وهي تحت الحصار ما ينيف على ستة شهور . وكانت مؤنتها قد أوشكت على النفاذ وكان سقوطها في أيدي الانجليز — لو استمرت على ما كانت عليه — أمراً محتوماً . وأورليان كما أشرت آنفاً ، كانت المدينة الوحيدة الهامة الباقية في يد شارل ولى عهد فرنسا ، وكانت فوق هذا مفتاح الجنوب كله ، أى أن سقوطها كان معناه القضاء الأخير على مملكة فرنسا ومحوها من عداد الممالك المستقلة . وبلغ من ثقة الانجليز في ذلك الوقت بوقوعها في أيديهم ، أنهم كانوا يتوعدون شارل بارساله إلى المستشفى قريباً ولكن :

تقفون والفلك المسخر دائر
وتقدرون فتضحك الأقدار
فقد بعثت جان دارك !

قلنا : إنها بعد أن مكثت في بلوا ثلاثة أيام ، واستوثقت من كمال

العدة والعتاد ، أمرت الجيش بالسير . وأن يسير رأساً على السيف
الأيمن للنهر أى الضفة التى تقع عليها أورليان .
ولكن قواد الجيش خدعوها وساروا بها من الطريق الجنوب
الذى أوصلها تجاه أورليان على الضفة اليسرى . ولما تبينت جان
ما وقع إستشاطت غضباً . ولما عبر « دنوا Dunois » القائد المحلى ، الذى
كان يتولى الدفاع عن أورليان ، النهر لملاقاتها سألته فى شدة وحزم :
« من المسئول عن تلك الخطية ؟ » فأجابها بأن القواد
« الخبيرين » هم الذين قرروا ذلك : (معرضاً بعدم خبرتها
بفنون الحرب) . فقاطعتها قائلة « إن الذين يرشدوننى لأحكم وأعظم
خبرة من قوادك . . . فكرتم فى خديعتى . . . ولكنكم فى الواقع
ما خدعتم إلا أنفسكم ، لأنى جئتكم بعون الله وتأيدته ، فهل لديكم
أكبر من عون الله مددا . . . ؟ »

ولكنهم لماذا خدعوها ؟ أليست هى القائد العام ؟ ألم تجمع لهم
بتأثير وجودها جيشاً متحمساً تواقاً للنصر وقد يئسوا قبل مجيئها من
تكوين جيش يصد العدو المغير ؟ ألم يأمرهم الملك عندما ولاها القيادة
العامة ، بعد فوزها فى بواتيه ، ألا يعصوا لها أمراً ، أو يحاولوا شيئاً
من غير علمها ؟

هذه أسئلة تجول ولا شك فى خاطر القارىء . والاجابة عنها قد
لا تخفى عليه إذا تأمل فى حقائق الموقف من وجوهه المختلفة

القواد العسكريون في كل زمان ومكان يرون الحرب فنا تحفي طرائقه
وأصوله على غيرهم من « المدنيين » بالغة ما بلغت كفايتهم وعبقريتهم
بل « وقد استهم » في غير ذلك من الشئون . جان تستطيع أن تخاطب
القديسين ، وأن تسمع أصواتهم ، وأن تقنع رجال الدين بصدق
إيمانها ، وأن تؤلف قلوب الشعب حولها ، وأن تبدلهم من يأسهم
وقنوطهم ثقة وأملا بأقوالها وأفعالها . ولكن محاولتها أن تقنع رجال
الحرب برجحان خطتها على خطتهم ، وفهمها لظروف الموقف الحربى
على فهمهم ، أمر لم تكن عقولهم مستعدة لقبوله ولو من قديسة
متصلة بالسما .

رأت جان أن تسير نحو أورليان من الضفة اليمنى ، فكأنها شاءت
أن تواجه الانجليز في حصونهم ، وأن تخترق قواتهم في « بوجنسى
Beaugency ، وفي « مونج Meung » الواقعتين على الطريق قبل
الوصول إلى أورليان حيث معسكرهم العام وحصونهم التى تحرس
الباب الغربى من المدينة . خطة صريحة تتلخص فى مقابلة الانجليز وجها
لوجه ، والقضاء على قواتهم ، فى المعسكر وفى الحصون ، قبل أن يجيء
اليهم المدد . هذا ما أمرت به جان ، أو بعبارة أدق نتيجة ما كان
محققا وقوعه لو نفذ القواد أمرها على ظاهره .

فلما أمرت جان بالسير فى هذه الطريق ، تظاهر القواد بالطاعة
ولكنهم تداولوا سرا فى الأمر . وقر رأيهم على أن ما تطلبه جان

هو من قبيل الأمر بالقائم في التهلكة ، وتهامسوا فيما بينهم بذكر
خطأ القائد العام ، !! وما فيه من حماقة وجنون !
لم يكن مستغربا من قواد فرنسا أن يحجموا عن مواجهة
الانجليز لانهم ألفوا الهزيمة على أيديهم في الخمسين سنة الأخيرة
دحروا في « كرسى Crecy » وأخذ ملكهم أسيرا ، أيبد جيشهم في
« إجنكورت Agincourt » الشهيرة ، ولوا الأدبار في كثير من
المواقع ، وفقدوا الروح المعنوية أي الثقة بأنفسهم حتى كان مجرد
رؤية الانجليز كافيا لأن يجعلهم يولون الأدبار . بل لقد بلغ الهلع
من نفوسهم أن اعتقدوا أن هؤلاء « Goddams الملائعين » ، وهى
اللفظة التى كانوا يطلقونها على الانجليز ، هم من الشياطين او زبانية
جهنم ذوى الذبول الحمراء ، لا يستطيع البشر صدهم عن الشر
والخراب ... تلك كانت عقيدة عامة الجيش الفرنسى فى الانجليز ، فى
ذلك الزمن ، وليس أدل على فساد روح الفرنسيين من اعتراف قائدهم
« دنوا » عندما كان يؤدى شهادته فى قضية « رد اعتبار جان »
كما سيأتى بيانه ، من أن مائتين من الانجليز كانوا كافين لمطاردة ثمانمائة
أو ألف من الفرنسيين فى ذلك الوقت . وإن قوما فقدوا الثقة بأنفسهم
إلى هذا الحد ، ما كان ينتظر منهم أن يفعلوا مع جان التى أمرتهم
بمواجهة الانجليز غير ما فعلوا . لم يستطيعوا مخالفتها جهرا ، فتآمروا
على خديعتها سرا ، وساروا بالجيش فى غير الطريق التى رسمتها له .

وفي الواقع أن القواد كانوا مخدوعين فيما فعلوا لا خادعين . بل
حمقى طائشين . إذ لم يكن هناك أدنى فائدة حربية أو غير حربية من
السير بالجيش والمؤن على الضفة اليسرى للنهر ، وهم يعلمون أن الجسر
الوحيد الموصل للمدينة في قبضة الانجليز . ويعلمون أن السفن لديهم
لم تكن كافية ، ولا قدرة على مقاومة تيار النهر ، وتيار الرياح ، وحمل
الجيش والمؤنة إلى المدينة . وماذا تكون إذن فائدة الجيش ومؤنه
إذا ما وصل قبالة المدينة التي يفصلها عنه نهر لا يملك وسائل عبوره ؟
وأعظم ما غفل عنه قواد ذلك الزمن أنهم لم يقدروا الأثر الذي
أحدثته جان ، بوجودها على رأس الجيش ، في الطرفين المتقاتلين . أما
الأثر في الانجليز فقد كان عظيما وعظيما جدا فقد اعتقدوها « ساحرة »
تفعل بسحرها الأعاجيب ، وتستطيع أن تقذف بهم الى الجحيم
وكان لهذا الاعتقاد أثره في روحهم المعنوى الذي مكن لهم من كسب
الحروب السابقة . وأما أثرها في الفرنسيين فكان أجل وأعظم فهي
« قديسة » تتلقى الوحي من السماء وتفعل ما تفعل بأذن الله ، فاندفعوا
وراءها مؤيدين مناصرين في حماسة ويقين أنساهم الجبن والخور ، وجعلهم
يتلففون الى الفوز والظفر . غفل القواد عن هذا التغيير في نفسية
الجيش ، وتباحثوا وهم أسرى لما ألفوا ، أعداء لما جهلوا . فباءوا بالحماسة
والطيش ، ونقلوا الجيش على غير هدى إلى حيث لا يستطيع عملا .
ويجمع كل من كتب في أمر جان على أن خطتها كانت المثلى ، وأن

القوم لو جروا عليها لفازوا فوزا كبيرا ، وأن الإنجليز ما كانوا يستطيعون وهم قلة غلبها الوهم أن يخرجوا من حصونهم أو معسكرهم لو مرت جان بجيشها كما رسمت .

إذن كان حقا ما وجهته جان من اللوم للبيستارد (١) Bastard « النغل » دنوا قائد أورليان عندما عبر النهر لمقابلتها . واضطرها ومن معه أن يروا خطأهم في السير بالجيش على الضفة اليسرى .

ولما اعترفوا بالخطأ قالت جان « أما وقد وقع الخطأ فالله وحده القادر على تعويضنا عنه خيراً . لو أن الريح تغير اتجاهها بحيث يمكن للسفن الموجودة أن تسير ضد التيار ، إذن لا يمكن أن نجد لنا مخرجاً من هذا المأزق . وقد أجاب الله دعاء جان وتغير اتجاه الريح فجأة فحملت السفن المؤونة وسارت بها إلى « تشسى Chécý » وهي قرية تبعد خمسة أميال شمال أورليان ، لكي تنقل منها برا إلى أورليان . وكان المقصود من ذلك أن يكون دخول المؤونة من « باب برجندى » ، إذ أنه كان الباب الوحيد الذي لم يكن الإنجليز قد أكملوا أسده بالحصون . ولأن قلعتهم المجاورة « سنت لوب » لم يكن فيها أكثر من ثلاثمائة جندي وهؤلاء كان يمكن تخطيهم . ولما تغيرت الريح فجأة كما أشرنا اعتقد « دنوا » أنها كرامة لجان ، وسلم لها من بعدها تسليماً تاماً ، ولم ينس طول حياته ذكر تلك الكرامة .

(١) كان يعرف « دنوا » بلقب Bastard of Orleans

وبعد أن سارت السفن تمخر عباب النهر بالمؤونة ، عبرت جان النهر ومعها نحو مائتين من حملة الرماح ، وقضت ليلتها في « ريلي Reilly » في بيت رجل صالح يدعى « جوي Guy » . قيل عنه أنه هو الشخص الوحيد الذي سمح له برؤية القديسين الذين يخاطبون جان . وبعد غروب شمس اليوم التالي بساعة واحدة تقريباً « الجمعة ٢٩ ابريل سنة ١٤٢٩ » قصدت جان ومعها دنوا إلى أورليان . وحوالي الساعة الثامنة مساءً دخلت جان أورليان من « باب برجنديّة » ممتطية جوادها الابيض تحمل سيف فيربوا المشهور ، ومن حولها القواد ، ومن ورائها حملة الرماح . ويمكن للقارىء أن يصور لنفسه أورليان وجان تدخلها لأول مرة !!! جان التي جاءت إليها تسعى من اللورين لانقاذها من العدو المحاصر الذي أجاعها وأذلها وأوشك أن يقضى فيها قضاءه الأخير . جاءت جان رسولة من عند الله تتلقى الوحي من ملائكته وقديسيه !!! إن أدق المؤرخين وصفاً ليعجز عن إبراز صورة إستقبال أورليان لجان دارك أول مرة ، فقد خرجت المدينة بأسرها تتزاحم حولها ، وتخفق قلوبها ، ويحرص كل فرد من أفرادها على اجتلاء محيا القديسة القادمة . وخير لى أن أترك لكل قارىء تصوير الموقف لنفسه وأنا واثق أن صورة الاستقبال التي سترسم في ذهنه ستكون أقرب إلى الواقع من محاولتى إبراز صورة لما حدث بالكتابة أو التورط فى وصف ما كانت تهتز له قلوب

الشيبة والشبان ، و الفتيات والفتيان . الذين خفوا لاستقبالها ، أو محاولة وصف قرع الطبول ، ودقات النواقيس وتلويح الأيدي ، وحملقة العيون ، وتقبييل الأقدام . لابل وتقبييل الأرض التي سار عليها الجواد الذي كان يحملها ... !

كان يوم جان في دخولها أورليان على حد تعبير أحدهم « كيوم الحشر » فصور لنفسك أيها القارىء يوم الحشر في أورليان وعلى طريقة أهل القرون الوسطى . سارت جان ولا ندرى كيف سارت وسط الكتل البشرية التي تحمل المشاعل بأيديها إلى كنيسة أورليان حيث صلت صلاة الشكر لله وللقدسين ، ومن الكنيسة سارت إلى البيت الذي اختير ليكون مقرا لها ، بيت جاك بوشيه « Jacques Boucher » أمين دوق أورليان .

وقضت المدينة ليلتها في حلم مستمر إلى الصباح .

أما الانجليز عند دخول جان المدينة ، فقد وجموا ولزموا قلاعهم مأخوذين مذعورين مما سيجيئهم به الغد

وفي صباح اليوم التالي ، أى يوم السبت ٣٠ ابريل سنة ١٤٢٩ ، بدأت جان تعمل ماجات من أجله ، وكان أول أعمالها أنها أرسلت تبحث عن الرسول الذي بعثته يحمل للانجليز بلاغها النهائى الذى أملته فى بواتيه والذى أرسلته لهم من « بلوا » كما اسلفنا فلم تعثر له على أثر .

و لما كان بلاغ جان إلى الانجليز من أهم و ثائق حياتها الخالدة
التي يتجلى فيها روحها العالى ، وصراحتها البريئة الطاهرة ، وإيمانها
الراسخ برسالتها ، و باتتصار حق بلادها على باطل أعدائها ، رأيت أن
أثبته هنا بنصه (١) وإليك هو :-

« إلى ملك انجلترا ، وإليك أنت يا دوق بدفورد المتسمى وصياً ،
« على فرنسا ، وإليك يا ويليم دلابول إرل سافولك ، وياجون لورد ،
« تالبوت ، يا من تسمون أنفسكم وكلاء دوق بدفورد ، أطلب منكم ،
« باسم ملك السموات أن تردوا الحقوق إلى أهلها ، وأن تسلموا ،
« للعدراء المرسله من عند الله مالك السموات مفاتيح كل البلدان ،
« التي استوليتم عليها واغتصبتموها من أرض فرنسا . لقد جاءت ،
« العذراء بأمر الله لكي تنقذ الدم الملكى ، وهي مستعدة للسلام ،
« على شريطة أن نجروا معها على سنن الحق بأن تنصفوا فرنسا ،
« وتردوا لها ما أخذتم

« وأنتم أيها المحاربون ، أشرافا كنتم أو من عامة الشعب ، الذين
« تتصدون لأورليان ، أطلب منكم باسم الله أن ترحلوا إلى بلادكم .
« يا ملك انجلترا ، إن لم ترحل فتقضى ما أطلب منك ، فاعلم أنى
« قائد حربى ، وبهذه الصفة سأطارد رجالك أينما وجدتهم فوق ،

(١) وجدت ثمان نسخ أصلية منه محفوظة في دار المحفوظات بباريس

« تربة فرنسا ، فمن أبي واستكبر كان جزاؤه القتل ، ومن أطاع ،
« ورحل عفوت عنه

« ولا تعتقدن أنك ستملك في فرنسا شروى نقيير . كلا ! إن ،
« الله قسمها للملك شارل الوارث الشرعى لها . هذه هى إرادة الله . »
« وقد أبلغتها العذراء إليه . وسيدخل باريس ظافرا منصورا . فاذا ،
« لم تصيخوا الى كلام الله المرسل لكم على لسان العذراء ، فستزلزل ،
« الأرض تحت أقدامكم أينما وجدتم ، وستحاربكم حربا لم تروا لها ،
« مثيلا من آلاف السنين . ويومئذ تعلمون من منا يؤيده الله رب »
« السموات والأرض ... »

لم يرد الانجليز على هذا البلاغ بل خالفوا الأصول المرعية فى ذلك الزمن ولم يعيدوا الرسول الذى حملة اليهم . فأرسلت اليهم من أورليان رسولين بانذار جديد تطلب منهم فيه فك الحصار والرحيل واطلاق رسولها الأول . فعاد الرسولان يحملان اليها إنذارا من الانجليز بأنهم « سيحرقونها اذا وقعت فى أيديهم ، وأنه خير لها والفرصة سانحة أن تعود الى قريتها ترعى الغنم ... » فكلفت جان الرسولين بالعودة اليهم بشرط جديد وتحد بديع . قالت فيه للورد تالبوت قائد الانجليز العام « أخرج من قلاعك بجيشك وأخرج لك بجيش ، فاذا غلبتك فاخرج من فرنسا فى سلام ، واذا ما غلبتني فاحرقني كما تشتهى ... »

ولكن الانجليز رفضوا هذا التحدى فلم يكن لديها بد من الهجوم والعمل على رفع الحصار .

وفي يوم الأحد أرسلت « دنوا » ليتولى قيادة الجيش الذى عاد إلى « بلوا » لكي يجي من الطريق المستقيم . وكانت جان موفقة التوفيق كله فى إرسال « دنوا » لقيادة الجيش من « بلوا » لأن لا تريموى كبير مستشارى الملك أو كبير الخونة هو ورينولت دى شارتر رئيس الأساقفة أرسلوا برسلمهم إلى الجيش يفسدون فيه ، ويحرضونه على عدم الطاعة لجان فى السير إلى أورليان .

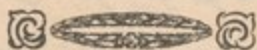
وخرجت جان على رأس قوة صغيرة تقابل دنوا وجيشه ، على بعد عدة فراسخ من المدينة ، لأنها علمت بنية الانجليز فى التعرض للجيش القادم عند دخوله إليها .

ودخل الجيش المدينة ولم يقذف الانجليز عليه قذيفة واحدة ، ولم يخرجوا من قلاعهم لملاقاته . ولا تعليل لذلك إلا إنهم هلعوا لرؤية جان على رأس الجيش ، وخشوا أثر سحرها فيهم ، فقبعوا فى قلاعهم فى انتظار المدد الذى كانوا يتوقعونه قريباً .

وقابلت أورليان الجيش المنقذ بفرح عظيم وحماسة لا توصف ، حتى أن فريقاً منهم دفعته حماسته لمهاجمة الانجليز فى قلعة سنت لوب فردتهم حاميتها . حدث هذا فى وقت كانت فيه جان تستريح فى المنزل

من عناء اليوم ، فأخذتها سنة من النوم ولكنها لم تلبث أن هبت من نومها تقول لرفاقها إن القتال يدور الآن ، ولامت خادمها على تركها تنام . وسارعت إلى جوادها ، وتلقفت عليها ، وركضت ومعها دولون D'Aulon إلى باب المدينة الشرقي إلى أن وصلت إلى سنث لوب حيث كان القتال دائراً كما قالت فاشتركت فيه وسرعان ما سقطت القلعة في أيدي الفرنسيين وذبح من ذبح من جنودها وأخذ الباقون أسرى .

وكان هذا أول نصر ناله الفرنسيون ضد الانجليز . . . فزادهم حماسة ووثوقاً بأنفسهم بعد أن كانوا يفرون ذعراً في السنين الأخيرة كلما لاح لهم الانجليز . ومما يجدر بنا التنويه به ، أن جان وجدت بين أسرى القلعة بعض الرهبان ، فأمرت باطلاق سراحهم في الحال ، احتراماً لصفتهم الدينية . وكان عملها هذا أول عمل من نوعه ، كما كان من أول الأعمال الدالة على صدق إيمانها وعظيم احترامها لرجال الدين .



THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY



استيلاء جان دارك على قلاع أورليان

رفع الحصار عن أورليان

استولى الفرنسيون بقيادة جان على أول قلعة من قلاع العدو المحاصر . وكان استيلاؤهم عليها أهم حادث وقع منذ بدأ الحصار وأرادت جان مواصلة القتال ، ولكنها اضطرت إلى وقفه في اليوم الثاني لأنه صادف يوم عيد الصعود ، فلم تشأ أن تدنس حرمة اليوم بالقتال فيه . ولكنها في اليوم الذي يليه بدأت المناوأة ، وخاطرت بالزحف فوق الجسر إلى أن قاربت حصون العدو ، ومن هناك قذفت إنذاراً أخيراً على طرف سهم صوبته إلى قلب المعسكر ، فكان رد الذين تلقوه منها أن صاحوا مستهزئين ، أخبار من العاهرة ! . وعند سماعها تلك الكلمة القذرة أجهشت بالبكاء ولكن قديسيها أسرعوا إلى مواساتها وتسرية الحزن عنها .

وخطر للقواد الفرنسيين أن يكتفوا بالاستيلاء على قلعة سنت لوب وأن يتركوا الإنجليز للزمن يسلط عليهم اليأس والضعف فيرحلوا . . . سياسة المماطلة والتسوية التي جروا عليها وجرّت عليهم شؤم الخراب وذل الانكسار . ولكن جان أثبت إلا متابعة الحرب ، ومواصلة القتال ، لأنها كانت تعلم أن المدد الإنجليزي الذي سبقت الإشارة إليه كان على وشك الوصول فلم يكن من الحكمة ترك العدو حتى يصل إليه المدد . وبعد حوار طويل تغلب رأى جان على رأى القواد . وفي

الحق أن الذي تغلب هو أصالة الرأي على الخطل . وقام الفرنسيون
يغيرون ما بهم من تردد وإحجام إلى هجوم واستبسال بفضل تلك الفتاة
المملوءة يقينا وإيمانا .

وفي صباح يوم الجمعة ٦ من مايو ، عبرت جان ومعها الجيش الى
الضفة اليسرى لكي تهاجم القلاع الهامة التي تحرس رأس الجسر
المؤدى إلى المدينة من تلك الناحية ، فلما رآها الانجليز تعبر النهر أخذوا
القلعة الأولى وكانت تسمى « سنت جون » ، وهى القلعة الوحيدة التى
كان يمكنها مقاومة جان وجيشها فى أثناء عبور النهر ، وارتدوا الى
القلاع التى خلفها لكي يحشدوا قوتهم فى نقطة واحدة . وتقدمت
جان الى قلعة أوغسطينيان Augustinian أولى القلاع الهامة التى تحرس
مدخل الجسر ، وقد جمع فيها الانجليز أمدادا من القلاع الأخرى
فلما تقدمت جان خرج اليها رجال الحامية وفاجئوا الفرنسيين قبل أن
يتكامل عددهم واضطروهم للفرار .

فلما رأت جان الجند يفرون صاحت فى وجوههم قائلة « لو أن
فيكم اثنى عشر رجلا غير جنبا لكفى . اتبعونى ! » فكان لكلماتها فى
نفوس الفرنسيين أعماق الأثر وتبعوها . فلما رأى الانجليز جان تتبعها
فئة قليلة من الجيش تقبل عليهم ارتدوا مذعورين أمام « الساحرة
الملعونة ! »

وهنا عاودت بقية الفرنسيين شجاعتهم لما رأوا جان تطارد
الانجليز فحفوا إليها سراعا وعادوا تباعا فلم تكتف جان برد الانجليز
إلى حصنهم بل واصلت القتال حتى استولت على الحصن ذاته . وهكذا
تفعل القدوة والمثل الحسنة .

وكانت جان تود مواصلة القتال حتى تستولى على أكبر الحصون
الباقية المسمى لى توريل ولكن القواد نصحوا بأن ينال الجند فترة
من الراحة ، فقبلت جان نصيحهم ويظهر أن قبولها هذه النصيحة
شجع القواد على أن ينصحوا لها نصيحة أكبر أثرا من تلك وهى أن
تكتفى جان بما حدث وأن يقفوا القتال حتى يرحل الانجليز من تلقاء
أنفسهم ولكنها أبت عليهم ذلك وعابت عليهم سياسة التردد

وفي صباح اليوم التالى خرجت على رأس القوة قاصدة الاستيلاء
على لى توريل ، وهاجمت الحصن . وفي أثناء الهجوم جرحت جرحا
بليغا بين كتفها ورقبتها ، وسال منها دم غزير . فوقعت على الأرض
تبكى بكاء مرا . وانتهز الانجليز فرصة إصابتها وتجمعوا حولها قاصدين
تمزقها إربا إربا ولكن الفرنسيين قاوموهم وصمدوا لهم ويقول
مارك توين فى أسلوبه البديع « دار القتال حولها على أيهم يستولى عليها
و فى الواقع على فرنسا ، لأن جان فى أثناء تلك الدقائق القليلة كانت
هى فرنسا للطرفين فمن استولى عليها فقد استولى على فرنسا إلى الأبد

وكانت تلك الدقائق العشر هي أهم الدقائق التي دقتها الساعة في تاريخ فرنسا كله في الماضي وفي المستقبل...»

ليس في قول مارك توين مبالغة أو إسراف لأنه لو كان قدر لجان أن تقع فريسة في أيدي الانجليز في ذلك اليوم ولما يتم عملها أو ترسخ سياستها في قلوب الفرنسيين لكانت فرنسا قد ضاعت ضياعاً نهائياً ، وضاعت ملكيتها وقوميتها إلى الأبد لأن معاهدة «تروي» كانت تنفذ إذ ذاك بحذافيرها ، وتضم فرنسا إلى إنجلترا . (ولو كنت فرنسيا لقلت) ولكن الله سلم .

وتمكن الفرنسيون من نقل جان إلى خارج المعمة ، ودهن جرحها بالزيت وضمد ، وكانت «أصواتها» قد نباتها من قبل بهذا الجرح وبمكانه ، وكانت جان قد أعلنت هذا لمن حولها قبل الخروج للموقعة ، ويلاحظ أنه وإن كانت جان قد حاربت حرب الأبطال إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تبكي بكاء الأطفال وكان من الطبيعي لمثلها أن تبكي وتتألم وإن كانت من قبل ذلك تعلم أنها ستجرح في هذه الموقعة . ولم تدع جان — كما ذكرت آنفاً — في يوم من الأيام ، من ساعة اتصالها بالقديسين في دومريمي إلى ساعة حرقها في ساحة الاعدام ، أن لها قوة خارقة تستطيع بها دفع الأذى مهما كان مصدره ، ولكن كل ما اعتقدته أنها كلفت أمراً خاصاً بيلادها وكان عليها

نفاذه . وقد ادعى كثير من معاصريها أن لها معجزات ، واعتقدوا فيها ما شاءت لهم أو هامهم أن يعتقدوا ، ولكن جان صانت لسانها وعملها عن الدعوى ، وقالت ما قالته وعملت ما عملته كأنه أمر طبيعي لا خوارق فيه .

واستمر القتال بعد جرح جان ولكن اعتراه الفتور من جانب الفرنسيين لأنهم انزعجوا من جرحها . ولما قارب المساء صدر أمر « دنوا » بوقف القتال ، فقامت جان وكانت قد استردت شيئاً من قوتها وسارعت باصدار الأمر بالاستمرار ومواصلة القتال . وكان ظهور جان بين الجند بعد جرحها بمثابة فتيل أشعل من جديد ، فعادوا أشد مما كانوا حماسه ، وتقدمتهم قائلة لهم « عند ما يلبس علم هذا سور الحصن فالحصن لكم لا محالة » . وبعد قليل شوهد العلم يلبس الحصن ، فاندفع الجند يتسورونه وفتحوا فيه ثغرة دخلوه منها واضطر من بقي فيه من الانجليز إلى الفرار . وغرق معظمهم في النهر ، وكان بين الغرقى القائد جلاسديل Glasdale الذي قذف جان بتلك الكلمة « القدرة » قبل ذلك بثلاثة أيام .

وبالاستيلاء على لى توريل أصبح الجسر في قبضة الفرنسيين وعبرت جان الى أورليان من على الجسر كما وعدت أهل المدينة في الصباح عند ما كانت تعبر النهر لقتال العدو .

وفي صباح يوم ٩ مايو سنة ١٤٢٩ لم يبق للانجليز أثر أمام أورليان فقد ارتدوا عنها مقهورين ، وتركوا مؤنهم وذخيرتهم اذ لم يجدوا متسعاً من الوقت لنقلها أو اتلافها ، وولوا عنها مدبرين . وهكذا رفع الحصار عن أورليان في أربعة أيام بعد أن دام سبعة أشهر كاملة . وكان رفعه على يد تلك الفتاة العجيبة المدهشة .

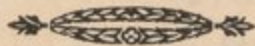
وخرجت أورليان تستقبل جان في عودتها اليها بعد النصر : خرجت تهلل وتبكي ... والبكاء يكون لفرط الفرح كما يكون لفرط الحزن . بل ومن الفرح ما يكون أكثر استدرارا للدمع : استقبلتها المدينة هاتفة مرحبة « بعذراء أورليان ، ومن ذلك اليوم عرفت جان بهذا الاسم وأصبحت تلقب به الى الآن .

والمدهش من أمر هذه الفتاة أنها وهي مخوفة بكل مظاهر الزهو والفتخار . وفي حين تتسنى ذروة مجد لم يتح لفتاة غيرها قط . بقيت على طهارة قلبها وبساطة طبعها وعظمة نفسها لم تبطرها أورليان أو تملأ عطفها زهوا وهي تقبل الأرض بين يديها . بل ذهبت الفتاة من فورها الى فراشها تلتمس الراحة كما يذهب سائر الأطفال الى النوم بعد مجهود يومهم العنيف .

وذكرى يوم ٨ مايو الذي تم فيه النصر لجان لا تزال باقية خالدة تحتفل بها فرنسا في كل عام احتفالا شعبيا وعسكريا غاية في المهابة

والجلال . ولن تمحى ذكراه أبد الدهر . فهو يوم جان العظيم ، يوم
كسر شوكة الأجنبي وخذلانه والقضاء على سيطرته على أرض الوطن .
قلنا ان اللورد « تالبوت » قائد القوات المحاصرة خرج ومن بقي
معه في فجر اليوم التالي لاندحاره (٩ مايو) لا يلوى على شيء . وخرج
أهل أورليان الى الحصون الانجليزية وحملوا كل ما فيها من مدافع
وأسلحة وذخائر ثم أضرموا النار في القلاع حتى طمسوا أثرها من
الوجود . وصلت جان صلاة الشكر لله في كنائس المدينة كلها والناس
جميعا من حولها . ثم أخذت تفكر فيم تفعل غدا وتركت الناس في
مهرجانهم طول الليل وعكفت هي على التدبير .

وفي فجر يوم الثلاثاء ١٠ مايو غادرت جان أورليان قاصدة الى
مدينة تورز Tours حيث كان الملك لكي تبلغه خبر الانتصار . غادرت
المدينة والناس من حولها يجمشون بالبكاء تأثراً لفراقها . ولا غرابة في
ذلك بعد كل الذي مر بك من فعالها .



في سبيل التاج

سارت جان إلى تورز Tours بين صفين من أهل القرى الذين
خفوا إلى الطريق الذي ستمر به يحيونها ويهتفون لها . والسعيد السعيد
منهم من استطاع الاقتراب منها يلثم قدمها أو يمسح على درعها .
وغلبت الحماسة بعضهم فكان يقبل مواطئ سنابك جوادها . أليست
هي مخلصتهم من تضيق العدو وشدة وطأته ؟

وفي تورز استقبلها الملك استقبال الملكات : رفع لها القبعة عند
دخولها ، ونزل من منصة العرش . وكانت قد ركعت أمامه فأخذ
بيدها وأجلسها مشفقاً عليها من أجل الدم الذي نزل من جرحها في
سبيل فرنسا ، ثم جلس بجوارها . وفي رواية أخرى أنه خرج لملاقاتها
فلما قدمت عليه جان خلعت قبعتها وطاقات رأسها فرفعها وطلب إليها
أن تتمنى ماشاءت وهو الكفيل بمنحها مناها . وهنا علت وجه جان
حمرة الخجل وخبأت وجهها بين راحتيها وقد اضطربت لمفاجأتها
بالكلام عن المكافأة كأنما كانت تقوم بما قامت به من جلائل
الاعمال ابتغاء الأجر وسعي وراء النفع لاحقاً في بلادها وكرامية
لعدوها الغاصب لها ولحقوق عرشها . ولم يدرك الملك لأول وهلة سر
اضطرابها فظفق يمازحها فزادها ذلك اضطراباً ، وأسأل دمعها مدراراً

وعندئذ تبين الملك سوء ما صنع فحول الكلام الى مجرى آخر ، وجعل
يحدثها عن شجاعته ، ومهارتها في الاستيلاء على حصون لي توريل
وبعد أن زالت عنها جفلة الخجل ، أو ثورتها النفسية على التعريض
غير المقصود بنزاهة غرضها ، عاد الملك يلحف عليها في أن تقول له عن
مكافأة يجزيها بها . وتطلع اليها القوم من حول الملك ينتظرون منها
الكلام عما تریده من الهبات والمنح الملكية ، ولشدها كانت دهشتهم
عند ما رفعت رأسها قائلة له (أيها الدوفين الكريم ! ليس لي من رغبة
في هذه الدنيا الا أن تتابع النصر ضد الغاصب . وألا نقعد عن متابعتة
يوماً واحداً حتى يخرج من أرض الوطن . هيا بنا الى ريمس حيث
نقضى مراسم تتويجك ...)

ولله در هذه الفتاة ! يفكر الملك في مكافأتها على انتصارها ،
وتفكر هي في مواصلة الانتصار انجازاً لوعدها واتماماً لرسالتها . حقاً
إذا كانت النفوس كباراً شغلها كباثر الأغراض

وكان بين أورليان وريمس حصون للانجليز ، ومواقع منيعة ،
واقعة على النهر ، بعضها قبل أورليان والبعض يليها . ودونها جسور
لعبور النهر يستطيع الانجليز ، اذا جمعوا جموعهم ، أن يعبروا
عليها الى أملاك الدوفين ، وأن يستردوا مع الزمن ما يفقدون بالحرب
منها طالما بقيت لهم هذه الحصون . ورأت جان ان الحكمة تقضى

بمواصلة القتال، وأخذ العدو أخذ عزيز مقتدر وجيشها ثمل
بخمرة النصر، وروحه المعنوية تحفزه، بينما العدو مأخوذ وجل.
وكان رأى جان هو السداد بعينه، ليس يمكن تخطئها فيه، لا من
قواد عصرها، ولا من قواد أى عصر من عصور الماضى أو الحاضر أو
المستقبل. ولكن ماذا يجدى رأى الصواب مع ملك هو الضعف
بمثلا، والخور مترائيا، وفوق هذا وذاك يحيط به جماعة من الخونة
الذسائين الذين يجعلون مصلحتهم الذاتية فوق كل اعتبار ولو أدى
الامر الى ضياع العرش والبلاد. وإليك ما رد به الملك على جان
وهى تدعوه الى مواصلة القتال والذهاب إلى ريمس لتتويجه، الامر
الذى بدونه لا يمكن اعتباره ملكا شرعيا تجب له الطاعة حتى بين
أخلص المخلصين له من رعاياه، لأن مراسيم التتويج فى ريمس، والمسح
على رأس الملك بزيت كنيستها، صيرتها التقاليد من الامور المقدسة
التي لا يستغنى عنها ملك مهما كان نسبه وحسبه. قال لها الدوفين
وهو يحاورها :-

« إلى ريمس ! هذا مستحيل يا قائدى العزيز ! أنسير اليها ونتحدى
السلطة الانجليزية فى صميمها ؟ ! »

بهذا الجبن أجابها ذلك الخامل ومن حوله رجال حاشيته يؤيدونه
فى تقاعده، وأصبحت جان « الرجل الوحيد » الذى يجرى فى عروقه

دم الشجاعة والاقدام والوطنية الحقّة ، في ذلك الجمع الحاشد . لم يفت في عضد جان جواب الملك اليانس ، أو إيماءات الرضا عن ذلك الجواب من رجال الحاشية بل استمرت تستعطفه قائلة :-

« أتمس يا مولاي ألا تدع هذه الفرصة الذهبية تفلت من أيدينا فكل الظروف ملائمة . بل كأن الظروف خلقت لكي نستمر في مواصلة الجهاد ضد العدو . فان روح جنودنا قد سما بها النصر إلى أعلى عليين . والقعود عن القتال قد يغير هذه الروح . فاذا ما رأى الجند ترددنا في متابعة النصر بالنصر ، تولتهم الدهشة ثم داخلهم الشك ، فيفقدون ثقتهم فينا . وكذلك الانجليز يأخذهم العجب ثم يستجمعون شجاعتهم ، ويستردون إقدامهم . فالبدار ! البدار ! ولتأمرنا بمواصلة السير الى ريمس .. »

أنصت الملك لهذا الرجاء ، وهز رأسه ، وسأل لا تريمواي رأيه — لا تريمواي المستشار الخائن وصاحب النفوذ الأول عليه — فأسرع بالجواب :-

« مولاي ، ان الحكمة كلها في رفض ما تطلبه جان ، فكر يامولاي في حصون الانجليز على اللوار . فكر في حصونهم الكثيرة التي تحول بيننا وبين ريمس ! »

ولم يؤيد جان في رغبتها لدى الملك أحد من رجال الحاشية ،

فقد كانوا جميعاً يرون ما يراه لا تريمواى ورئيس الأساقفة من عدم متابعة القتال ، واتباع سياسة الانتظار والمفاوضة .

وكلها ألحت جان على الملك ، وأبانت له ولهم ضرر الانتظار ، أصروا جميعاً على الرفض . وكان امتناع الملك ضعفاً منه وخوفاً من مستشاريه . وكان رفض هؤلاء راجعاً إلى ممالأتهم للعدو ، واتفاقهم معه سرأ على عرقلة مساعى الملك فى استرداد عرشه ومملكه ، استبقاء لنفوذهم من جهة ، وطمعاً فى مال العدو من جهة أخرى .

وأبى الملك إلا أن يكافىء جان على انتصارها فى أورليان ، وألحف فى أن تمنى عليه ما تشتهى ، وهى تقابل إلحاحه بقولها أن لا أمنية لها إلا أن ترى فرنسا حرة ومملكها متوجاً ، وأن مشتهيات هذه الدنيا كلها لا تجد إلى نفسها سييلاً . وأخيراً فاجأها الملك وفاجأ رجاله من حوله برفع سيفه وإنزاله فى هدوء على كتف جان قائلاً لها : « لقد رفعتك أنت وأهلك وذريتكم من بعدكم إلى رتبة الأشراف جزاء وفاقاً على إخلاصك وعملك العظيم . »

وأصبحت جان بعمل الملك هذا من النبلاء . وكان لعمل الملك دوى هائل شاع فى كل الأوساط فى جميع الأرجاء . أما أثره فى جان فلم يكن بذى بال . ومثلها لا تهمة الألقاب والرتب ، فهذا شأن الطامعين المتطلعين من أهل هذه الدنيا ، الذين يحبون المال حباً جماً ،

و يلبهم الزخرف ، وتستدرجهم متع الحياة . أما جان القروية المؤمنة الخالصة ، فقد خرجت من ديارها تبغى لوطنها فكاكا من أسره ، و خلاصا من ذله ، يدفعها وحى مقدس . فكل ما كانت تطمع فيه أن تتمكن من إنجاز رسالتها ، والقيام بدعوتها ، ثم تعود إلى قريتها مرة أخرى ترعى غنم أبيها ، وتساعد أمها في تدير منزلها .

مضت الأيام والملك في تردده لا يقر قرارا حاسما ، وبدأ الجيش يسأم الانتظار ، ولما قلت مؤنته أخذ أفراده ينفضون عنه ، وأخذت جان ترقب عن كشب ما كان يجري وقد تملكته الحسرة ، وحز في قلبها الألم إذ قدر لها أن ترى جيشها الظافر يتفرق أيدي سبا مع أن مصلحة البلاد كانت تقضى باستخدامه على عجل . ولكن ماذا تعنى مصلحة البلاد عند الخونة من رجال الحاشية ؟ وماذا يعنيه من تفرق الجيش ؟ ! لقد صادف ذلك هوى في قلوبهم ، ولم يزد هم إلا تشبثا بسياساتهم !

كانت مفاوضة الأعداء محور سياسة رجال البلاط ، وقد حسبوا أنهم بالمفاوضة يستطيعون أن يكسبوا ما تكسبه الجيوش والمعارك ، واعتبر هؤلاء القوم أن المفاوضات بين رجال السياسة وأقطابها من أعمال السياسة العليا التي لا تدركها جان ولا تستطيع أن تلم منها بطرف .

وكان مستشارو الملك يرون أنهم لو أمكنهم التفرقة ما بين
دوق برجنديه وحلفائه الانجليز فإنه لا يبقى جندي انجليزى واحد على
أرض فرنسا...! ، وهذا رأى فى ظاهره صحيح ، ولكن عقبات
جسة تحول دون تحقيقه : منها أن دوق برجنديه أكثر دهاء
وأشد مكرًا مما يظنون ، فقد كان بطبيعة الحال ميالا الى الاستقلال
بالسلطة فى بلاده (القسم الشرقى من فرنسا) وما ضم إليها من بلاد
فلاندرز (هولاندا) الغنية . وكان استقلاله يتحقق بتحالفه مع الانجليز
أكثر مما ينتظر تحقيقه إذا ما انضم إلى ملك فرنسا فى محاولته استرداد
عرشه وبلاده . وذلك لأن ملك فرنسا هو السيد الشرعى لدوق
برجنديه على تلك المقاطعة . فعبثًا يظن مستشارو الملك أنهم
يستطيعون التفرقة ما بين الدوق وبين انجلترا . أضف إلى هذا أن
« لا تريمواي » كبير المستشارين كان متصلًا سرا بدوق برجنديه ، وكان
الدوق يرشوه بالمال مكافأة له على مساعيه فى عرقلة حركات الملك
ومعاكسة جان فى أغراضها . ومن ثمة كان لا يمحض الملك النصح فى
حضره على عدم إجابة جان إلى مطلبها .

وانتهز دوق برجنديه فرصة الرغبة فى مفاوضته ، واستغلها لصالحه
بأن سار على قاعدة « فرق تسد » وعمد إلى الاستفادة من الطرفين ،
الانجليزى والفرنسى ، بأن جعل كلا منهما يشعر بحاجته إلى تأييده

ومعاضدته ، لكيما تكون له من وراء ذلك السيادة المطلقة في بلاده مستقلا بها استقلالا تاما عن الملكين ، ملك إنجلترا الجالس على عرش فرنسا بحكم معاهدة تروى ، وملك فرنسا الذى أخذ يسترد ملكه بمعونة جان العذراء . وجريا على هذه الخطة عمل على ارضاء طلاب المفاوضة من الفرنسيين بأن عقدهدنة موقوتة مع الدوفين ، وفي الوقت نفسه احتفظ بصداقته مع دوق بدفورد الوصى على العرش الانجليزى .

وانقضى شهر والمملك وحاشيته في مفاوضاتهم يعمهون ، وجان على أحر من الجمر تسعى لوضع حد لهذه المماطلة وهذا التسويف والأخذ بما كانت تدعو إليه من المبادرة إلى القتال وإجلاء العدو عن أرض الوطن . وكان قلقها يزداد يوما بعد يوم لأنها كانت تعلم أن « رسالتها لا تمتد إلى أكثر من سنة » : هكذا علمت من قديسيها الذين ما فتئوا يذكرونها بالاقدام والسير الى الامام في غير تردد ولا توان .

وفي يوم ضاقت ذرعا بهؤلاء القوم الذين يحيطون بالملك يوسوسون له بأرائهم الفجة غير البريئة وكان الملك في لوش Louches فجاءته ومعها « بستارد أورليان » المعروف ، ودخلت حتى الحجره التي كانوا فيها يتناقشون . وقرعت بابها ، وركعت أمام الملك وأمسكت ركبتيه بيديها وقالت متضرعة « أيها الدوفين النبيل ! لا تضع الوقت سدى في المناقشات العقيمة . وهيا بنا إلى ريمس لكي نلبسك تاجك وتاج آبائك من قبل .

إن « أصواتي » تدعوني إلى التقدم على بركة الله...! »

بأزاء ما فعلته جان تشجع الملك ، وفي ساعة تغلبت فيها حماسته على ترده ، أمر الجيش بالزحف والاستيلاء على المدن التي لا تزال في أيدي الانجليز ، واخلائها من العدو ...

لقد ضاع شهر من الزمان في تردد الملك واستماعه بل خنوعه لمشورة السوء من رجاله . فلما أن نادى منادى الحرب بين الناس ، وتقدمت جان للقيادة ، هرع إليها القوم من كل حدب ، ولبوا دعوتها من كل صوب . وكان أشهر من جاءها شابان من النبلاء من بريتي Brittany هما « جي » و « اندرو » ، ابنا اللورد « لافال » ، ومن الاشراف الذين توارثوا النبيل كبرا عن كابر من أربعة أجيال . جاء الى جان متطوعين لخدمتها ، بعد أن سمعوا بها . وأعجبا بفعالها ، واعترفا بقداستها . وهكذا ذكت جذوة الحرب من جديد ، وقامت جان على ما تراه مفصلا فيما يأتي تصيح بالمدن المحتلة بالعدو صيحتها المشهورة « سلخوا إلى ملك السموات...!! » فلا تلبث أن تجيب الدعاء .

وفي يوم الخميس ٩ يونيه ، أي بعد شهر كامل من يوم أورليان ، بدأ الجيش زحفه وعلى رأسه جان ومن حولها « بستارد » ، أورليان ، ودالنسون ، وكامل حاشيتها ، والشابان من آل « دي لافال » ، قاصدين جار جو Jargeau ، وكانت على مسيرة يومين جنوبي أورليان . وكانت فرقة من

الفرنسيين قد حاولت الاستيلاء على « جارجو » فصمدت لجنودها ،
وقاومتهم حاميتها مقاومة شديدة ، واضطرتهم الى الانسحاب . ولم
تكن جان مع هذه الفرقة حين هجومها . فلما وصل إليها الجيش ،
رأى فريق من القواد أن يفاوضوا سافولك Suffolk قائد المدينة
في تسليمها من غير مقاومة في مقابل ترك الحامية تخرج منها
بسلام . ولكن جان كانت تعلم أن المدد الانجليزي قد خرج من باريس
بقيادة فاستولف Fastolf قاصداً نجدتها ، وأن استعداد سافولك
للمفاوضة لم يكن إلا مراوغة منه لكسب الوقت ، فأمرت باطلاق
المدافع على القلعة فأحدثت فيها ثغرة أمرت جان رجالها بالتقدم إليها
وصعدت درج سلمها ، وفي هذه اللحظة أصابها حجر أوقعها ولكنها
انتفضت قائمة وصاحت « إلى الأمام يارفاقي ! تقدموا إلى الأمام
فالقلعة لنا في هذه الساعة...! » واقتحم الفرنسيون الحصن ، واستولوا
على المدينة عنوة ، وفرت الحامية إلى ناحية الجسر ، ولحق بها الفرنسيون
فذبحوا رجالها وأخذوا « سافولك » نفسه أسيرا .

وعادت جان في مساء ذلك اليوم « ١٢ يونيه » إلى أورليان ظافرة

منصورة

ولم تضع جان وقتا في أورليان ، بل أعلنت رغبتها في التعجيل
بالاستيلاء على مونج Meung الواقعة على النهر شمالي أورليان . ولما أن
وصل الجيش في يوم الثلاثاء ١٤ يونيه إلى أورليان عائدا من جارجو ،

أعلنت جان لدالنسون أنها ترغب في السير غدا نحو مونج ، وطلبت منه أن يأمر بذلك . وفي يوم الخميس ١٦ يونيه استولى الفرنسيون على مونج ومنها سارعت جان بالجيش للاستيلاء على بوجنسى Beaugency البلدة التالية وكان يحتلها الانجليز .

في هذه الأثناء انضم إلى جان القائد الفرنسي المشهور «ريشمونت Richemont» وكان من أعظم نبلاء فرنسا نفوذا ولكنه كان عدواً لدوداً للمستشار لا تريمواي الذي كان كثيراً ما يوقع النبوة بينه وبين الملك ويوغره عليه بل قل يأمره أن يرفض مساعدته، وذلك لاعتقاده أن في قبول الملك «معونة» ريشمونت» وقبوله إياه في حاشيته ضياعاً لنفوذه هو وسيطرته على الملك . ولكن جان دارك رأت ما في قبوله من قوة وأيد لجيش الملك ، فعملت للتغلب على كل معارضة في هذا الشأن فكانت حكيمة في جمع كلمة أبناء الوطن الواحد ، وتأليف ما بين قلوبهم ، وضمهم إلى الملك يزداد بهم منعة ويرتفع بهم شأننا .

وقد كان لقبول جان القائد ريشمونت أثره الفعال ، فإن الحامية الانجليزية في بوجنسى لما علمت بانضمامه إلى جيش جان ملئت رعباً وتركت المدينة خاوية، واعتصمت بالقلعة، ولكنها لم تلبث أن سلمت .! وفي يوم الجمعة من ذلك الأسبوع وفيه ثمل الفرنسيون بخمرة النصر يتلوه النصر ، جاءهم الأبناء بأن القائد الانجليزي «تالبوت»

قادم لنجدة بوجنسى ، ولم يكن قد علم بسقوطها في أيدي الفرنسيين ،
وأنه قد أصبح على مسيرة يوم من المدينة .

وكان اسم «تالبوت» وحده كافيا لالقاء الرعب في قلوب كثير من
الفرنسيين فان هؤلاء المساكين قد درجوا على التقهقر والانكسار
أمام الانجليز ، ونشأت أجيالهم الأخيرة في ظل الهزيمة لا يسمعون إلا
عن «كرسى» و «بواتيه» و «اجنكورت» حيث كانت تذبح الجنود
الفرنسية ذبح الخراف ، والسعيد منهم من كان يسلم ساقيه للريح إذا شام
العدو أو شم رائحة الطعن والنزال وكان تالبوت هو القائد الذي
طبع بفظائعه في أذهان الفرنسيين صورة مروعة لم يمحها من أذهانهم
تطورات الحرب الأخيرة من يوم ظهور جان . هؤلاء الذين جاتهم
«قديسة من السماء» تؤيدهم ، وتتقدمهم في الحرب ، وتتلقى عنهم الصدمات
الاولى بصدرها الجائش وإيمانها المكين ، والذين إنتصروا نصرهم على
تالبوت هذا في أورليان وانتصروا أخيرا في جارجو ومونج و بوجنسى ،
واعقلوا قوادا من الانجليز أسرى وراهم ، هؤلاء هم الذين لما سمعوا
بقدم تالبوت بجيشه فكر فريق منهم في أن يرتدوا متقهقرين إيثارا
لعدم الاشتباك معه في قتال ... !! بس ما يفعل الذل بالنفوس !

أما جان ، والله در جان ، فقد هزأت بحال المترددين وظفقت
تبت فيهم روح الشجاعة والاقدام قائمة لهم : « علينا أن نحاربهم ... !
ولو تعلقوا بأهداب السحاب لوجب علينا أن نجرهم منها ... ! »

وفي مساء ذلك اليوم كانت جان وجيشها على ربوة صغيرة تستعد للغد ، وكانت القوات الانجليزية قد وصلت على مقربة من مكان الفرنسيين ، ولكن الطرفين لم ير بعضهما بعضا لتكاثف الغابات والاحراج في تلك الناحية . وقبل أن يرخي الليل سدوله جاءت رسل الانجليز بعد أن تبينت مكان الفرنسيين تعرض عليهم حلا يوفر على الفريقين ويلاط الحرب وفجائع القتال . وذلك أن يخرج ثلاثة من فرسان الانجليز لمثلهم من فرسان الفرنسيين وأن يجرى القتال بين الفريقين وتكون الغلبة لمن ينتصر فريقه؟! ولكن جان كلفت ، من أبلغ الرسل أن يعودوا إلى جيشهم وأن ينتظروا ما يجرى به القدر في الغد .

وفي هذه الليلة التفتت جان إلى رفاقها وسألتهن :

— أليكن مغامير جيدة ؟

فاجابوا — أتطلبينها للهرب ؟

— كلا ! بل أطلبها للبطاردة ... !

وقد تحققت نبوءة جان ففي صباح اليوم التالي كان تالبوت وفاستولف في طريقهم إلى باريس مرتدين!! وكان الله أراد أن يضرب مثلا للجبناء من رفاق جان فأوقع الرعب في قلوب الانجليز وعلى رأسهم تالبوت الفظيع وجعلهم يرتدون وليست تعرف علة ارتدادهم على التحقيق ،

ولعلمهم بعد أن علموا بسقوط بوجنسى وجدوا الأمان من الهزيمة
فأثروا التقهقر إلى مكان حصين .

أما جان فقد زحفت في أثر الانجليز فلم تقف لهم على أثر . فواصلت
الزحف حتى رأت أمامها كنيسة مدينة « بتاي Patay » وهي مدينة
صغيرة . ومن العجب أن الانجليز كانوا طيلة مدة السير على مقربة
من الفرنسيين ، ولكن هؤلاء لم يهتدوا إليهم . ولما أحس الانجليز
بمطاردة الفرنسيين لهم اتقى « تالبوت » قوة من خيرة رماة السهام وأمرهم
أن يختفوا وراء الأجمة حتى إذا رأوا العدو أمطروه وابلا من سهامهم ،
وكانوا في الرماية من ذوى الخبرة المتفوقين .

وصادفت طلائع الفرنسيين غزالا في مكمنه فانزعج وفر أمامهم ،
وجاء إلى معسكر الانجليز الرماة فقابلوه بصياحهم المعهود إذا ما وجدوا
صيда ، فتبين الفرنسيون مكانهم من الصياح ، وكانوا من قبل يجهلون
أنهم على مثل هذه المسافة القريبة من عدوهم الذى يطاردونه . وفي
الحال عادت الطلائع الفرنسية تنبئ قومها بما حدث ، فسلكت القوى
الفرنسية عدة طرق ، وانقضوا على هؤلاء الرماة حتى أبادوهم . وجاء
جيش فاستولف لنجدة الرماة ، ولكن الفرنسيين انقضوا عليهم كذلك
حتى أفنؤهم عن آخرهم . وكان ذلك يوم السبت ١٨ يونيه ، وتلك هى
الموقعة الشهيرة المعروفة بموقعة « بتاي » . وترجع شهرتها إلى أنها
كانت أول موقعة تقابل فيها الفرنسيون والانجليز وجها لوجه في

ميدان مكشوف . . . خسر فيها الانجليز خسائر فادحة ، وهلكت فيها
زهرة جيشهم ، ووقع «تالبوت» نفسه أسيرا وكان نصر الفرنسيين حاسما
وفي الواقع ان في «بتاي» ولدت فرنسا جديدة...!
ومن غريب المصادفات أنه لما هزم الفرنسيون في موقعة «فرني» قبل
ذلك بخمس سنوات ، كان تالبوت هذا نفسه هو الذي أسر الدوق
دالنسرن ، وهو اليوم رئيس أركان حرب جان ، ولم يطلق سراحه إلا
بعد أن دفع فدية كبيرة وعاني آلاما شديدة . فلما جاءوا هذه
المرّة بتالبوت أسيرا أمام دالنسون بعد موقعة «بتاي» بالغ في إحترامه
وأطلق سراحه بعد مدة وجيزة وبدون فدية !! وكان هذا غاية لكرم
الفرسان في ذلك العهد . . .

وفي مدة لا تتجاوز يوماً وليلة كان خبر إنتصار الفرنسيين في
«بتاي» قد ذاع وعم فرنسا كلها ، فطارت قلوب أهلها فرحا ، ورقصت
طرباً ، إذ غسلت «بتاي» عار «كرسي» و«بواتيه» و«اجنكورت»
وقفلت جان ومعها رجالها والقائد «ريتشمونت» إلى أورليان ،
ومعها أسرى الحرب ومن بينهم تالبوت . ولا تسئل عن فرح
أورليان وعن مهر جاناتها وعن أنوارها في هذا اليوم العظيم . حدث
عنها ولا حرج ، إذ لا يمكن لو اصف مهما أوتي من القدرة أن يصف ابتهاج
المدينة ونفخارها...! «تالبوت» الذي كان يحاصرهم بالأمس وكان اسمه
كافيا لالقاء الرعب في قلوبهم ، يدخل المدينة أسيراً مقهوراً ؟ ! لقد
جن أهل أورليان من الفرح ، ولهم العذر في «جنونهم» .

آن للملك الآن أن يقصد إلى « ريمس » لتتويجه ؟ ! تلك كانت النعمة التي تتردد على السنة الخلق جمعياً . ولكن الحاشية — والحاشية دائماً — كانت لاتزال مترددة في السير بالملك إلى « ريمس » بحجة ان بلادا حصينة فيما بين « بتاي » و « ريمس » لاتزال في أيدي البرجندين حلفاء الانجليز . وكان أشهر هذه المدائن « أوكسير » و « تروى » و « شالون » و « ريمس » نفسها فقد كانت ذات أسوار وقلاع كثيرة . وقد احتجت الحاشية أيضاً بأنه لا يوجد لديها المؤونة ولا المال الكافي لرحلة تخرق نحو مائة فرسخ . تلك كانت حجة الحاشية في الاحجام عن السير نحو ريمس ، بعد كل هذه الانتصارات الباهرة .

وإذا قلنا الحاشية عيننا دائماً لاتريمواى المعروف ... !

وكانت أورليان قد دعت الملك إليها ليشهد احتفالها بالنصر ، وقدم جان إليها ، وأعدت المدينة له استقبالا فخماً ولكنه لم يحضر وذهب مع « لاتريمواى » إلى قلعة في صلي سير لوار Sully Sur Loire

ولما لم تجد جان الملك في أورليان ، وكانت قد وعدت « ريشمونت » أن تصلح ما بينه وبين الملك ، سارت به إلى « صلي » حيث الملك وقدمته إليه ، وأزالت ما كان بينهما من نفور وجفاء . وهذا العمل كما اشرنا آنفا دليل على حكمة وحنكة وسلامة في التقدير يتبين مقدارها كل من يعرف قداسة الوحدة الوطنية . والذين يعرفون تاريخ فرنسا بعدموت

جان يعلمون أن « ريشمونت » هذا كان هو القائد الذي أتم عملها وأخرج الانجليز من بقية البلاد التي كانت في حوزتهم بعد وفاتها . فكأنها وهي تصلح ما بينه وبين الملك ، كانت تعرف ما يدخره المستقبل للقائد العظيم من عمل جليل في سبيل إتمام وحدة الوطن المقدسة وبعد تقديم ريشمونت للملك ، عمدت جان إلى إزالة مخاوفه من السير إلى « ريمس » لأنه كان قد أستمع لاستشاره الخبيث وهو يخيفه من قلاع الانجائز التي تسد الطرق اليها وقد تمكنت جان من اقناع الملك بان القلاع الانجائزية لم تعد ذات أهمية بعد انتصارات اللوار التي مر ذكرها . وفي الواقع أن السير إلى ريمس كان عبارة عن « نزهة خلوية » وكانت جان متحقة من ضعف القوى الانجائزية وفقدانها الروح المعنوي حتى أنها لم تأخذ المدفعية معها في سيرها .

بدأت الرحلة إلى ريمس بمدينة «جين Gien» وبلغ عدد الجيش الذي خرج منها اثني عشر ألف مقاتل ، وكان خروجه في ٢٩ يونيه وركبت جان بجوار الملك . وركب دوق دالنسون على الجانب الآخر ، وتبعهم ثلاثة من الأمراء ، وجاء بعدهم « بستارد أورليان » وغيره من القواد والمستشارين والنبلاء والفرسان . واستراحوا ثلاثة أيام عند أو كسير ومنها أخذوا مؤتمهم ، وجاءهم وفد من سكانها يلتمس من الملك دخول المدينة ولكنه لم يرضورة لدخولها . ومنها تقدموا إلى سنت فلورنتان Saint-Florentin التي فتحت أبوابها للملك . وفي يوم ٤ يوليه وصلوا

إلى سنت فال Saint Val وعلى مقربة منها كانت مدينة « تروى » الشهيرة التي عقدت فيها المعاهدة التي أضاعت فرنسا، وكانت محصنة تحصيناً منيعاً تحميها الجنود الانجليزية والبرجندية وفي انتظار مدد جديد من باريس .

وأرسلت جان الى حامية « تروى » تدعوها إلى التسليم . فرد عليها قومندان الحامية رداً خشناً هزأ بها فيه ، ولعله تشجع واستكبر لأنه لم ير مع جان مدفعية تستطيع بها دك الأسوار . ومضت خمسة أيام والمفاوضات دائرة بين الفريقين بغير جدوى . ولما رأى الملك ذلك هم بالعودة والنكوص عن ريمس (وياله من ملك شجاع !) ولكنه حين سأل جان رأيها في الموقف أجابته بلا تردد « سندخل المدينة بعد ثلاثة أيام » . وهنا تدخل لا تريمواى قائلاً « لو كنت واثقة من قولك فنحن نستطيع أن نمكث ستة أيام لا ثلاثة .. ! » فردت جان في الحال متهمكة « ستة أيام كاملة ؟ ! إننا سندخلها غداً باذن الله . » ثم ركبت جوادها واخترقت الصفوف تدعو القواد والجنود للاستعداد للهجوم على المدينة عند الفجر ، وفي الميعاد المحدد تصدرت جان القوة وأذنت في النفير تدعو إلى الهجوم . وفي هذه اللحظة رفعت المدينة راية الهدنة وسلمت « تروى » من غير قذيفة واحدة . وفي اليوم التالي دخلها الملك ظافراً منصوراً . واستأنفت جان السير . وكانت « شالون Chalon » المدينة التالية فسلمت بلا قتال ، ومنها سار الجيش دون أن يعترضه

معرض إلى أن صار الجمع على مقربة من «ريمس» وكانت منارات
كنيستها أول ما أخذ الأَبصار، فارتفعت هتافات الجيش تشق الفضاء
حتى بلغت عنان السماء. وكان ذلك في ١٦ يولييه. وعسكر الجيش
خارج المدينة، وأما الحامية الانجليزية البرجندية التي كانت في «ريمس»
فقد غادرتها عند ما اقتربت جان وجيشها من المدينة من غير حرب أو
جدال، وكفوا أنفسهم شر القتال.

ولا تسل عن هزة الفرع التي شملت «ريمس» عند اقتراب
الفرنسيين منها، فقد هبت في الحال تقيم الزينات، وترفع الأعلام
والرايات، وتنصب أقواس النصر، وتزين الكنيسة الكبرى من
الداخل والخارج استعداداً لاستقبال الملك وجان دارك.

وهكذا انتهت «النزهة الخلوية» وهو الاسم الذي يطلقه المؤرخون
على زحف الجيش الفرنسي على ريمس. مائة فرسخ فيها المدن المسورة
الحصينة والحاميات المسلحة تسلم جميعاً من غير حاجة إلى إراقة الدماء.
ألا يدل ذلك هذا على مبلغ ما أصاب الانجليز والبرجنديين من فزع
وخور أمام اسم جان دارك!؟ وأين هذه الحال من تلك التي كان
فيها ظهور الجند الانجليزي في الميدان كافياً وحده لكسب المعركة من
الفرنسيين الذين كانوا يولون الأدبار ويركضون إلى الفرار!؟ غير
الفرنسيون ما بأنفسهم فغير الله ما بهم. ردت جان الثقة إلى نفوسهم

و بمحض إيمانها أقامت لهم أدلة قدرتها على التغلب على كل عقبة مهما صعبت، ولو كانت العقبات شقة بعيدة أو أنهاراً جارياً أو حصوناً قائمة أو مدناً مسورة أو رماحاً مشرعة .

الآن أصبحت جان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق رغبتها وإتمام رسالتها . ففي الصباح الباكر ستدخل ريمس ظافرة منصوره ، وستتوج الملك وتمسح على رأسه بالزيت المقدس . . . !

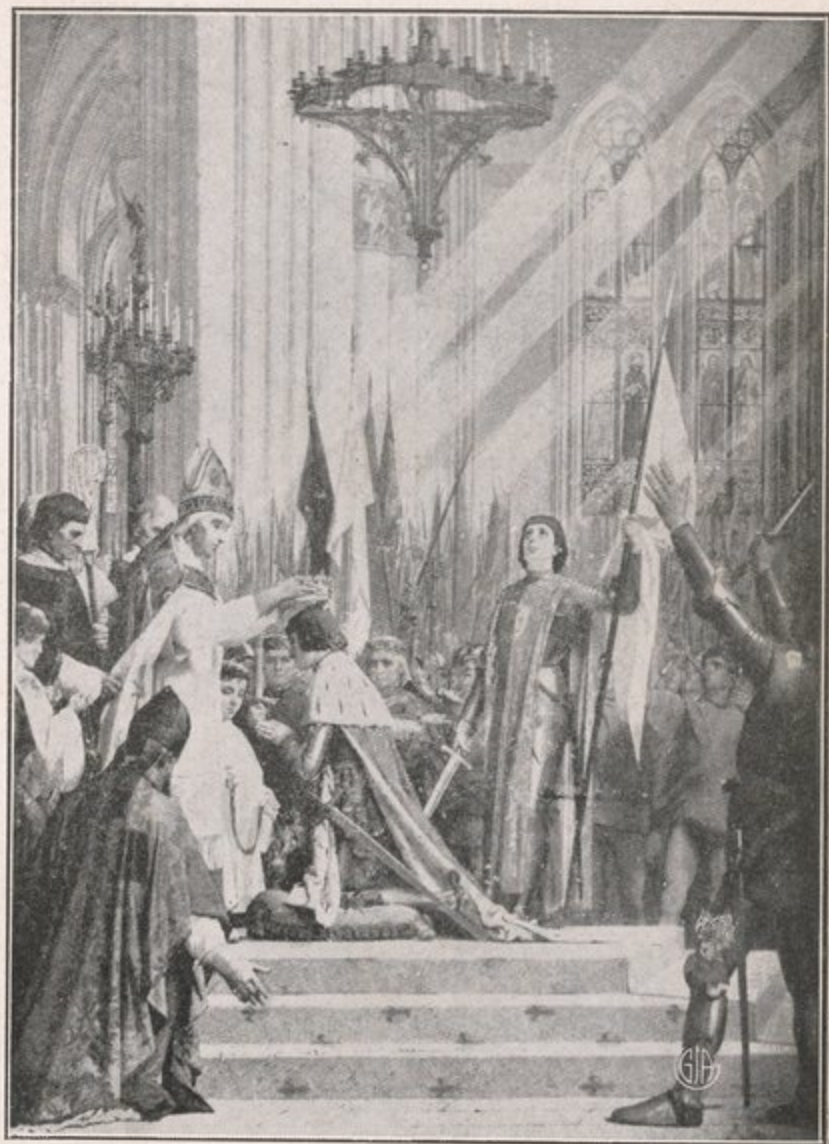
تري ، أيتها القارىء ، ألم تسائل نفسك عن السر في اهتمام جان وإلحاحها في وجوب تتويج الملك ؟ وتتويجه في المكان الذي توجت فيه كل ملوك فرنسا من قبل ؟ ولماذا جعل تتويج الملك في ريمس نهاية رسالة جان ؟

إن تتويج الملك شارل السابع في ريمس كان أعظم عمل سياسي قامت به جان دارك . ولن تجد لأهميته حداً . وعليك أن تدرس عقلية الشعب الفرنسي في ذلك العهد وأن تدرس عقيدته الدينية لكي تدرك تمام الإدراك قيمة إلحاح جان في الإسراع بتتويج الملك . إن الشعب لم يحفل باتهام أمه له بأنه ليس ابناً شرعياً ، لأنه كان يعلم فساد خلق تلك المرأة . وإنما اهتم الشعب ، وأقصد بالشعب طبقة العامة وهي السواد الأعظم ، بأن الملك لم يتوج بالتتويج الشرعي ، ولم يمسح على رأسه بالزيت المقدس ، فهو لم يزل قبل أن يتم له هذا ملكاً غير شرعي .

وما دامت شرعيته معلقة فأن تأييده من جانب الشعب يكون فائراً أو
معدوماً . وهل يمكن أن يدوم مُلْكُ لا يؤيده الشعب ؟ لهذا السبب
قدّرت جان وهي الفتاة القروية الخارجة من صميم الشعب ، والناشئة
في أحضان عقائده وميوله ، أهمية التتويج للملك وللمملكة . فإذا ما توج
الملك وزال كل شك في شرعيته ، أصبح عرشه قائماً على دعائم متينة
من حب الشعب وإخلاصه ، وأصبح شرف الملك موصولاً بشرف
الشعب ، ووجب عليه الذود عنه وافتدائه بالأموال والمهج . ومتى
تم ذلك لم يعد لجان من شأن ، ولا لدعوتها من داع . لهذا كان
التتويج ختام رسالتها . إذ بعده ينتقل واجب الدفاع عن الملك إلى
شعبه جميعاً لا إلى فرد بعينه من أفرادِه .



THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY



تتويج شارل السابع في كاتدرائية ريمس

التتويج في ريمس

إذن كان للتتويج أهميته الكبرى. وكان انتصارا سياسياً حاسماً لجان دارك من جهة ، ولفرنسا المجاهدة ضد الغاصب من جهة أخرى .
وإليك وصف ما حدث قبل التتويج وبعده :

لما عسكر الفرنسيون خارج ريمس جاءتهم وفود المدينة تترى . وكان أول وفد جاء يرحب بالملك عظماء المدينة وعلى رأسهم رئيس الأساقفة . وتبعته وفود أخرى كثيرة جاءت تحمل الاعلام والرايات ، وتعزف بالموسيقى وتنشد الاناشيد في فرح شامل وسرور فياض . وبشر تطفح به الوجوه وتنطق به الاسارير ، وكانت حركة الاستعداد لاستقبال الملك داخل المدينة على قدم وساق .

وفي الوقت المناسب ، في الصباح التالي ، تحركت مواكب الجيش قاصدة إلى « ريمس » ، وتقدمت جان على جوادها الأكل ومن حولها دوق فالنس ورجالها الآخرون ، تستعرض الجيش وتستعرضه للمرة الأخيرة في حياتها ! (ألم يكن الجميع على يقين من أن التتويج هو ختام رسالة جان ؟) . حقا كان هذا آخر استعراض جان لجيشها المحبوب الذي أحبته وأحبها ، ورفعت عنه عار الهزيمة ومحت عنه وصمة الجبن التي لازمته طيلة السنين الاخيرة . فلا إسراف إذن إذا قلنا إن الجيش كان ينظر الى جان نظره الى « قديسة هبطت من السماء » لتخلص

فرنسا من مهاوى الفناء ، ولتبعثها من جديد تقوم بدورها الذى خلقت له بين العالمين .

مرّ الجيش أمام جان لا كما مر أمامها فى المرات السابقة ، بعد انتصاراته الباهرة ، هاتفا ، رافع الرأس ، وامض اللحظ ، منشداً أناشيد الظفر ، بين بريق الأسلحة وعزف الموسيقى ، بل مر فى هذه المرة وهو يشعر بأنه يودع قائده المقدس الوداع الأخير . مر الجند وكأن على رؤوسهم الطير وهم فى تأثر بالغ أقصى الحد ! تحسبهم من شدة التأثر كأنهم فى مدينة أموات ! وتلك أشباح تتحرك ، وترفع يمانها بالتحية ، وتبادل مع قائدها العظيم نظرات حزينه تكاد تنطق ... « باركك الله . والوداع الوداع أيها القائد المحبوب ... ! » .

وبعد ذلك ركبت جان إلى حيث نزل الملك ، وكان قد نزل فى قصر رئيس الأساقفة الخلوى ، وأسرعت جان فى صحبته إلى أن سارا فى مقدمة الجيش .

وفى هذه الاثناء كان أهل القرى المجاورة يهرعون إلى الطريق التى ستمر منها جان والملك ، وكانت جموعهم الكثيفة تبدو فى أبهج منظر وقعت عليه العين ، فقد جاءوا جميعاً فى ثياب بيض وحمرة ، فى اتساق جميل ، وهندام بديع ، فكان السائر فى الطريق كأنما يتمادى بين صفين عظيمين من « أزاهير الخشخاش والزنبق ... !! » جاء الكل لى يروا جان معبودتهم التى سمعوا عن أفعالها الاعاجيب . وكانت جان

قد ألفت هذا المنظر فما من قرية عاجت بها . أو مدينة نزلت فيها ، إلا خرج أهلها سراعاً وانتظموا صفوفاً يهتفون ويجهرون بالدعاء كلما مرت بهم أو أهلت عليهم . وقد دون معاصروها في شهادتهم أن الجموع التي كانت تمر بها جان في كل مكان ، كانت ترقع لها وتنحن أمامها خاشعة متبتلة وقد اعتبرت المحكمة التي نظرت قضيتها هذا العمل من الناس تأثراً بسحرها واتخذته قرينة ضدها .

وكلما اقترب الموكب من «ريمس» تجلت بروجها وأسوارها ، وما عليها من زينة فائقة ، وبنود خافقة ، وما فوقها من كتل بشرية مترابطة ودخلت جان والملك المدينة من أبوابها . فتلقاهما الأهلون في طرقاتها حتى إذا ضاقت بهم ازدحموا في النوافذ وعلى السطوح وفي كل موضع لقدم انسان ، عالياً كان ذلك الموضع أو منخفضاً . وكنت ترى على كل شرفة في دار وعلى كل نافذة البيارق والأعلام تخفق ، والمطارف البهيجة الألوان ترفرف ! ولو قلت إن «ريمس» على بكرة أبيها ، وجميع المخلوقات التي فيها . قد اشتركت في استقبال جان والملك ، فانك لا تعدو الواقع وحملت الجماهير أنواطاً نقشت عليها صورة جان واتخذوها تعاويذ تقيهم الشر وتجلب لهم الخير وكذلك أدخلت الكنيسة اسم جان في صلواتها . وكان هذا الشرف إلى ذلك الوقت مقصوراً على الملوك ذوي التيجان .

ونزلت جان والملك في قصر رئيس الأساقفة . ثم شرعا في الحال
في إعداد لوازم التتويج ، وألزم ما كان يلزم له قارورة الزيت المقدس
الموجودة في كنيسة دير القديس ريمي Remi ، فأرسل الملك في طلبها
وكان لاحضارها طقوس ورسوم لا تسلم بدونها . ذلك أنه كان
مشروطاً لاحضارها أن يندب الملك خمسة من النبلاء ، يرتدون ثيابا
فاخرة ويتدرعون بأنواع الأسلحة المعروفة وكذلك تزين الخيل التي
يمتطونها ثم يقصدون في موكب إلى الدير كحرس رسمي لرئيس أساقفة
« ريمس » وقساوسته الذين يكونون في آخر ملابسهم الكنيسية
ويحملون جميعاً طلب الملك للزيت . وكان على هؤلاء النبلاء قبل أن
يتحرك الموكب نحو الدير ، أن يقسموا جهد أيمانهم ، أن يحافظوا على
قارورة الزيت في الذهاب إلى مكان التتويج ، وفي العودة منه بعد
الانتهاء . وعندما يصل الموكب إلى باب كنيسة القديس « ريمي St Remi »
يقفون جميعاً في انتظار القارورة المقدسة . وبعد قليل تسمع الأناشيد
آتية من بعيد ثم تقترب شيئاً فشيئاً إلى أن يظهر رتل طويل من
رجال الدير ، وفي الطليعة كبيرهم ، في ملابس الكهنوتية ، يحمل
القارورة ، ويسلمها في مهابة إلى رئيس الأساقفة . وعند تسلمها يعود
الموكب جارياً في إيابه على نحو نظامه في الذهاب ويتوجه إلى
الكاتدرائية الكبرى حيث يجري مراسم التتويج . ويمر الموكب في

ذهابه وإيابه بين صفيين من جموع الشعب رجالا ونساء وهم سجدوا مكبون على وجوههم يصلون في صمت عميق كرامة وهيبة لتلك القارورة المقدسة.

أتدري السر في كل هذا ؟

السر أن هؤلاء القوم جميعاً كانوا يعتقدون أن الزيت والقارورة التي تحويه من صنع الله !!! وأنها أرسلت من السماء مع طائر إلى القديس ريمي في الساعة التي قام فيها لتتويج الزعيم « كلوفس Clovis » ملكاً على فرنسا من منذ تسعمائة عام. هكذا كانوا يعتقدون... ومن بعد كلوفس كان ملوك فرنسا جميعاً « يكرسون » أي يدهنون عند تتويجهم بهذا الزيت المقدس الذي سلمه القديس لخلفائه من بعده لكي يتوجوا الملوك به. وما كان يصح تتويج الملك شرعاً إلا إذا مسح على رأسه من هذا الزيت المقدس ! أفهمت إذن السر في الاهتمام بأمر هذا الزيت؟ ولماذا حرصت جان الحرص كله على تتويج الملك وتكريسه به؟ وأخيراً أفهمت الحكمة السياسية السامية في التتويج وجعله ختام رسالة جان . . ؟

وعند ما وصل موكب القارورة المقدسة إلى باب الكنيسة الكبرى التي سيجرى فيها التتويج ، ودخل منه رئيس الأساقفة ، أنشد الجمع الحاشد أنشودة دينية ، وكانت الكنيسة مزدحمة بالناس ، وترك في وسطهم مكان خال ، دخل إليه رئيس الأساقفة وقسسه ، يتبعهم الخمسة

النبلاء في زيهم البديع ، يمتطون صهوات جيادهم . وقد وصلوا راكبين إلى مقربة من صدر الكنيسة ، وهناك أمرهم رئيس الأساقفة أن ينصرفوا ، وعند إشارته لهم بذلك انحنوا احتراماً حتى مست رباش قبعاتهم رقاب الجياد ، وتراجعوا إلى الورا حتى الباب ثم انصرفوا . . .
ومرت بضع دقائق والجمع الحاشد في الكنيسة صامت ساكن كأن على رؤوسه الطير . وبعد ذلك دقت الطبول دفعة واحدة ، وشوهدت جان والملك يقبلان في خطى هادئة ، ولا تسل عن انفجار الجمع بالهتاف ، وعزف الموسيقى ، وارتفاع الحناجر بالأناشيد . . .!!! وكان من خلف جان والملك الأمراء والنبلاء والقواد العظام . ولما وصل الملك إلى المكان المعد للتسوية بدأت مراسم الاحتفال ، وكانت طويلة نفحة ، من صلوات وأناشيد وخطب وغير ذلك من المظاهر الكنيسية . ووقفت جان إلى جانب الملك طول المدة وعلها منشور في يدها . وفي النهاية أقسم الملك اليمين القانونية ، ومسح بالزيت المقدس ، وتقدم إليه حامل التاج وركع أمامه فتناوله الملك بكلتا يديه ووضع على رأسه .

وفي هذه اللحظة ضج المكان ضجيجاً يصعب وصفه ، فالدنيا تجيش بالهتاف والصياح والترانيم ، وكل هذا مقرون بنغمات الموسيقى العالية وصلصلة النواقيس الرنانة .

وهاهي قد صحت الأحلام ، وتحققت النبوءة نبوءة القروية الساذجة

جان دارك ! فانكسرت شوكة الانجليز ، وتوج ولى العهد الشرعى ملكا على فرنسا .

ولا حاجة إلى التوكيد أن جان كانت أسعد مخلوقة في تلك اللحظة التى تحققت فيها رسالتها . وتقدمت جان بين يدى الملك ، والآن نقول الملك بحق ، وكذلك قالت جان ولم تقل « الدوفين » ، ولن تقولها مرة أخرى ! ثم ركعت أمامه والدموع تسيل من مآقيها ، وشفتهاها ترتجفان لا من اضطراب ولكن من فرط ما تولاهما من الفرح ، وقالت له فى عبارة هادئة وصوت خفيض متهدج :

« الآن أيها الملك الرحيم ، تمت رسالة ربى أن تجىء إلى ريمس ،
« وتلبس التاج الذى هو لك بحق وليس لأحد سواك . ولقد أنجزت ،
« ما نذبت له من عمل . فألتبس منك أن ترضى عني وأن تسمح لى ،
« بالعودة إلى أمى أواسيها فهى عجوز ومحتاجة الى »

فتقدم اليها الملك وأنهضها ، ثم شكر لها عملها المجيد فى عبارات سامية ،
ثم أيد انعامه عليها برفعها الى مصاف الأشراف وما منحها من رتب
وألقاب ثم قال « لقد أنقذت التاج فتكلمى وتمنى ما تشائين فانى
معطيك كل ما تطلينه ولو كان فيه فقر المملكة بأسرها ... ! »

وعندئذ جثت جان بين يديه ثانية ثم قالت :

« لو شاء جلاله الملك الرحيم أصدر أمره الكريم باعفاء قريتى

دومريمي التي أفقرتها الحرب من دفع الضرائب .

— « لك ما تريدن »

— « ثم ماذا ؟ »

— « هذا كل ما أريده يا مولاي . . . »

ولم يستطع الملك على كثرة محاولاته أن يجعلها تطلب أكثر من هذا ! وكانت دهشة الملك عظيمة . . . ثم أخذ يتمم كأنما يتحدث الى نفسه « لقد ربحت مملكة عظيمة ، وتوجت ملكها وكل ما التمسته هو هذا الشيء الزهيد ! وليست لها فيه منفعة ذاتية ، بل طلبته من أجل آخرين حقا هذه هي القناعة التي تتناسب مع عظمتها وعظمة ما قدمت لبلادها من عمل . . ! » ثم أصدر أمرا رسميا باعفاء « دومريمي » من الضرائب مدى الحياة . وبقي أمره محترما نافذا الى أن جاءت الثورة الفرنسية التي قلبت الأنظمة كلها في فرنسا .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر تمت احتفالات التتويج وخرج الملك وجان من الكنيسة على رأس الموكب وسط الهتاف البالغ عنان السماء . وهكذا انتهى ثالث يوم من أيام جان دارك العظيمة . وكان الأول على مايد كركارى يوم ٨ مايو . والثاني يوم ١٨ يونيه ، والثالث يوم ١٧ يوليه . أى يوم رفع الحصار عن أورليان ، ويوم واقعة « بتاي » ويوم التتويج في « ريمس » ثلاثة أيام غراء محجلة ، خالدة على الدهر باقية !!

طريق التضحية

التمست جان من الملك بعد الانتهاء من مراسم التتويج مباشرة أن
يأذن لها في العودة إلى أمها وقريتها .

ولكنها لم تعد !

ولم تر والدتها وقريتها بعد أن غادرتهما أول مرة !

ترى ما السبب ؟ !

ولماذا لم تعد جان إلى قريتها تستأنف فيها حياة الهدوء وراحة

الضمير ؟

نعم ! لماذا لم تعد حتى كانت توفر على الانسانية ما عانتها من مرارة

من جراء ما نزل بها من شدة وما أصابها من هول ؟ !

لقد أتمت رسالتها ، وأنقذت وطنها ، وكسرت شوكة العدو

الغاصب ، وبلغت من النصر ذروته ، وكسبت من الفخر أقصى غاياته

ونعود فنكرر التساؤل لماذا لم توب جان إلى قريتها ؟ !

لم يكشف السر في عدم عودة جان إلى قريتها بعد إتمام رسالتها

على وجه اليقين أبداً . وذهب المؤرخون في تأويل ذلك مذاهب

شتى . وعللوه بأسباب ترجع كلها إلى اجتهاد المؤرخين في الاستنباط

أكثر مما ترجع الى حقائق تاريخية أو حوادث معلومة .

علل البعض بقاءها بعوامل نفسية ، والعوامل النفسية لا تدون ولا تحملها صفحات التاريخ . وذهب البعض إلى أن الملك هو الذي استبقاها لكي تتم عملها الحربي ، ولكي تطارد الانجليز إلى النهاية ، وإلى أن يجلو آخر جندي لهم عن أرض الوطن . وعارض هذا الرأي فريق آخر من المؤرخين بحجة أن الملك وهو من الضعف الجثماني والخلفي بمقدار ما نعلم ، كان لا يزال واقعا تحت نفوذ لا تريمواي مستشاره الأول ورينولت دي شارتر رئيس الأُساقفة . وهذان الكيران كانا يكرهان جان رغم ما قامت به من جلائل الأعمال ، لأن وجودها أكبر هادم لنفوذهم وفاضح لدسائسهم . يدل ذلك على هذا وقوفهم لها بالمرصاد ، وتعقب حركاتها وسكناتها بقصد إحباطها والعمل على فشلها على النحو الذي تقدم لك بيانه .

تلك كانت ظروف الحال مع رجال الحاشية . فكيف يعقل أن يكون الملك هو الذي استبقاها ؟

ويرجح البعض أن جان وإن كانت قد أتمت رسالتها إلا أنها عادت فأحست أن الغرض الأسمى من عملها لم يتحقق بعد... لأن الانجليز كانوا لا يزالون يحتلون باريس عاصمة المملكة وما حوالها ، ولا شك أن جان كانت تعلم أن من يحتل عاصمة قطر من الأقطار يعتبر مالكا له حتى يضطر إلى الجلاء عنه... فلا غرابة إذن في عودة جان للعمل الوطني من

متابعة للعدو ومطاردةٍ له حتى تطهر البلاد منه ومن عدوانه عليها .

والواقع أن العقل لا يصدق أن فتاة في سن السابعة عشرة ،
تمكّنها ظروفها ، وحسن طالعها ، من تولى قيادة جيش
بلادها ، والسير به من نصر إلى نصر ، والتمتع بلذة الظفر على الأعداء
في مختلف الميادين ، من سياسة ، ودينية ، وحرية ، تقبل بعد كل هذا
أن تعود الى قريتها لكي تعيش فيها عيشتها الفاترة الخاملة .

ولا يعدو في نظرنا ما قالته للملك ، بعد الانتهاء من تنويجه ، في
شأن عودتها الى أمها وقريتها ، أن يكون فيضا من فيوض النفس
البشرية . يتملكها عند نشوة النصر وتحقيق الأمنية ، ثم لا تلبث أن
تعود الى طبيعتها الأولى ... وطبيعة جان كانت تقضى عليها بمواصلة
الجهاد ما بقى العدو على أرض الوطن . مواصلة الجهاد ، ومطاردة
العدو الى النهاية ، ودخول الملك باريس عاصمة المملكة ، هي الأغراض
التي تستهوى لب مجاهدة بطلة بجان دارك ... ! أما العودة الى الريف ،
والى ظل الشجرة ، والى رعى الغنم . ومعاودة التطريز . فكلها أمور
ما كان يمكن أن تجد لها في هوى جان حيزا تشغله ، أو فراغا تملؤه
بعد كل الذي جرى لها من المخاطر والمغامرات . وما خاضته من
الصعاب .

وسواء أكان هذا أم ذلك من الأسباب هو الذي استبقاها . فقد بقيت حتى يقضى الله أمره فيها .

ويحسن أن نشير هنا الى أن رسالة جان التي أوحى بها القديسون اليها كانت - كما ظلت ترددها الفينة بعد الأخرى - تنحصر في ذهابها الى الدوفين (Dauphin) وانقاذ أورليان . ثم تتويج الملك في « ريمس » . ! لم تزد رسالتها المقدسة على هذا الحد . ولم تتجاوز تلك الغايات . وكانت جان تردد أيضا أن المهلة التي منحتها لتم رسالتها فيها لا تتجاوز السنة الواحدة . ومن ثم كانت قلقة كلما قامت في سبيلها العراقيل أو تلكأ ولى العهد في السير طبقا لخططها أو تردد في إنفاذ رأيها

وكذلك تحسن الإشارة الى أن جان لم تستشر « أصواتها » في أمر بقائها بعد التتويج أو عودتها الى سيرتها الأولى . وهي التي ما كانت تبرم أمرا إلا بعد أن ترجع الى « أصواتها » فيه . ترى جاء ذلك منها عفواً أم قصداً ؟ هذا سؤال لا يستطيع مخلوق أن يعرف وجه الصواب فيه . وكل ما يمكن ذكره في هذه الناحية هو أن عدم استشارة جان « للأصوات » في أمر البقاء أو العودة ليس معناه البتة قطع صلاتها بها .. فقد استمرت الأصوات حتى آخر نسمة في حياتها تناديها كلما أعوزتها ومست الحاجة اليها . استمرت تشجعها عند ما كان الأمر يستدعي التشجيع . وظلت تواسيها عند ما كانت حالها تستوجب المواساة .. -

بل لقد نبهتها الأصوات إلى ما كان ينتظرها من خطر . وإلى ما يجب عليها أن تقابله به عند وقوعه كما سيأتى بيانه .

ومن الغريب أنه في الفترة التالية من حياة جان دارك ظهر كثيرون ادعوا الوحي والولاية والعلم بالغيب . وكانوا في ادعائهم مقلدين لجان ، منافسين لها . ولكنهم على رغم ما اجتمع لهم من أنصار فشلوا في دعواهم ، ووقعوا فرائس في قبضة الكنيسة ، ولقوا على يديها ما أعد لأمثالهم من « الملحدين » و « السحرة » .

ومن هؤلاء الأولياء الذين اشتهروا بين قومهم « الأَخ ريتشارد » Richard ، وكان خطيباً مؤثراً حمل الجماهير على الاعتقاد بقرب « يوم القيامة » ، فخلع كثير منهم رداء الترف والمظاهر الدنيوية ، وتفرغوا للعبادة ، وانصرفوا إلى حياة الزهد والتقشف . وقد قابلت جان « الأَخ ريتشارد » هذا مرتين أولاهما في مدينة « تروى » والأخرى على اللوار عند عودتها إليه .

وأدعت الوحي امرأة تدعى « كاترين دى لاروشل » Catherine de la Rochelle وكانت رسالتها غريبة ولكنها حبيت فيها الملك وذلك أن دعواها كانت في أنها أرسلت لى تملأ خزان الملك ذهباً !! وبطبيعة الحال قربها الملك إليه ، ورحب بها فى بلاطه ، ولكن ذهبها لم يتحقق . وكانت فوق هذا برجندية النزعة

أى تدعو إلى سياسة المساواة بين ملك فرنسا وقرينه دوق برجنديه
حليف الانجليز . ولهذا السبب كرهتها جان وقالت مرة « ردوا تلك
المرأة إلى زوجها ودعوها تعنى بأطفالها فذلك أجدر بها »

واشتهر من أولياء ذلك الزمن سيدة أخرى تدعى « كولت Collette
وشاع عن « كولت » هذه كثير من « الكرامات » وكانت تسير في الطرق
في ثياب خالقة وخالفها أتباع كثيرون .

وظهر ولى آخر اسمه « وليم الراعى » ادعى الوحي وتلقى الرسائل
من السماء ، وذاع صيته في كل الأرجاء ، ولكن الكنيسة لم تدعه
يستمرى شعوبه ، وسرعان ما لاقى حتفه بالقائه في نهر السين حيث
مات غرقا .

وفي الواقع أن « أدعياء » الوحي والولاية قد كثروا في زمن
جان دارك . ولم يكن ظهورهم أو كثرتهم بالأمر المستغرب لأن
طبيعة التفكير وعوامل البيئة — بيئة القرون الوسطى — كانت تسهل
بل تدعو الى وجود هؤلاء الأدعياء .

لكن شتان بين جان دارك « وأصواتها » وبين هؤلاء الأدعياء . !
جان لم تدع في يوم من الأيام أن لها قدرة خارقة ، أو أنها جاءت
لتقوم بالمعجزات ، بل حصرت دعوتها في غرض واحد وغاية محدودة

وهي « إنقاذ الوطن بانقاذ الملك . » غاية وطنية سامية وغرض عملي شريف . وليس معنى هذا القول انكار ما نسبته الكثيرون من المعجزات لجان ، ولكن جان كانت تنكر دائماً أن لها « معجزات » أو أنها أرسلت لتقوم « بمعجزات » كالتى ادعاها المشعوذون من أبناء عصرها لائفسهم . كانت جان وطنية مجاهدة بكل ما فى كلمة الوطنية من معنى . وكل ما فى أمرها من غرابة ، أنها كانت وطنية بالمعنى الذى يعرفه أهل القرن العشرين لا أهل القرون الوسطى . ولننتقل الآن الى إتمام ما بقى من سيرتها .

عقد الملك بعد انقضاء حفلة التتويج بأيام قلائل « مجلساً حريباً » لى يقرر الخطة التى تتبع بعد ما وصل اليه من النجاح ، وتحقق الغايات التى « أرسلت » من أجلها جان .

وكانت أبسط الاصول الحربية تقضى على الملك بأن يتابع انتصاراته ويطارد عدوه حتى يدخل باريس عاصمة ملكه .

ولكن دوق برجندى اتفق مع حليفه بدرفورد فى اجتماع عقد بينهما فى باريس فى ١٥ يوليه أى قبل ان يتم تتويج الملك شارل فى « ريمس » بيومين على أن يدافع عن باريس دفاع المستميت ، ولكنهما فى الوقت نفسه أرادا أن يأخذا الملك شارل بالخب والخديعة ، لى يكسبا وقتاً ينظمان فيه صفوفهما ، ويردان فيه شيئاً من الثقة الى نفوس

جنودهما الذين وصلوا الى حد من الأعياء والأنهاك جعلهم يفرون أمام الجيش الفرنسي فرار النعاج أمام الذئب لا يلوون على شيء متى ظهرت لهم جان على رأس الجيش المهاجم (١)

تلك كانت السياسة التي بيّتها خصوم الوطن الفرنسي ! وبطبيعة الحال اختار أولئك الخصوم أداة لمكرهم ، و آلة لدسهم ، المستشارين لملك فرنسا لا تريمواي وزميله رينولت دي شارتر رئيس الأساقفة . وقد علمت من امر ضعف الملك ما علمت ، فضلا عن انه كان مثقلا بالديون المالية التي اقترضها من لا تريمواي فكان بسبب ضعفه ودّينه ألعبوبة في يده أخذ المستشاران ورجال البلاط من اتباعهما يزينون للملك ، وقد تم له تتويجه وأصبح ملك البلاد الشرعي ، أن يعدل عن سياسة الحرب الى سياسة المفاوضات ! والمستشاران كفيلان بأن تسلّم له باريس من غير حرب أو قتال . . . !

وفي بادئ الأمر مال الملك طوعا أو كرها إلى الأخذ بمشورتهما وكاد يمضى أمره بما أشار به
وهنا تقدمت جان يؤيدها المخلصون من القواد تعارض مشورة

(١) كتب احد المعاصرين لجان دارك واسمه (Alan Chartier) الى أحد الامراء في اواخر يولييه سنة ١٤٢٩ يصف فزع الجنود الانجليزية فقال « لقد اصبح الجنود الانجليزى كالنساء واصبح قوادهم وكنهنم قد شد وثاقهم فهم لا يبدون حراكا »

لاتريمواى وزميله ومن لف لفهما . وأهابت بالملك أن يستأنف
مطاردة العدو ، ومتابعة الهجوم عليه ، وهو لا يزال فى سكرات
الهزيمة وذل الانكسار مرددة عبارتها المشهورة ، لا يتحقق السلم
إلا على أسنة الرماح ..! .

وقامت حرب عوان فى بلاط الملك بين سياسة المخاتلة والدرس
بل سياسة الهزيمة والتردد التى كان بطلاها لاتريمواى وصاحبه . وبين
سياسة الصراحة والحزم والجهاد إلى النهاية ممثلة فى جان دارك .

وفى نهاية الأمر تغلبت حجة جان ، واتصرت سياستها على
سياسة أعدائها . وسرعان ما صدرت أوامر الملك بالزحف على باريس...
وما كادت جان تسمع أمر الملك حتى أصدرت هى الأخرى أوامرها
إلى القواد بالاستعداد فورا للسير نحو باريس . وما إن رفعت راية
الجهاد حتى هرع الأقوام وتسبقوا إلى الانضمام إلى الجيش الذى
يخشد للزحف على باريس ...!

وفى هذه الآونة كانت جان قد كتبت إلى دوق برجندي خطابها
المشهور « المؤرخ ١٧ يولييه سنه ١٤٢٩ بمدينة ريمس » والذى تقول
فيه ... « أرجوك بل أضرع اليك بكل خضوع أن تفلح عن محاربة
مملكة فرنسا المقدسة ، وان تسحب على الفور جنك من القلاع

والحصون الواقعة في داخل حدود تلك المملكة . وعليك أن تعلم أن كل حرب تشنها ضد فرنسا إنما هي حرب ضد ملك السموات والأرضين ، وإن كان لا بد لك من حرب فلتوجه قواتك إلى الشرق الخ

وغضب لا تريمواى غضبا شديدا لما باءت به سياسته من الفشل ، ولكنه لم يئس ، وأخذ يواصل دسه بالليل و بالنهار مهددا متوعدا بالويل والشبور .

ولما كملت الاستعدادات أمرت جان بالزحف ، وتقدمت القوات نحو باريس ، وعلى رأسها جان ، ومعها الملك وبجانبه لا تريمواى . وفي سنت ماركول ، وهي بلدة تبعد ستة فراسخ عن باريس ، توقف الملك عن السير ثلاثة أيام متتابعات ولماذا توقف الملك ؟ سل دسائس لا تريمواى تخبرك اليقين . أخذت دسائسه تفعل فعلها ، وتوثى أكلها ، فتوقف الملك لغير سبب معروف عن متابعة السير . . . ! وكانت ثلاثة أيام ذهبية عرف الانجليز كيف يستفيدون منها . . . ! وتقدمت جان للملك تتوسل وترجو بالحاف استئناف السير قائلة « إن كل دقيقة تضيع في التأخير هي دقيقة يكسبها العدو في الاستعداد وبث روح المقاومة . . ! » وأخيرا تمكنت من اقناعه باستئناف الزحف ولعلها تمكنت من اقناعه في لحظة كان فيها لا تريمواى بعيدا عنه . . .

لأن هذا الاقتناع كان الى الرغبة في التخلص من الحاح جان أكثر منه اقتناعاً صحيحاً بصواب ما تدعوه اليه . ومن مجرى الحوادث يتحقق لديك صدق هذا النظر .

استأنف الجيش المسير ، وفي ٢٥ يوليه التقى الجيشان ، جيش جان دارك وجيش الانجليز . وتظاهر الجيش الانجليزي بالاستعداد للقتال والطعن والنزال ! ولكنهم لم يكادوا يشعرون بوجود جان حتى استحوذ عليهم الرعب ، وارتدوا إلى حصون باريس مولين في غير نظام .

ولم يبق أمام جان إلا ملاحقة العدو والاستيلاء على باريس من أهون سبيل .

ولكن ! نعم ولكن !! هنا قدر للشيطان أن ينتصر . نعم قدر للذئب أن يثني الملك عن مديده واقتطاف أئمن ثمرة في حديقة ملكه ، اقتطاف باريس عاصمة المملكة وبيت الملك ، ... !

هنا وعلى أبواب باريس ، والعدو منهزم موكوس ، يقف الملك ويرتد إلى الورا... ! نعم ارتد إلى الورا ، بعد أن عقد هدنة مع دوق برجندي لمدة خمسة عشر يوماً « تسلم له بعدها باريس من غير حرب أو قتال .. !! » . هكذا خدع الملك ، وكان خادعه وسارق لبه « لا تريمواي » مستشاره الخائن الذي ما فتى يزين له الرضا بالمفاوضة ، ويفسد عليه

أمره بافهامه أن باريس يمكن أن تسلم له من غير حرب أو قتال .
وفي هذه المرة تمكن لا تريمواى من حمل الملك على توقيع عقد
الهدنة بينه وبين دوق برجندى فى منطقة باريس لمدة ١٥ يوماً تسلم
فيها باريس بشرط أن يتراجع بالجيش إلى مدينة « جين » ..!!

وقد وسع عقل الملك كل هذا السخف . وجاز عليه أن
الارتداد إلى الوراى يمكن أن يترتب عليه تسليم العدو طائعا مختاراً
لعاصمة الديار ..!!

وأمر الملك أن يتراجع الجيش طبقاً لشروط الهدنة إلى « جين »
« وجين » كما يعلم القارىء الآن هى المدينة التى بدأ منها زحف جان
المشهود على مدينة « ريمس »

وماذا كان موقف جان دارك من أمر الهدنة ؟

كادت تتميز من الغيظ والحزن ، إذ ليس أبلغ فى إيلاام النفس
الشريفة من أن يفسد عملها الصالح أهل الدس والخيانة ...

كانت جان ، قاب قوسين أو أدنى ، من الوصول إلى غايتها ،
والاستيلاء على عاصمة الملك مواجهة فى ذلك قوات انجلترا وبرجندية
مجمعة ، وكانت تمنى نفسها بين لحظة وأخرى بضرب أعداء بلادها
الضربة القاضية ، وهى جد موقنة بانتصار نهائى فاصل ..

وهنا تأخذها الخيانة على غرة ، وتقضى على آمالها مفاجأة ، وتأتيها الخيانة من ناحية كانت تقضى أبسط قواعد المروءة والرجولة ، دعك من قواعد الوطنية والسياسة ، بتأييد جان وشد أزرها ، لأنها هي الناحية الوحيدة التي كانت ستنعم وتغنم نتيجة النصر . وكأنه لم يكن يكفي جان مناجزة انجلترا وبرجندية مناجزة علنية مكشوفة ، حتى تدبر ضدها تلك المماواة الخفية من خلفها .

وإن عجبت لشيء فاعجب لذلك المخلوق الضعيف جسماً وإرادة ، والذي أصبح كالدمية بين يدي مستشاره الخائن يلعب به لعب الصولجان بالكرة ، يقلبه شمالاً ويمينا وهو لا يملك لنفسه أمراً . ذلك المخلوق الذي أصبح بفعل المسكر والخديعة يرضى من الغنيمة بالاياب ، ذلك هو الملك شارل السابع الذي توجهت جان في ريمس بالأمس ، وجعلت منه ملكاً شرعياً تدين له البلاد بالولاء والطاعة ، بعد ان كان شريداً طريداً يوشك ان يفر من البلاد يأساً ورعباً . . .

غضبت جان وحق لها أن تغضب من عقد تلك الهدنة من خلف ظهرها في غير فائدة مضمونة إلا للعدو يجمع فيها شمله ويجبر كسره . . . ولكن ماذا تفعل جان وقد أصبحت أمام الامر الواقع ، وهو توقيع الملك للهدنة !!

هنا ظهرت جان بمظهر رائع من الكرامة والشرف . وذلك

أنها قامت بتنفيذ أحكام الهدنة تنفيذاً دقيقاً ، إذ لم تشأ أن تعرض
مليكتها للسخرية ، مهما كان اعتقادها في خطله وسوء تصرفه بقبوله عقد
الهدنة .!! وهكذا النفس الأبية لا تنزل إلى درك الدس والمكر السيئ
فتقابله بمثله ، بل تبقى دائماً في مستواها الرفيع شريفة نزيهة لا تنزل
عن مستواها مهما ضايقته نذالة الأندال أو خبث الخبثاء .

وفي أثناء الارتداد طبقاً لشروط الهدنة ، كانت بعض البلاد
خارج منطقة الهدنة لا تزال في أيدي العدو ، فأخذت تسلم تباعاً لجان
وللملك . ومن هذه البلاد مدينة بوفيه Beauvais ، التي أرسل
لها الملك رسله تدعوها للتسليم . وكان أسقفها « بييركوشون
Pierre Couchon » موالياً للإنجليز ، مؤيداً لدعواهم في عرش
فرنسا ، ولكنه لم يجرؤ على رفض تسليم المدينة ، وخرج منها
مغضوباً عليه لا يلوى على شيء . وستسمع عن هذا الأسقف الشيء
الكثير فيما بعد . . . ولنكتف الآن في أمره بهذا القدر! ؟ ومن المدائن
التي سلمت لجان في تلك الفترة ، مدينة « كومبين » Compiègne وهي
من أمهات المدن الفرنسية .

وكان « بدفورد » الوصي على ملك إنجلترا ، قد تظاهر بالاستعداد
للدخول مع الفرنسيين في معركة فاصلة حول « كومبين » . ولكنه في
صباح اليوم الذي تظاهر بالاستعداد لخوض المعركة فيه ، ركن إلى

الفرار، ودخلت جان « كومبين » في ١٨ أغسطس، ورفعت عليها العلم الفرنسي، بعد أن طردت منها الحامية الانجليزية.

وفي ٢٣ أغسطس كانت مدة الهدنة قد انقضت، فأمرت جان بمعاودة الزحف على باريس. وهنا أظهر الملك وحاشيته امتعاضهم من الأمر!!! وارتدوا إلى مدينة « سنلس Senlis ». والقارىء لا يحتاج إلى كبير عناء في معرفة سر امتعاض الملك وحاشيته من معاودة الزحف على باريس مادام يعلم أن على رأس الحاشية « لا ترېمواي » صنيعه البرجنديين حلفاء الانجليز.

وفي هذه الفترة أخذت المدن تسلم للجيش الفرنسي تباعا، وتولى عنها حامياتها الانجليزية فرارا، ولكن بالرغم من هذه الانتصارات قعد الملك في مدينة « سنلس » متسخطا متبرما باقدام جان على مهاجمة الانجليز في باريس، لأنه كان - تحت تأثير وهمه القديم - يعتقد، على رغم كل ما رآه وسمعه من أعمال جان، أن الانجليز في باريس لا يهزمون. وهو لاشك كان متأثرا في اعتقاده هذا بما كان يلقيه في روعه عنهم مستشاره السوء.

أما جان فقد سارت تتابع انتصاراتها حتى بلغت « سنت دينس » St. Denis في ٢٦ أغسطس سنة ١٤٢٩، ومعنى هذا أنها أصبحت على أبواب باريس. واستمر الملك (جامدا) في مكانه في « سنلس »

بالرغم من الرسل التي كانت تجيئه من جان تدعوه للتقدم إلى مقر الجيش . وضاعت تسعة أيام كاملة في تردده وتمنعه ووعده الرسل بالحضور وهو لا يحضر ، وأخيرا أمكن اقناعه بالسير إلى « سنت دنيس » ووصل إليها في ٧ سبتمبر سنة ١٤٢٩ . وكان لتأخير الملك في الوصول إلى مقر الجيش بعد ان وصل تحت أسوار باريس أثره الفعال في تغيير الموقف الحربي ، فبعد أن كان الانجليز لا يجدون منجاة لهم إلا في مغادرة المدينة والارتداد الى نورمنديه آخر مقاطعة في فرنسا بقيت على ولائها لهم ، ولائها من جهة أخرى أقرب المقاطعات إلى بلادهم الأصلية ، عادوا فانتهزوا فرصة تردد الملك وتباطئه ، وأخذوا يستعدون للدفاع عن المدينة ، ويشنون روح المقاومة في الجند مشيرين الى تردد الفرنسيين وإحجامهم عن الهجوم .

و بعد وصول الملك أمرت جان بالهجوم و حددت للبدء فيه الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي . و كانت جان على رغم الضرر الذي نشأ من تقاعس الملك عظيمة الثقة في النصر ، واقتحام أسوار المدينة ، ودخولها ظافرة من غير خسارة تذكر .

وفي الساعة المحددة للهجوم بدأ الجند بمحاولة اقتحام باب « سنت أونوريه St Honoré » ، وبينما هم على وشك النصر ودخول باريس ، أصاب جان سهم !! فكان هذا السهم نذير الارتداد والتقهقر ، لأن

الجند الفرنسيين تخاذلوا لما رأوها جريحة ، ونكصوا على أعقابهم وجلين ! . وأبت جان كعادتها أن تترك حومة الوغى على الرغم من إصابتها القاتلة ، وأمرت الجند بالثبات ومواصلة الهجوم فقد أصبحوا على أبواب النصر النهائي . وهنا تقدم القائدان « دالنسون » و « جانكور » وحملها قسرا خارج المعركة وهي تصيح بالجميع « يجب أن نأخذ باريس أو نموت دونها !!! » .

وصممت جان ، بالرغم من جرحها ، أن يعود الجيش لمواصلة الهجوم في بكور اليوم التالي . وما كان هناك أدنى شك لدى القواد في استيلائها على المدينة في أقل من نصف ساعة كما وعدت لو أنه أتيح لها أن تواصل هجومها كما عازمت .

وفي اليوم التالي لم يبدأ الهجوم على باريس كما وعدت جان لأن الملك أبي عليها مواصلة الهجوم . . .

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن إباء الملك وحيلولته دون الهجوم يرجعان إلى شففته على جان قائدة جيشه الجريحة ، أو لنفوره من مجازفتها بحياتها وحياتها كما مر بك أئمن ما كان لديه قنية ، فتكون ممانعته جبا في عدم تعريضها للخطر ! كلا ! ليست عوامل الانسانية ، ولا الأصول الحربية ، هي التي دعت الملك إلى وقف الهجوم على باريس ، إنما جاء الوقف نتيجة دأب « لاتريمواي » على مساعيه

الخفية في حمل الملك على عدم القتال والأخذ بأسباب المفاوضة مع العدو ، مزيئا له أنه لا فائدة من القتال على شيء يمكن نيله بدونه .. حجة فارغة ، وخيانة بارزة ، خضع لهما الملك لاستكافته بل خوفه من مستشاره صاحب السيطرة على عقله وجسمه وجيبه .

إذن لم يبدأ الهجوم على باريس في الصباح الباكر كما أرادت جان لأن الملك ، كما اتضح ، كان قد وقع هدنة ثانية أطول من الهدنة الأولى ، تتلخص شروطها في وقف الهجوم على باريس والعودة الى اللوار ثانية ... ويحصل هذا في مقابل وعود خلافة ، وألفاظ جوفاء وردت في عقد الهدنة . ولكن الثمن الحقيقي لهذه الهدنة قبضه « لا تريمواي » من دوق برجندية (وقبضه) دراهم معدودة .. !!! وهكذا كانت تباع الأوطان ، ويشترى النفوذ في تلك الأيام الخالية ، والعهود المنشرة .

وكان وقع خبر الهدنة الثانية على جان ألما أشد الألم . وباعثا على الهم والغم . ولا يحتاج القارىء الى وصف مقدار ما استحوذ عليها .. فقد جاء خذلان الملك لها . وهى على باب النصر تمد يدها لاقتطاف ثمرته ... ، فأثر ذلك فيها تأثيرا بليغا ، حتى أنها ذهبت الى الملك . بعد أن خلعت درعها الأبيض وعلقته في كنيسة « سنت دنس » والتست منه أن يخليها من القياده العامة ، حتى تعود إلى قريتها وأهلها .

ولكن الملك أبي عليها العودة في هذه المرة إباء صريحا بحجة أن الهدنة لا تشمل فرنسا كلها ، وأن هناك حصونا وقلاعاً لا تزال تحتاج إلى جهودها وعنايتها .

ولم تكن رغبة الملك في استبقائها هذه المرة بريئة من دس « لا تريمواي » ، لأنه خشى أن يتركها حرة في حركاتها ، وهي صاحبة النفوذ العظيم على الجماهير وعلى الجند ، فيلتفوا حولها ، ويعاودوا الكرة في الهجوم على باريس ، حيث لا يكون للملك قدرة على الحيلولة بينها وبين ما تريد . ولهذا السبب حملها الملك على البقاء ليضمن تعطيلها وليحتاط لجميع حركاتها ، ويستطلع كل نياتها .

وفي هذه الأثناء عادت « الأصوات » إلى مناجاة جان ، تأمرها بالبقاء في « سنت دنس » . وفي الحال أعلنت جان رغبتها في البقاء طوعاً لأمر « أصواتها » لأنها لم تخالف لها قط أمراً . . . وهنا أدرك « لا تريمواي » أن ترك جان حيث أرادت ، وعلى مقربة من باريس ، أمر له خطورته ، وقد يفسد عليه « هددته » . فألح على الملك أن يرفض بقاءها في « سنت دنس » بالرغم من أمر « الأصوات » لها بالبقاء ، ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة المادية في حملها على السير معهم أنى ساروا . . .!! وكانت جان لا تزال تتألم من جرحها فلم تستطع المقاومة وانتقلت رغم أنفها إلى اللوار ، وعادت إلى جنوبي فرنسا . . .

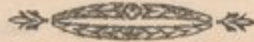
وكانت هذه أول مرة خالفت جان أمر « أصواتها ... ! »
وفي يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٤٢٩ أخذ الجيش الفرنسي في الارتداد
تغشاه الكآبة ، ويغلبه الحزن من جراء هذا التقهقر غير المنتظر ...
وعند ما وصل الجيش الى مدينة « جين » في ارتداده ، أمر الملك
بتسريحه . وكانت تلك عاقبة الخيانة والديسية ، يسرح الجيش والعدو
لا يزال رابضاً في عاصمه الملك ، يستجمع قوته ، ويلم شعثه لخوض
المعركة من جديد ...

ألا لعنة الله على القوم الخائنين ... !!

ومضت ثمانية أشهر فاترة كان اليوم فيها يمر على جان كأنه دهر ،
فقد أخذ الملك يتنقل من بلد إلى بلد ، ومن قلعة إلى أخرى ، وحوله
حاشيته تهادى في إسرافها وخلاعتها . جرى كل هذا وجان منصرفاً إلى
التفكير في مصير الأمور ، وكلما أمعنت في التفكير ، تبدى لها مبلغ
إجرام الحاشية ، وانصرافها عن الطريق السوى ، وتفشى الفساد
بين أفرادها .

وأخيراً ضاقت جان ذرعا بحياة المجون واللهو التي انصرفت إليها
الحاشية ، بينما العدو الغاصب لا يزال يدنس أرض الوطن بقدميه ،
ويستعد لاسترداد ما فقد من بلدان ، وما خسر من كرامة ونفوذ .
لم تطق جان صبراً على هذه الحال ، وما كان لها أن تطيقها ، وهي

الشعلة المتقدة ، والشباب المتحمس في سبيل الله وفي سبيل الوطن . !
فاتصلت بالقواد سرا على أن تعاود الهجوم ، وتقاتل العدو أنى تقفته ،
فوافقها زميلها النبيل الدوق دالنسون على ما اعتزمت وكان الوحيد
من بين القواد الذى رضى عن خطتها الجديدة ووقف الى جانبها الى
النهاية : ومن ثم أخذت جان تؤلف جماعات من المتطوعين تخرج بها
لقتال العدو فى أى مكان تجده فيه . . .



وقوع جان فى الاسر

وصارت جان تقفنى أثر العدو، وتضربه ضربات موقفة. وكانت تتولى قيادة الجماعات التى كانت تؤلفها، مجردة عن كل صفة رسمية. فلا هى كانت « القائد العام للجيش جلالة الملك » كما كانت تلقب فى حروبها السابقة، ولا هى كانت تقوم بحرب نظامية بالمعنى المفهوم من كلمة حرب. بل كانت حملاتها أشبه ما يكون بما اصطلح المؤرخون على تسميته « بحرب العصابات » لأنها خرجت لتقاتل العدو أنى وجدته وتهاجمه وتطارده أنى تقفته ..

وفى الأسبوع الثالث من شهر ابريل ١٤٣٠ كانت جان مع فرقتها فى « ميلون Melun » وبينما هى تدبر وتنظم عمل الفرقة جاءتها « الاصوات »، وجاءتها هذه المرة تحمل لها النذير بما يخبئه لها المستقبل القريب ... أنذرتها بأنها ستقع أسيرة فى أيدي العدو قبل عيد القديس « يوحنا المعمدان » ..؟! وطلبت منها الأصوات ألا تجزع للأمر وأن تستقبل الأسر برباطة جأش وثبات جنان لأن الله سيكون معها ... وبالرغم من هذه النصيحة كان وقع الانذار عليها شديدا، واضطربت له، وجزعت منه، وسألت « الاصوات » فى لهفة عما اذا كان موتها يجرى بعد الأسر مباشرة، أو يسبقه محاکمات طويلة شاقة.

وما يتبعها من السجن وعذابه المضى...! ودلت جان بسؤالها على أنها لم تكن تخشى الردى إذا عاجلها وإنما تخشى عذاب السجن المهين .
وقد أجابت « الأصرات » على سؤالها قائلة

“ Ne t'ebahis pas et prends tout en gré, Dieu t'aidirai ”
ومعناه « لا تأخذنك الدهشة وتقبلي كل شيء بالرضى ، فإن الله في عونك . »

وتركت « الاصوات » جان من غير أن تحدد لها تاريخاً معيناً لوقوعها في الأسر سوى العبارة المبهمة الخاصة بتحديدده « قبل عيد القديس يوحنا » ويقع هذا العيد في ٢٤ يونيه من كل سنة . ولما كان الانذار الذي تلقته جان جاء حوالي ٢٠ ابريل تكون المدة الباقية لها من الحياة الطليقة لا تتجاوز ٦٠ يوماً .

فماذا فعلت جان في تلك المدة ؟

لو تصور القارئ أنها انصرفت الى العبادة في الكنائس والأديرة لما تجاوز المعقول في تصورده . أولاً : لأنها جزعت عندما صدمت بالانذار من أصواتها . وثانياً : لأنها مهما كانت بسالتها وقوة احتمالها لا يمكن أن تبقى مطمئنة كما كانت قبل الانذار الذي جاءها من طريق « الملائكة والقديسين » وهي بأنبأهم مؤمنة موقنة . فلو فكرت في

الحيلة والحذر لنفسها لكي تخفف من البلاء عند وقوعه لكان ذلك
منها طبيعيا وما كان يمكن أن يكون محلا للوم او لتثريب .

ولكن جان دارك لم تخلق لكي تأتي بالمعقول! ولكي تتجنب غير
المعقول الذي يتجنبه كل الناس! --- انها كانت فذة ومدهشة في
تصرفاتها --- انها فيما تقدم من أمرها جاءت بما لم تأت به الأوائل !!
وكذلك شأنها بعد الانذار كما كان قبله شجاعة واقداما ، ومثانة
وايمانا ، وظهر أن ما تولاهما من قلق عند مفاجأتها بالانذار كان نتيجة
طبيعية للمفاجأة لم يابث أن زال بزوالها . وعادت جان لمغامراتها قوية
صادقة وكان لسان حالها يقول « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »

ووصلت جان في غاراتها الى مدينة « لاني Lagny » حيث كانت
توجد قوة برجنديّة ، فهاجمتها وانتصرت عليها وأسرت قائدها « فرنكيه
داراس Franquet D'arras » وكان من الأشقياء المشهورين فسلته جان
لولاية الأمور في المدينة فشنقوه فيها ---

وتروى كتب التاريخ كرامات لجان من كراماتها الماثورة عنها ،
ونروى نحن أبناء هذه الكرامات على أنها مما تناقله عنها معاصروها ،
وما يتناقله الناس قد لا يكون حقيقة تاريخية تثبت أمام الفحص العلمي
الدقيق ولكن هذا لا يمنع من رواية ما رواه غيرنا ولو من قبيل
الدلالة على عقلية الناس في ذلك الزمن ---

وإليك قصة تلك الكرامة :

حدث في يوم من الأيام التي كانت جان فيها بمدينة « لاني » أن طفلا أشرف على الموت ولم يكن أبواه قد عمداه في الكنيسة ، وكان موت الطفل من غير « تعميد » فيه إثم كبير ، فاجتمعت حول الطفل فتيات المدينة وأخذن يصلين من أجله ، ولما علمت جان بما حدث ذهبت واشتركت مع الفتيات في الصلاة ، وبمجرد اشتراكها معهن «فتح الطفل عينيه !» وكان روحه ردت إليه..!! فأسرع القوم بتعميده ولم تكذ تم مراسيم التعميد حتى فارق الطفل الحياة...! تلك كانت « كرامة » جان في « لاني » التي جمعت قلوب أهل المدينة حولها .

ومن الغريب أن جان سئلت في موضوع هذا الطفل فلم تدع لنفسها شيئا خارقا أو سرا خفيا بل أجابت سائلها في بساطتها المعهودة... « ليس في الأمر ما يستغرب ! وكل ما فيه ان الله استجاب لدعاء العذارى عندما كن يصلين ، فهل من عجب اذا أحيا الله الطفل ؟ أليس الله منا جد قريب ؟ »

وكان أهل « لاني » معروفين بشجاعتهم وصلابتهم في القتال فانهزت جان فرصة إعجابهم بها والتفافهم حولها وألفت منهم قوة عتيده تساعدنا في غزواتها التي كانت تشنها على العدو .

وفي هذه الآونة ترامت الأخبار بأن دوق برجندية بدأ يحاصر

مدينة «كومبين» وهي التي كانت قد فتحت أبوابها وسلمت لجان في أغسطس الماضي ، وشم قضي شرط من شروط الهدنة المعلومة باعطائها الي دوق برحدية ... فلما جاءها الدوق ، رفض أهل المدينة تسليمها له وأبوا أن يرتدوا عن ولائهم للملك ، فدلوا بهذا الأباء والولاء أنهم ملكيون أكثر من الملك .

ولم يكتف أهل المدينة باعلان الرفض فحسب بل نشطوا للدفاع عن أنفسهم واختاروا من بينهم حاكما عليهم اسمه «دي فلافي De Flavy» ووكلوا اليه أمر الدفاع ومقاومة العدو حتى آخر رفق لهم من الحياة ...! وكانت «كومبين» مدينة محصنة ولا تقل في أهميتها عن «أورليان» وذلك لقربها من باريس ، ولأنها مفتاح الطريق إليها ...

وتقع «كومبين» على الشاطئ الجنوبي لنهر «وازي Oise» وعلى كشب منها يصب في «وازي» نهران كبيران أحدهما يسمى أين «Aisne» والثاني يسمى أروندي «Aronde»

ولكومبين مكانة تاريخية خاصة لدى الفرنسيين وذلك لما يتصل بها من الذكريات القومية قديما وحديثا (١)

ولما جاءها الدوق يحاصرها صمد له «دي فلافي» فحاول الدوق أن يرشوه بالمال ...!! والرشوة كانت من الوسائل التي يتنرع بها في ذلك

(١) من الذكريات القديمة ما جرى لجان دارك حولها ومن الحديثة استقبال نابليون لماري النمساوية في قصرها وعقد الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ على مقربة منها

العصر للاستيلاء على المدن المحصورة إذا أعيت المحاصر الخيل في أخذها عنوة ... ولكن «دى فلان» برهن على أنه كان من الحكام القلائل في ذلك العصر الذين آثروا عمران نفوسهم بالشرف على عمران جيوبهم بالمال ... و بطونهم بالشبع ...! فقد أثر عنه أنه رفض الرشوة في إباء وشمم قائلاً «ليست المدينة ملكاً لي حتى أبيعها بالمال»، وعند سماع رده شرع الدوق يشدد الحصار ويضيق على المدينة الخناق. لكي يكرها على التسليم.

وفي هذا الوقت العصيب جاءت جان وفرقتها التي جمعتها من أهل «لاني»، الأشداء لكي تساعد على انقاذ المدينة وبنينا الذين كانت بهم جد معجبة. وقد قالت فيهم عبارتها المشهورة التي لا تزال مسطورة على تماثيلها في المدينة وهي «Je vrai voir mes bon amys au Compiègne» «سأذهب لكي أمتع ناظري بأصدقائي المخلصين في كومبين !!»

وكان وصول جان إلى «كومبين» في ١٣ مايو. وجاءتها عن طريق الغابة المحيطة بها، واستقبلتها المدينة استقبالا منقطع النظير في الحفاوة والفخامة وكان رئيس الأساقفة المشهور في المدينة عند مجيها جان إليها وكان على رأس المستقبلين لها عند قدومها.

ومن ١٣ مايو إلى ٢٣ منه أخذت جان تختلف إلى المدن المجاورة وكان العدو يحاصرها أيضاً لكي تساعد على الدفاع أو على مهاجمة القوات المحاصرة لها.

وفي صباح يوم ٢٣ مايو عادت إلى كومبيين وشرعت في الحال
تعد هجوماً مفاجئاً لقوات العدو المحاصرة واتفقت على أن يكون بدء
الهجوم عصر ذلك اليوم .

وهنا يحسن أن نبين للقارىء مواقع العدو من المدينة لكي يعلم
مقدار المخاطرة التي تقدم عليها جان في امضائها ما اعتزمت عليه .
كان الجيش المحاصر مقسماً ثلاثة أقسام قسم تحت قيادة «بودى»
Baudet de Noyelles وكان مقره في « مارنى Margny » وقسم
ثان تحت قيادة الشريف « جين دى لو كسمبرج » ومقره في « كليروا
Clairoix » وقسم ثالث تحت قيادة دوق برجنديه ومقره في « كودون
Coudon » وكانت هناك قوة انجليزية مرابطة في « فنت Venette »
تحت قيادة « منتجومرى Montgomery »

وكان القصد من توزيع القوات على النحو المتقدم تمكينها من
معاونة بعضها بعضاً في حالة محاولة مهاجمتها بعضها أو كلها على غرة .
وقصدت جان أن تفاجيء قوات العدو المعسكرة في «مارنى» ،
أى القوة الرابضة على الضفة المقابلة «لكومبيين» والتي لم يكن يفصلها
عنها سوى النهر وطريق ممتد في سهل كان في غالب الأحيان مغرقاً
بالماء . والمسافة كلها بين أسوار « كومبيين » والمعسكر في «مارنى» لم تكن
تتجاوز ثلاثة أرباع الميل

وفي الواقع لم تكن جان تقصد مهاجمها سوى مناوشة العدو واستطلاع مرآكزه . يدلك على هذا أنها خرجت بالقوة عصراً أى قرب أفول النهار . فلو كانت تريد حرباً جدية لاتخذت لها عدتها ودبرت لها ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل . كما جرت به عادتها فى كل حرب شنت غارتها ... أما خروجها فى ٥٠٠ مقاتل كما فعلت فلا يمكن أن يعدو الرغبة فى مناوشة العدو ومباغتته لالقاء الرعب فى معسكره ...

وليس معنى ما تقدم أن جان لم تدبر مهاجمها تديراً محكماً . كعادتها فى تدير كل هجوم ! كلا ! فقد عنيت بكل شىء . ولم تغادر كبيرة أو صغيرة إلا وضعتها فى نصابها قبل أن تأمر القوة بالتحرك إلى الأمام .

والأمر الوحيد الذى لم تستطع تديره وما كان يمكن أن تستطيعه هو اتقاء ما خبأه القدر لها فى ثنايا ذلك الهجوم ، فقد كانت ساعة الخطر قد شارفت ، وأذنت دقتها الأخيرة الحاسمة . ولكن جان لم تكن تعلم الغيب ، ولم تدع عليه فى يوم من الأيام ، وقد تركتها « الأصوات » فى حيرة من أمر الساعة الحاسمة ! فلم يكن غريباً أن تكون فى حملتها هذه قادمة على ما تكره وهى لا تدرى من أمره شيئاً .

أقول « وهى لا تدرى من أمره شيئاً ، مع أنه جاء فى الأثر
المروى عنها أنها عند ما انتهت من إعداد الحملة ولم يبق لها إلا أن
تأذن بالمسير ، ذهبت جان إلى الكنيسة للصلاة كعادتها قبيل كل هجوم ،
وبعد أن فرغت من صلاتها التفتت إلى من حولها وقالت لهم :
أيها الأصدقاء ! أنبئكم أنى فى هذه المرة سأكون فريسة الخيانة ،
وسأباع للعدو ، مقابل دراهم معدودات ، وبعد ذلك أسلم للبوت . !
فصلوا من أجلى فلن أستطيع بعد اليوم أن أخدم مليكى ووطنى ... »

روى هذه النبوة عنها اثنان من العجائز فى سنة ١٤٩٨ وكانا فى
التسعين من عمرهما .. أى أنهما كانا فى سنة ١٤٣٠ حوالى العشرين من
عمرهما .. وقد رجح بعض المؤرخين صحة روايتهما وكان ترجيحهم
مبنياً على سابق علم جان بوقوعها المنتظر فى الأسر كما أخبرتها
« أصواتها » فى « ميلون Melun »

وقد أبى « أناتول فرانس Anatole France » أن يصدق رواية
العجائز واعتبرها من مخترعات العصر وخيالات الأصدقاء . وما عرف
عن جان من البساطة والبعد عن الأدعاء يجعل قول « أناتول فرانس »
أقرب إلى الصدق . وأرجح لدى العقل .

وفى العصر خرجت جان ومعها حاشيتها على رأس القوة تبغى

« مارني » واستعد « دي فلافي » داخل المدينة وجهاز المدافع على الاسوار لكي تحمي القوة في حالة التفهقر .

عبرت جان الجسر وقوتها إلى الضفة المقابلة ، وسلكت الطريق الموصلة إلى العدو . وسرعان ما باغتوه في مأمنه ، وفاجؤه في معسكره وكان وجود جان مع القوة موقعا الرعب في قلوب الاعداء ، ففروا مذعورين وتركوا معسكرهم خائفين مدحورين ، فلما رأى فرسان جان ما حل بالعدو من الذعر ، انصرفوا إلى النهب والسلب ، مدفوعين بعامل الطمع في الغنيمة . وفاتهم متابعة العدو ، أو الاسراع بالعودة قبل أن تدركهم قوات العدو العديدة التي لا قبل لهم بها . . وهو عين ما حدث . اذ بينما هم لأسلابهم يجمعون ، ظهر فرسان على المرتفعات المجاورة ، ورأوا فرسان جان وما كانوا يفعلون في معسكر « مارني » !! فظيروا الانباء في الحال إلى القوات الأخرى في « كليروا » و « فنت » و « كودون » بما حدث في « مارني » فهرعت جميعاً إلى ميدان القتال . وقصدت القوة الانجليزية من « فنت » إلى رأس الجسر الموصل إلى « كومبين » لكي تقطع خط الرجعة على جان وجنودها

و بعد قليل كانت قوة جان قد أصبحت محصورة بين قوات العدو التي جاءت على عجل لانقاذ اخوانهم في « مارني » ولما رأى القوم من فرسان جان قوات العدو تقترب منهم وبدا لهم ما أضاعوه من الوقت الثمين في جمع الغنائم صاح بهم صائحهم « Sauve qui peut »

« النجاة ! النجاة ! من استطاع النجاة فلينج بنفسه » وهنا تنهبوا للخطر المحقق بهم وارتدوا مذعورين وفي غير نظام ، وسرعان ما اشتبك البرجنديون معهم وقتلوهم حتى رأس الجسر ، حيث اختلط الحابل بالنابل ، والعدو بالصديق فلم يستطع « دى فلافى » استعمال مدافع الأسوار ولكنه استطاع بمساعدة القوارب التي كانت مهيأة على ضفة النهر من تمكين أغلبية القوة من العودة إلى المدينة

ولكن أين جان دارك...؟! كانت تحمى مؤخرة جيشها المتقهقر وترد عنه عادية البرجنديين ، وأظهرت في تلك الساعة الحرجة من البسالة وضروب الشجاعة ما أثار إعجاب العدو قبل الصديق...
ولكن ماذا تنفع البسالة والشجاعة أمام تكاثر قوات البرجنديين ونخاذل قواتها وفرارها نحو المدينة...-

ورأى اتباع جان القريبيين منها الخطر الداهم ، فناشدوها أن تعود إلى « كومبين » قبل فوات الفرصة ولما لم تستمع لهم واشتد خوف الرفاق عليها تقدموا وأمسكوا بزمام جوادها وأداروه إلى الخلف نحو « كومبين » وهنا صاحت بهم جان صيحتها المشهورة...-

« هيا إلى الامام ! فهم لنا ! » « Allez en avant ! Ils sont à nous ! »
وهنا سر من أسرار عظمة جان دارك ! أنها لم تكن تعرف معنى الهزيمة والتردد... وكل ما كانت تعرفه أن من يريد النصر يجب أن

يحارب لكي ينتصر .!! أما التقهقر فلم يكن في يوم من الأيام سييلا
للنصر ! ولذلك لم تكن تعرفه أو تنصح به مهما كانت الظروف ومهما
كانت الأحوال ..!

وفي ذلك الوقت كان الانجليز قد وصلوا من « فنت » إلى رأس
الجسر . وكان « دى فلان » قد أمر برفعه خوفا على المدينة أن
تسقط في أيدي العدو المتكاثر . أما جان فلم تنفع معها محاولة رفاقها
في ردها إلى الخلف .. بل ظلت تجاهد العدو وتصيح بأفراد القوة داعية
إلى التقدم والدفاع .. ولكن ذهبت صيحاتها أدراج الرياح .. واحتاط
بها العدو من كل جانب يصيح « ! Rendez vous سلى نفسك !! »
فلم يفقدها حرج الموقف ما عرف عنها من اتزان مصحوب بسرعة
الناظر إذ ردت على القوم قائلة :-

« J'ai juré et baillé ma fois a autre que vous et je lui
en tiendrai mon sermont »

« لقد أقسمت أن أرى عهدا غير عهدكم ولن أحث في يميني اذن
أبدا ...! » وقصدت جان أنها عاهدت الله أن تؤدى رسالتها فلن تخلف
ما عاهدت الله عليه مهما كانت الظروف والأحوال . ولكنها
لم تكذبتم عبارتها حتى بادرها من أتباع « جين دى لو كسبرج »
Jean de lumbuorg أحد الاشراف البرجندين جندي اسمه « ليو نل
دى وندوم Lyonnell de Vendôme وجذبها من فوق جوادها

والتي بها على الأرض وبذلك أصبحت له أسيرة . ثم القي القبض على من كان حولها من الاتباع الملازمين وكانوا « دولون » ، D' Aulon خادمها الأمين ، وأخيه « بوتون Pothon » و « بيير دارك » شقيق جان .

وكانت تقاليد الأسر تقضى بأن تكون جان « أسيرة جين دي لو كسمبرج » الذي كان الجندي الأسر تابعا له .
وبمجرد وقوعها في الأسر جردت من سلاحها وسيقت إلى المعسكر في « مارني »

وفي مساء اليوم الذي أسرت فيه ، جاء دوق برجندية إلى المعسكر لكي يرى الفتاة التي دوخته ودوخت حلفاءه من الانجليز في السياسة وفي الحرب ، وكان لظهورها النتائج الخطيرة التي مر بك ذكرها ... !
وقد طار القوم فرحاً بأسرها وأذاعوه في كل مكان . وسارت بذكره الركبان . وأمر الانجليز بدق النواقيس ابتهاجا في كل الكنائس والبلدان . وصدق « جون لاموند John Lamond » في تصوير شعور الانجليز وما شملهم من الفرح بأسرها حيث قال :-

« Joan of Arc, a prisoner ! England could breathe again ! »
« جان دارك أسيرة ! اذن فلتتنفس انجلترا الصعداء ... ! »

وأخيراً وقعت جان في الأسر ... ؟ ! وصدقت النبوءة التي تلقته على

لسان القديسين في « ميلون » ! ، ووقعت في الأسر قبل عيد القديس
يوحنا المعمدان :- !

ولله در تلك الفتاة فقد قابلت أسرها بهدوء وطمأنينة يليقان بنبيل
جهادها وصدق أيمانها . وكانت عند حسن اعتقاد « أصواتها » فيها ،
فلم تجزع لما أصابها على الرغم من علمها بالخطر المحقق الذي استهدفت
له . وصبرت جان على مصابها كما يصبر أولو العزم ذوو النفوس
الأيية التي خلقت لمغالبة الزمن ، وقهر الأيام .
هذا ما كان من أمر جان ... وماذا كان من أمر « دى فلافي »
وجنوده الذين ارتدوا اليه في « كومبين ؟ »

إن موقف « دى فلافي » من أسر جان كان ولا يزال محفوظاً
بالشكوك والريب ! وقد جاهر بعض المؤرخين باتهامه بالخيانة العظمى
لجان ! وذلك لأنه رفع الجسر ولم ينتظر حتى تعود ... ويرجع هؤلاء
المؤرخون تهمتهم بظواهر وعلل تدخلها في باب المعقول ...
يقولون أن « دى فلافي » لم يستعمل المدافع كما كان واجباً عليه أن
يفعل ! ثم أنه كان واجباً عليه أن يخرج بكل ما لديه من قوة لانقاذ
الموقف ولا سيما وأنه كان يرقبه وهو يتحرج من لحظة إلى أخرى
متطلعاً اليه من فوق أسوار المدينة ، وتحت حماية المدافع فتركه
الحالة تستفحل من غير أن يعمل شيئاً لانقاذ الموقف ومبادرته

باغلاق الجسر قبل عبور جان ، أمران لا يأتیان عفوا ومن غير
تدبير خفي...؟!

وساعد على ترجيح فكرة الاتهام ان « دى فلافى » كان من أنصار
« لاتريمواى » ، عدو جان اللدود . وليت الأمر وقف عند هذا الحد !
فان رئيس الأساقفة عدوها الثاني كان معه فى المدينة عند قدومها كما
سبقت الاشارة ...

تلك حجج وشبهات فريق الاتهام وأنصاره ...

أما الفريق الآخر من المؤرخين فقد استبعد التهمة ، وقال أنه ينقصها
الدليل المادى ، وأن ماظهر به « دى فلافى » من التقصير كان رغم أنه ،
لأنه لم يكن يستطيع درءاً لكل ما حدث ، لأن حامية المدينة لم تكن
تنيف على ... مقاتل ، بينما كان الجيش المحاصر عدة آلاف ، فكان خرقاً
وعبثاً أن ينتظر منه المجازفة بالفئة القليلة التى يحمى بها المدينة من خلف
الأسوار ، لأن ذلك يكون منه بمثابة تسليم الحامية كالخراف للجزار ، وتسليم
المدينة للعدو . فهو فى إغلاق الجسر وعدم الخروج للانقاذ معذور ..

وقد دافع « اندرو لانج Andrew Lang » ، عن دى فلافى بقوله :—

« ... ان تهمة الخيانة التى وجهت إلى « دى فلافى » لا أساس لها
من الصحة ، إذ لم يكن فى استطاعته مساعدة الفتاة بارسال قوة من
حامية المدينة لمهاجمة العدو . ولم يكن فى إمكانه ترك الجسر مفتوحاً

ليواجه هجوم ٥٠٠٠ مقاتل من الانجليز! إن واجبه الأول كان في حماية المدينة وقد حماها فعلاً بهمة ونجاح...

وكل ما يصح لنا ملاحظته على حجج الفريقين أن «دى فلافي» لا يمكن أن يجد مبرراً فيما بدا عليه من عدم الاهتمام كلية بأمر جان دارك بعد وقوعها في الأسر... وبما يزيد في سوء الظن أن رئيس الأساقفة، كتب في ذلك الوقت إلى أهل «ريمس» عن أسر جان يقول... «لم تكن جان تصغي للنصيحة الخالصة بل كانت تتبع هواها في كبرياء وعظمة. وكانت فوق ذلك تحب الثياب الفاخرة...؟!» كتب رئيس الأساقفة هذا الكتاب وهو في «كومبين»، وكتبه بعد وقوع جان في الأسر، ولهجة الكتاب وعبارته تدلان دلالة واضحة على شعور ذلك الرئيس نحو الأسيرة، وقد تدل من ناحية أخرى على شعور «دى فلافي» الذي كان بطبيعة الحال ملازماً له في تلك المدة... أما قيمة ما جاء في الكتاب من حيث صدقه أو بهتانه، فحسب القارئ أن يعلم أن كاتبه كان من ألد خصوم جان في سريره... وأن رأيه فيها وليد الخصومة والبغضاء، وما كان وليد الخصومة والبغضاء، كان هو والافتراء سواء بسواء وقد يود القارئ أن يعرف رأى جان نفسها عن وقوعها في الأسر... سئلت وهي تحاكم فيما بعد عن كيفية وقوعها في الأسر فقالت... «مررت على الجسر وقصدت ورفاق مهاجمة أتباع «جين

دى لو كسمبرج، أعوان البرجنديين ، وتمكنت من زحزحتهم إلى الورا
مرتين ، وفي المرة الثالثة زحزحتهم إلى منتصف الطريق . وفي أثناء ذلك
تمكن الانجليز من قطع خط الرجعة على ، وقد تمكن رفاقي من العودة ،
وعند محاولتي التراجع إلى حقول بيكارديا وقعت في الأسر ، ولم يكن
يني وبين كومبين سوى النهر . . . !»

ولم تنس « كومبين » إلى يومنا هذا وقوع جان في الأسر بسببها
وفي حدودها ، وأن آخر حرب قامت بها في سبيل الوطن ، حدثت في
السهل المجاور لها عند الضفة المقابلة من نهر « واز Oise » ولجان تمثال عظيم
في ساحة المدينة ، وقد نقش على قاعدته عبارتها المشهورة التي قالتها وهي
قادمة لانقاذها ، ولا تزال بعض قباب الجسر الذي كان قائماً في مدة
جان باقية . كما لا يزال الشارع الذي سارت فيه تقصد العدو موسوما
باسمها . وقد علقّت المدينة لوحين تذكاريين أحدهما في المكان الذي
يرجح أنه موقع البيت الذي نزلت فيه وهي في « كومبين » والاخرى
في المكان الذي أسرت فيه عبر النهر .

وفي سنة ١٩٢٩ لما احتفلت فرنسا قاطبة بذكرى مرور ٥٠٠ عام
على ظهور جان دارك ، اشتركت « كومبين » اشتركا كإنهما ومثلت نصيبها
التاريخي فيه .

جان دارك في السجن

لعل القارىء يذكر أن أخوف ما كانت تخافه جان ، عندما تلقت
الانذار بقرب وقوعها فى الأسر، كان تصورها أنها ستصبح يومئذ
فريسة لمحاكمات طويلة ورهينة سجن مقيم . . .

وقد صدق حدسها ، ولم يخب ظننها ، وكان وقوعها فى الأسر بدءاً
لمحنة طويلة وقاسية ذاقت فيها العذاب ألواناً ، وشربت كأس الظلم حتى
الثمالة . . . وهى بعد الفتاة الباسلة الطهور . . .

حقاً لقد ابتليت جان وطال بلاؤها ، واختبرت وطال
اختبارها ، ولم يكتف الظالمون فى ابتلائها وفى اختبارها بكل ما هو متعارف
من أدوات العذاب ومعدات التعذيب ، بل قضى الله ولاراد لقضائه أن
تمتحن فى دعواها بأن تصهر فى النار صهراً ! ؟ فصهرت وخرجت من
كل ما ابتليت به ثابتة اليقين . صادقة الايمان . سليمة العقيدة .
طاهرة الوجدان

وإليك قصة ما جرى لها بعد وقوعها فى الأسر وإليك على صحة
الرأى المتقدم الدليل والبرهان .
نقلت جان من المكان الذى أسرت فيه بالقرب من رأس الجسر
المؤدى إلى « كومبين » ، إلى المعسكر العام فى « مارنى » أسيرة حرب

« لجين دى لو كسمبرج » . وهناك بقيت عدة أيام، وقيل أن «جين» كان ينتظر أن يتقدم إليه « شارل السابع » ملك فرنسا بالفدية فيها، ولكنه لم يفعل . . ! أى والله، لم يتقدم بالفدية ولم يحاول أية محاولة تدل على رغبته فى تخليص جان من الأسر . . ! ؟

أيمكن أن يسفَّ نكران الجميل إلى هذا الحد . وما جزاء سنهار الذى يضرب بجزائه المثل إلى جانب هذا الجزاء !! ؟ . هذه فتاة ترد إلى ملك عرشه بمجهودها وحده ، وتستخلص ملكه من الضياع والدمار ، وتنقذ أمته من عار الهزيمة وذل الانكسار ، وتجلس ذلك الملك على عرش آباءه وأجداده بعد يأسسه وتشريده ، وتعيد إلى هذه الأمة كرامتها وترفع المهانة عنها ... ثم تدور الدائرة وتقع الفتاة أسيرة وهى تجاهد فى سبيل إتمام غرضها . . فلا يتحرك الملك لانقاذها . ولا يدفع المال قلّ أو كثر افتدائها لها . . ! ؟ أليس هذا أمعن فى النذالة من جزاء سنهار ... ؟ أليس مثل هذا الملك فى الجحود ونكران المعروف أحق بالتخليد وأحرى بضرب الأمثال ... ؟

كتب إليه « جاك جيلو Jacques Gelu » ، رئيس أساقفة « إمبرون Embrun » ، وكان معلمه فى صباه ، يطلب منه ألا يدخرو سعاً وأن يسلك كل سبيل فى إنقاذ الفتاة ونبيها إلى ما يلحقه من العار إذا هو توانى أو تقاعس عن إنقاذها، ولكن نصيحته ذهبت أدراج الرياح ... !! وكان هذا

الرئيس هو رجل الدين الوحيد الذي تحركت في قلبه عوامل الشفقة وسعى سعيه لدى الملك وكان سعيه مشكورا وإن كان الملك قد رده خائبا .

وُنسب إلى « لا تريمواي » أنه كان بدسه السبب فيما أظهره الملك من الندالة ، ولكن الجرم أكبر من أن يلتمس فيه العذر بدس الدساسين أو مكر الماكرين . . . أن فضل جان على الملك من الوضوح والبروز بحيث لا يمكن أن تغض منه وقبحة مهما حبكت ، أو تطمسه بغضاً مهما اشتدت . . . انها كانت من الملك ندالة صرفة يجب أن تبقى وصمتها لاحقة به إلى الأبد . . .

ولا يظن القارىء ، أن حنق الأمراء وحفيظتهم على جان ربما كانا يمنعان قبول فداها بالمال مهما عظم ! كلا ! إن تقاليد ذلك الزمن ، وما جرى عليه العرف ، وما سنته قوانين الحروب من السنن ، كانت تقضى بتسليم الأسير إلى قومه متى دفعوا الفدية المقررة عليه . ولم يكن لسنة الفدية وتقاليدھا استثناء ، يتساوى في ذلك الأمير والحقير ، كل له قدر معلوم من المال . فاذا ما أسر وجب فك إساره ، إذا تقدم بفديته واحد من أهله . وتاريخ ذلك العصر يفيض بالأمثلة فما كان يمكن أن ترفض فدية جان . . . وقد افتدى الفرنسيون « دوق دالنسون » صديق جان المشهور لما أسر في موقعة « فرني » ، عام ١٤٢٤ وافتدى الانجليز

لورد « تالبوت » قائدهم العام لما أسرته جان في موقعة « بتاي » . فلو أن شارل السابع تقدم بالفدية لجين دي لو كسمبرج ، لما وجد هذا مفراً من قبورها وفك أسارها . . . وخصوصاً وقد صادف أسر جان وقت أزمة طاحنة لديه فقد كان معسراً محتاجاً للمال . . .

فمن أي النواحي واجهت موقف الملك ، وبأي مقياس من مقاييس المروءة في كل زمان ومكان ، في القرون الوسطى ، أو في الزمن الحاضر ، قسته نجد « نذاته » بارزة ونجد فقدانه للكرامة مجسماً . .

ولما وجد « جين لو كسمبرج » انتظاره عبثاً . أرسل جان إلى قلعة « بوليو Beaulieu إحدى قلاع الحصينة ، وكانت تبعد نحو ٢٠ ميلاً عن شمال « كومبين » ولحق بها خادمها « دولون » ، الذي كان قد أسر معها وقد نقل إليها أنه سمع بأن أهل كومبين سيقتلون جميعاً عندما تسقط المدينة في أيدي العدو .!! وهنا قاطعته جان قائلة : « لا تخف فلن يصيبهم أدنى مكروه . لأن كل مدينة انضمت إلى الملك لن تعود قط للعدو ، مادام أهلها يستبسلون في الدفاع عنها ... »

ولما جاء الانجليز نبأ أسر جان طربوا له وأعلنوه في كل مكان وقال قائلهم « أن أسرها - تلك الشيطانة - يساوي أسرجيش كامل ...! » وأمر دوق « بدفورد » بأن تقام الصلاة في الكنائس كما سبقت الإشارة ، وشرع لفوره يدبر أمر الحصول عليها ، والاتقام منها .

وجاءت أول خطوة في هذا السبيل من ناحية علماء الدين في
السربون، إذ أرسلوا إلى «جين» يدعونه إلى تسليم الأسيرة الكافرة،
لكي يحاسبوها على ما اقترفت من ذنوب وآثام «ضد الكنيسة!» وأشار
هؤلاء السادة الأجلاء إلى مافي تسليمها من خدمة لله، ولكنيسته،
يستحق فاعلمها ثواباً عند الله عظيماً وأجراً في الآخرة كبيراً، ولكن
«جين» لم يكن من الذين يعبؤون كثيراً بثواب الآخرة ويفضلونه على
أجر العاجلة. ولذلك رفض طلب العلماء ولبث ينتظر من «يرسو
عليه المزاد» من الراغبين في الغنيمة...!

وكان «جين» يعامل أسيرته معاملة تتفق ومر كزها الحربي، فلم
يضيق عليها الخناق كثيراً، وكانت جان في ذلك قد بلغت من العمر
ثمان عشرة سنة وخمسة شهور، وهي سن لا يكثرث صاحبها بالخطر الذي
يعترض طريق حياته عند ما يكون لديه حافز قوي يدفعه لتحقيق آماله...
وهذه فتاة أورليان! وبتاي! وريمس! رهينة الحبس في القلعة...!
فهل تلام اذا هي فكرت في الخلاص مما هي فيه بأية طريقة من الطرق؟
أو التمسست النجاة بأي سبب؟ في رأي أنه كان يكون غريباً جداً لو أن
جان رضيت بالسجن أو اطمأنت إليه... ولهذا لم يكن مدهشاً أنها في
يوم من أيام وجودها في «بوليو»، مكرت بالسجان وأدخلته في غرفتها
ثم أقفلت عليه الباب إقفالاً محكماً، ثم اتجهت في هدوء وطمانينة نحو

الباب الخارجى تبغى الخروج من القلعة . ولدى الباب عرفها الحارس
فقال دون خروجها وردها إلى السجن . . . ! رأيت بساطة أو سمعت
عن سذاجة كتلك التى بدت من جان وهى نحاول الهرب ...؟! ولكن
هذه السذاجة وتلك البساطة هما فى الواقع صراحة وشجاعة صادرتان
عن ثقة بالنفس وإيمان وطيد . . .

وكان لهذه المحاولة من جانب جان أثرها ، فقد نقلت بعدها إلى قلعة
« بوريفوار Beaufort » حيث يسكن جين وأسرته ، وقد نقلها اليها لى
يطمئن قلبه على غنيمته ، ولكى يبعدها عن كل خطر ، سواء جاء هذا
الخطر من جهتها ، أو من جهة من يحاول انقاذها ، اذا كان هناك من يفكر
فى مثل تلك المحاولة . . .

وكان نقلها الى « بوريفوار » فى أول أغسطس ١٤٣٠ وبذلك تكون
قد مكثت فى « بوليو » من آخر مايو إلى آخر يوليو من نفس تلك السنة .
وفى « بوريفوار » سجنتم فى أعلى حجرة فى برج القلعة وكانت
ترتفع عن الأرض نحو ٦٠ قدماً وكان للحجرة نافذة تطل على الخلاء
المجاور . . .

وسرعان ما توطدت العلاقات الودية بين أهل بيت « جين »
وبين جان دارك فقد كن يترددن عليها من وقت لآخر ويعطفن
عليها عطفاً كبيراً . . . وكانت الأسرة مكونة من دوقه عجوز ، هى عمه

«جين» ومن زوجه ، وكريمته من زوجه الأولى ، وحاولت الدوقة أن تحملها على العودة إلى التزويج بزى النساء ولكن جان أبت وبينت لها الأسباب التي حملتها على ذلك الزى .

وفي أثناء وجود جان في «بوريفوار» ، بدأ الانجليز يساومون في شراء جان ، فكانت الدوقة تلح على جين أن يرفض بيعها ، وأن يرحم شبابها ، وأن يرقب فيها وجه الله تعالى ، ولكن إلحاحها كان بطبيعة الحال يقع على أذن صماء لأن حب المال والحاجة إليه يعمى ويصم ...

وكان الذى جاء إلى «بوريفوار» يساوم في جان بالنيابة عن الانجليز هو «بيير كوشون» ، أسقف بوفيه الذى طرده الأهلون من مدينتهم عند اقتراب جان منها بسبب ميوله الانجليزية كما مر بك . فكان منها جد موتور ، لأن طرده كان معناه حرمانه من إيرادات الأسقفية ، فوق مافيه من امتهان وزراية بشخصه ، ولن نطيل الكلام عن «كوشون» لأن القارىء سيعرف وسيسمع عنه الشيء الكثير في مستقبل حوادث هذه القصة .

نجح «كوشون» في مفاوضات الشراء وتقرر أن يدفع ثمناً لجان ١٠٠٠٠٠ من الجنيهات ، وهو مقدار الفدية التي كانت تدفع في الأمراء والقواد والعظماء ... وحاول «كوشون» أن يكون الدفع مؤجلاً فأصر جين على أن يكون الدفع فوراً !

ولما كانت خزانة الانجليز في ذلك الوقت خاوية بسبب الحرب التي امتدت طوال الثمانين عاماً الاخيرة كلفوا «كوشون» ، أن يعقد عقداً ابتدائياً مع جين يوقعه الطرفان ، ويحدد فيه الثمن على أن يكون تسليم الأسيرة عند الدفع . . . !

وشرع الانجليز يلتمسون المال اللازم للفقديّة ، ومن عجيب أمر هؤلاء القوم أنهم لم يتجهوا في بحثهم عن المال إلى جمعه من انجلترا ، بل قر رأيهم على أن يجمعوه من طريق فرض ضريبة إضافية على أهل نورمنديّة ، إحدى مقاطعاتهم في فرنسا فكأنهم أرادوا أن يشتروا خصيمتهم الفرنسيّة ، من شريف فرنسي ، وبواسطة مفاوض فرنسي وبمال فرنسي !!

وفرض الانجليز على نورمنديّة إتاوة قدرها ٨٠٠٠٠٠ جنيهه ، ابتزوها منها قهراً ، وارهقوا الناس في دفعها ارهاقاً شديداً أثار حقد النورمنديين على الانجليز ذلك الحقد الذي ظل كامناً حتى انفجر آخر الأمر في ثورة عامّة ، ساعدت على طرد الانجليز نهائياً من تلك المقاطعة ، بل من فرنسا كلها . . .

وعلمت جان بأن يبيعها للانجليز قد تم ولم يبق على تسليمها لهم إلا ان يدفعوا الثمن . . . ! فقلقت من جراء ذلك قلقاً كبيراً ، وقدرت ما هي ملاقيّة بسبب هذا البيع . وكانت المسكينّة قد علمت في ذلك الوقت

أيضاً أن الخطر يحيق بكومبين وأهلها ، وان إشاعة ذبحهم جميعاً عند سقوط المدينة ، قد وجدت لها مصدقين كثيرين ... فأصبحت كالريشة في مهب الريح ، لا تستقر على حال من القلق .

وفي هذه الحالة اتجهت جان نحو « أصواتها » تلمس منها طريقاً للنجاة مما كانت فيه من هم وكرب ... ولما جاءتها « الأصوات » التمس منها أن تأذن لها ! نعم ان تأذن لها في القاء نفسها من النافذة إلى الخلاء المجاور لكي تذهب إلى كومبين تنجدها من الخطر المحقق بها ... وكانت النافذة التي تود أن تقفز منها تعلقو ٦٠ قدما عن

الارض ... !!!

وردت « الأصوات » على جان تمنعها من محاولة القفز ، وتطمئنها على أهل « كومبين » ، وقالت لها « ان الله سيكون معك ومعهم .. » ولما انصرف القديسون عنها لم تكن فكرة القفز قد فارقتها . بل ظلت تفكر تفكيراً عميقاً في الخلاص مما هي فيه بأية وسيلة . ولو كان في هذه الوسيلة موت محقق ... وأخذت وسيلة القفز تتمثل لديها خير الوسائل للخلاص فأن أصابها منها الموت ، كان عزاؤها ان الموت بالقفز خير على كل من حال من الموت الذي يعده لها الانجليز ... !

وهنا موضع للتساؤل . أين شجاعة جان المعنوية ! أين رباطة

جأشها ! وصادق ايمانها ! وصبرها ومصابرتها ! أهكذا ترضى بأن تلقى
بنفسها إلى التهلكة ! أهكذا تستجير من الرمضاء بالنار ! انها لكبيرة
ومن جان تصبح كبيرة الكبائر ... !

كل هذه أسئلة قد تتبادر إلى الذهن عند بحث هذا الموقف من جان ،
ولكن يجب أن نلاحظ أيضاً عند تقدير حالتها في هذا الظرف ، انها
فتاة لم تكن قد تجاوزت التاسعة عشرة من عمرها بعد ، وأنه قد مضى
عليها رهن السجن أربعة شهور لم تصل اليها فيها كلمة عزاء أو مجاملة
من مليكها الذي كانت تحبه وتقده ، ولا من واحد من أولئك الذين
شاطروها مجد النصر وساهموا بنخاره في ميادين القتال ... ! علينا أن
نقدر كل هذا قبل أن نلاحظ بشيء من الدهشة ما أصابها من قلق لم
يرفعه عنها أمر القديسين ، ولا ذكريات أيامها السابقة ، خصوصاً وأن
هذا القلق لم يكن مصدره الرغبة في الحياة لمجرد انها الحياة بل لأنها
الحياة التي يمكن أن تنفع بها الآخرين من مواطنيها .

وأخيراً غلبتها على أمرها فكرة القفز فقفزت ... ! حيث الخلاء
المنبسط الذي يفضي بها إلى كومبين .

وقعت جان مغشياً عليها ، ولما أفاقت من غشيتها لم تجد نفسها في
طريق « كومبين » كما أرادت ، بل وجدت نفسها في حجرتها من البرج حيث
كانت قبل القفز ... ! نقلها الحراس طبعاً اليها وتولى المختصون علاجها .
ومن الغريب المدهش أن جان أفاقت من أثر السقوط بسرعة

مدهشة ، وفي أيام قلائل ، كانت على أتم ما تكون صحة وعافية . أما كيف أنها لم تمت من سقطتها ، من هذا العلو الهائل فكان موضعاً للدهشة والحيرة !!! الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يرجح أنها لا بد قد استعملت جبلاً في هبوطها ! ولكن الواقع الذي لاشك فيه أنها قفزت قفزا غير مستعينة بجميل أو بغيره .. وبعد ان عادت جان إلى حجرتها استغفرت « أصواتها » عن خطئها في القفز ، ومخالفة النصح فغفرت لها ذنبها ، وفرحت جان بهذا الغفران فرحاً شديداً .

أما « جين دى لو كسمبرج » فقد استشاط غضباً لما علم بما حدث ، ومن ثم اشتد في معاملتها ، وضيق عليها الخناق ، وأقام عليها الحراس ، في الليل والنهار لانه خشى ألا تسلم الجرة في كل مرة فتضيع عليه العشرة الآلاف التي كان ينتظرها بفروغ صبر ...

لما اشتد قلقها على مصيرها بعد تلك المحاولات المتكرره نقلها إلى « أراس Arras » حوالي آخر سبتمبر ، وذلك لكي يبعدها عن مواطن الخطر التي يمكن ان تتعرض لها .

وفي « أراس » رسم لها أحد المصورين صورة قالت هي عنها « أنها تشبهها تماماً ، وللأسف الشديد لم يعثر لهذه الصورة الوحيدة لجان دارك على أثر ... (١)

كل ما يرى لجان دارك من الصور والتماثيل هو من مبتكرات الخيال في القرون المختلفة وليس منها واحدة مأخوذة عن الاصل

وفي نوفمبر كان قد تم جمع الاتاوة التي فرضت على نورمنديه
وحمل « كوشون » عشرة آلاف منها إلى جين واستلم منه الأسيرة
وهكذا انتقلت جان دارك إلى ملكية الانجليز . . .

ومن « أراس » نقلها الانجليز إلى « دروجي » Drugy ومنها
إلى « كروتوى » Crotoy الواقعة بالقرب من مصب نهر « سوم
Somme » وهنا رأت جان البحر لأول ولاحر مرة في حياتها . وفي
« كروتوى » زارت جان بعض السيدات من أسرة « أيفيل » D, Abbeville
الشهيرة وأخذن يواسينها . ويخففن عنها همومها ، وكذلك ظهر لها
في تلك المدينة « القديس ميخائيل » مهدثاً من روعها يدعوها إلى
التجلد والصبر .

وبعد ذلك نقلت جان إلى مدينة « إي Eu » ومنها إلى ديب « Dieppe »
في طريقها إلى « روان » مقرها الأخير وتم ذلك حوالى منتصف ديسمبر
سنة ١٤٣٠ .

وفي « روان » أنزلت جان في قلعة تسمى « فيليب أوغسطس »
أكبر القلاع في المدينة . وهي القلعة التي نزل فيها أيضاً هنرى السادس
ملك انجلترا الطفل ، وكان « بدفورد » الوصى على الملك قد جاء به اليها
تمهيداً لتتويجه ملكاً على فرنسا معارضاً بذلك ما عملته جان من تتويج
« شارل السابع » ملكاً عليها في المكان الذي توج فيه آباؤه وأجداده
من قبل أى في « ريمس »

ومن غريب ماروى فى تاريخ جان أن «أصواتها» كانت قد نبأتها قبل حادث القفز ، بأنها سوف ترى ملك إنجلترا الأمر الذى أدهشها وحيرها ، لأنها لم تر السبيل إلى رؤية ملك بينها وبينه مسافات شاسعة وهى فوق ذلك لاتحبه وتبغض رؤياه . . . ! ولكن ها هى ذى النبوءة تصدق ، وها هى ذى جان تنزل فى نفس القلعة التى ينزل فيها الملك الذى لم تكن تتصور كيف يمكن أن تراه ! ولعلها رأته من نافذة السجن الذى زجت فيه ، وهو يخرج ويعود كل يوم بين خدمه ورجال بطائه .

واختيرت «روان» سجناً لجان لأنها كانت مقر السلطة الإنجليزية فيها الجند وفيها العدة والعتاد ، وفيها مظاهر الهيل والهيلمان . . . وكان أهل المدينة من الفرنسيين وقد خضعوا للسلطة الأجنبية ثمانين عاماً أو تزيد فقدوا فيها مظاهرهم القومية كلها عدا لغة الكلام . . . !

وكان حاكم «روان» اسمه «إرل ورك» Earl of Warwick وكان من رجال العسكرية الذين تتمثل فيهم الغطرسة والكبرياء ومن ثمة كان من خصوم جان الألداء ، فلم يكذبها بتسلها بصفته الحاكم الموكل إليه بحكم وظيفته أمر حراستها حتى سلكها فى سلسلة غليظة ، وكتبها بالأغلال ، ثم ألقاها فى حجرة مظلمة وسلط على حراستها خمسة من أشداء الرجال يقومون على حراستها ليل نهار . . .

ومن يوم مجئ جان إلى «روان» ابتدأت معاملتها بالقسوة المتناهية ،

وانصب عليها العذاب أشكالا وألوانا وقاست المسكينة الأمرين، ولولا لطف الله بها، وما أمدها به من صبر وجلد وشدّ أزرها من إيمان وعقيدة، لكانت لاقت حتفها حتما من هول ما تعرضت له من عذاب. ولكي تنفي كل شبهة في المبالغة أنقل للقارىء بعض ما رواه «جون لامند» وهو انجليزى عما لاقته جان من العذاب فى سجنها بروان .. قال : —

« وحبسوها فى قفص من الحديد ، وكلوها بالأغلال ، وطوقوها بالسلاسل فى رقبتها وفى وسطها .

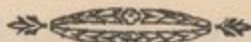
« مسكينة جان ! ترى ماذا كان شعور بطلة أورليان وريمس وهى مكبلة فى القفص الحديدى ! ليس فى تاريخ البشر كله مثل هذه الوحشية ... لولا صدق إيمان تلك الفتاة لفاضت روحها حتما تشكو لبارئها الظلم الصارخ ...

« ولم تطل مدة بقاء جان فى القفص الحديدى ، واكتفوا فيما بعد بأن ربطوها بسلسلة حديدية فى كتلة خشبية وعينوا لحراستها حرساً مؤلفاً من خمسة من الجند الأشداء الشاكي السلاح ووقف اثنان منهما على باب الحجره ووقف الثلاثة الآخرون معها فى الداخل ، وعلى هذا النحو استمرت الحراسة ليل نهار .

« وفى وضع الرجال لحراستها على النحو المتقدم إمتهان لكرامة

« تلك الفتاة الباسلة لا يقدم عليه ذو مروءة من الرجال !! خمسة من
« الجند الغلاظ يوجهون اليها ألفاظهم القاسية ، وعباراتهم المنحجلة ،
« وهي أمامهم مطروحة ترسف في أغلالها . . . ! تلك قسوة فوق طاقة
« البشر احتمالها وخصوصاً وأن هذه الحراسة لم تدم أسبوعاً أو
« أسبوعين بل دامت ماينيف على خمسة شهور . . . ! »

هذه هي شهادة الأهل فيما قاسته جان دارك على أيدي الانجليز . . !
ومن العجيب أن هؤلاء القوم حرموها من حق كانت تعترف لها
به قوانين العصر وتقاليده . . حرموها من أن تسجن في سجن نسائي .
أو في سجن ديني ، حيث يقوم بالحراسة النساء . حرموها من كل حق
مشروع كان لها ، وذلك إمعاناً في النكاية ومبالغة في النكال .
ولبثت جان في السجن على هذا النحو ريثما يبت في أمرها . . .
هذا منتهى قسوة الانسان بأخيه الانسان !



محاكمة جان دارك

وتقررت محاكمة جان دارك أمام محكمة التفتيش ..!! هكذا أراد
الانجليز أصحاب الحق الأول في التصرف في شأن السجينة بحكم
الشراء ..! ومحكمة التفتيش كما تعلم محكمة دينية كانت تؤلف من رجال
الدين خاصة لمحكمة السحرة على ما أتوه من السحر ، والملحدين
الخارجين على الكنيسة على ما اقترفوه من مخالفات دينية وجرائم
كنيسية .

وأى ذنب وأى إثم ارتكبه جان من تلك الذنوب والآثام حتى
تحاكم أمام محكمة التفتيش ..؟ هل كانت ساحرة ..؟ وأى سحرات ..؟ هل
كانت ملحدة ؟ وهل خرجت في قول من أقوالها أو عمل من أعمالها
عن الحدود التي رسمتها المسيحية في بساطتها الأولى لأبنائها ...!
ولكن هكذا أراد الانجليز ومشايعهم من رجال الكنيسة .
اعتبروها ساحرة وملحدة ، وما داموا قد اعتبروها كذلك ، فقد وجبت
محاكمتها على ما اقترفت ..!! وما اقترفت في الواقع شيئاً ، ولكن هذه
كانت مشيئة السلطة الانجليزية أو قل السياسة الانجليزية ... ومتى شاءت
السياسة الانجليزية شيئاً في بلد كانت فيه صاحبة النفوذ الأول فالويل
لمن وقف في سبيلها أو اعترض مآربها ..!!

ولكن كيف برهن هؤلاء القوم على ما أسندوه من تهمة السحر مثلا
اليها...؟ إليك برهانهم :

خرجت تلك الفتاة القروية من بين الحقول والمراعي ساذجة
جاهلة ، وجاءت فأوقعت الرعب في قلوبهم ، واكتسحت قواهم أمامها ،
فولوا مذعورين وهم في كرب شديد ، وأخذت أكبر قوادهم في ذلك
العصر « لورد تالبوت » أسيراً ! ومحت من الأذهان ذكرى « كرسى »
و « بواتيه » ، و « اجنكورت » ... وانتزعت منهم راية النصر ! وغلبت من لم
يغلبوا ومكنت من اعتادوا الهزيمة والقهر من السيطرة والنصر !! فهل من
تفعل كل هذا تكون فتاة في حالتها الطبيعية تصدر في أعمالها عن إيمان
وعقيدة ..؟ إنها لا بد ساحرة يجب تطهير الدنيا منها ومن سحرها !!
تلك كانت حجة الانجليز في زمن جان دارك ! وتلك كانت العقلية
التي صدرت عنها تهمة السحر التي وجهت لها !

والاحقاد والكفر؟ كيف يمكن أن تتهم بهما فتاة بجان؟ ان الكنيسة
في « بواتيه » قد شهدت على لسان الهيئة التي تألفت تحت رئاسة « رئيس
الأساقفة » . . . « بأن جان دارك مؤمنة صادقة الايمان ، وكاثوليكية
سليمة العقيدة ، ولا شيء في شخصها أو لفظها ينافي الدين » ، وقد أفتى
حينئذ إثنان من جهاذة العلماء كان أحدهما عميد جامعة باريس . . . بأنه
لا جناح عليها في ارتداء زى الرجال ، لأنها تقوم بعمل الرجال ، والعدل



يقضى أن تتزيا بزيمهم مادامت تعمل عملهم...
فمن أين جاء الانجليز بهتمتى الاحاد والخروج على أصول الدين !
هم هكذا أرادوا ! وبهذه جرت مشيئتهم... !
والواقع ان السياسة الانجليزية... ! اخترعت التهم اختراعاً !!
على أمل تحقيق أغراضها منها... أراد ساسة الانجليز أن يحصلوا في
ميدان السياسة على مافاتهم في ميادين القتال . وأرادوا أن يستروا الهزيمة
الحرية بأساليبهم السياسية .

كانت جان دارك القوة الحقيقية الوحيدة التي حالت دون
سيطرتهم على فرنسا وضربت نفوذهم فيها ضربة حاسمة قاضية ، وذلك
بانتصارها عليهم في ميادين القتال ، وميادين السياسة ، إذ قضت
ضربتها في الأولى على الوهم الذي تملك الفرنسيين وجعلهم يفرون
فرار النعاج كلما التقوا بالانجليز في ملحمة ، وقضت في الثانية
على ما دبروه في معاهدة (تروى) بنقل حقوق وراثته العرش الفرنسى
إلى ملكهم ، وذلك بتنصيبها ملكاً شرعياً متوجاً تتويجاً قانونياً على
عرش الفرنسيين يجتمعون حوله ويستظلون برايته وسلطانه .

لهذا السبب اتجه القوم إلى فكرة « تزييف » جان دارك . اتجهوا
إلى مهاجمتها في مصدر قوتها وسر نفوذها وذلك باتهامها في عقيدتها
وصدق أيمانها... فلو استطاعوا إثبات تهمة السحر وتهمتى الاحاد

والكفر على جان بوساطة حكم شرعى ، لأنهار الأساس الذى قامت عليه قداستها، وانهارت تبعا لذلك عقيدة الشعب فيها ، كما تنهار شرعية التاج الذى وضعته فوق رأس مليكها ..!

إلى هذا الغرض كان يرمى الانجليز باتهام جان بالسحر والاحاد .. ومن السخف الفاضح، أن نفهم كما أراد البعض أن يفهم ، انهم قصدوا بمحاكمتها وجه العدل ورعاية الكنيسة !!! ما لهذا فرحوا باسرها وما لهذا تكبدوا ما تكبدوا فى شرأها ...!

وزيادة فى السبك والتمويه على النفوس وتضليل العقول دبر القوم أن يكون الفرنسيون أنفسهم القائمون بمحاكمة جان والحكم عليها ...! وأن يقفوا هم خلف الستار يرقبون الحركات ويوجهون التيارات ، لكي يضمنوا سير المحاكمة فى الطريق التى رسموها لها ، ولكي يصلوا إلى الغاية التى يرمون اليها منها

ولم يجد الانجليز صعوبة ما فى إيجاد الفرنسيين الصالحين لمحاكمة جان وفق ما يشتهون ...! فى ذلك الوقت كان قد مضى عليهم مسيطرين على فرنسا زهاء ٨٠ عاماً ، كانوا فيها أصحاب الحول والطول ، بيدهم « سيف المعز وذهبه » ، وكانت مناصب الدولة والكنيسة رهن إشارتهم ، يحصل عليها الذين يراءونهم و يتملقون سلطتهم .

كان فى ذلك الوقت منصب (رئيس أساقفة) كنيسة «روان» خاليا

فلوَّح به القوم لمن يتقدم لقبول رياسة المحكمة ..!! وسرعان ما تقدم لهم
الكثيرون ممن يطمعون في أن يكونوا أساقفة ومن أساقفة يطمعون
في أن يكونوا رؤساء أساقفة !!

وأخيرا وقع اختيار الانجليز على «بيير كوشون»! الوسيط المعروف
لتولى رياسة المحكمة . وجاء اختيارهم له بعد درس وتفكير ، واقتناع
لا يتطرق اليه أدنى شك في صدق ولاء الرجل لهم ، والعمل على مرضاتهم،
ولقد وجدوه لائقا للهمة من كافة الوجوه ! أولها : انه كان يحقد على
المتهمة ويغضها لانه بسببها فقد كرسه في «بوفيه» كما تقدم لك ! ثانيها :
أنهم جربوه في الوساطة بينهم وبين «جين» آسرها فأدى مهمته على خير ما يرام !
وثالثها : وهو أهمها انه رجل مطامع تخلبه بروقها ..! فقد كرسه في بوفيه،
فهو اذن أشد الناس طمعا في كرسي روان ..! لهذه الأسباب ولغيرها
كان «كوشون» رجلهم المنشود وطلبتهم المبتغاه ..! ؟

وتظاهر «كوشون» عند قبوله للرياسة بأنه محمول عليها حملا ،
وذلك لأن جان وقعت في الأسر في مكان يدخل ضمن منطقته
الدينية ..!! وهي الحججة ذاتها التي برر بها قيامه بدور الوسيط في شرائها.
وعكف «كوشون» على اختبار الأعضاء الذين يؤلفون معه
المحكمة ، فاخترهم بطبيعة الحال من المعروفين بميوههم الانجليزية ، ومن

المشهورين برجعيتهم، التي لا يجد التسامح إليها سبيلاً، فيما يتصورونه مخالفاً لقوانين الكنيسة وتقاليدها.

وتم تأليف المحكمة من عشرة أعضاء من كبار العلماء في جامعة السربون، واثنين وعشرين رئيساً من رؤساء الكنائس في منطقة روان، وانضم اليهم جماعة من الرهبان والقسس من مختلف الدرجات الكنسية، وقام بأعمال النيابة العمومية « ليمتر Le Maitre » وكيل النائب العام في منطقة روان. واختير أحد القسس واسمه « منشون Manchon » رئيساً للكتاب الذين يقومون بكتابة المحاضر أثناء الجلسات وكذلك عين أحدهم وإسمه « ماسيو Massieu » حاجباً للمحكمة.

وفي الحق، كانت المحكمة من الناحية الشكلية مستكملة الشروط القانونية إلا فيما يتعلق بتعيين محام للدفاع عنها! فمع أنه كان من حقوق المتهم أن يختار لها مدافعاً لأنها كانت قاصراً لم تبلغ سن الرشد فإن السلطة أبت عليها هذا الحق. وتركتها وحدها تدافع عن نفسها أمام تلك الهيئة المتقدمة.

ومن الانصاف للانجليز أن نذكر لهم حادثاً وقع منهم قبيل البدء في المحاكمة... ذلك أن وفداً من قبلهم كان « ورك » أحد أعضائه ومنه كان أيضاً « جين دي لو كسمبرج » المعروف. دخلوا على جان السجن وعرضوا عليها اطلاق سراحها بشرط « أن تعود إلى قريتها

والأ ترفع السيف في وجه انجلترا أبدأ..!! ، نعم عرضوا عليها الحرية
مقيدة بهذا الشرط...! ولما سمعت جان ما عرضه القوم ، ظنت باديء
ذى بدء أنهم جاءوا يسخرون منها ، ويضحكون عليها ، وهي لديهم مكبلة
في أغلالها...! فأطرقت برأسها ملياً.. فلاحظ الوفد عليها شكها في جدية
العرض ، فعادوا يؤكدون ويعلنون أنهم فيما عرضه عليها لجادون..!
عند ذلك رفعت جان رأسها وهزت أغلالها قائلة : «... إني أعرف جيداً
أن الانجليز يرغبون في موتى ، اعتقاداً منهم أن موتى يعطيهم فرنسا!
ولكنى أنذرهم أنهم مطرودون منها لا محالة ولو زادوا مائة الف من
الجند فوق ما لهم فيها الآن...! » فلم تكذب تنتهى من عبارتها الحماسية
المتقدمة حتى هاج أحد أعضاء الوفد من الانجليز واستل سيفه غاضباً وهم
بضربها على أم ناصيتها ، ولكن « ورك » أسرع ومنعه من فعلته التي
لو كانت نفذت ، للحق الانجليز منها وصمة عار دامغة لا يمحوها الدهر...
وخرج الوفد من لندن الفتاة مطأطأة الرأس بين غاضب ومعجب
وقلق لمصيرها...!

ولله در جان ! لقد فضلت السجن على مادعوها اليه من حرية
مقيدة بعدم الجهاد في سبيل الوطن . ورفضت الحرية بعد أن كان
قد مضى عليها في السجن . شهور عدة كانت في خلالها ترسف في
الأغلال ، وتضيق ذرعاً بأفعال الحراس وأقوالهم... ورفضت باباء

وشمم ، بل رفضت وتوعدت خصومها بالويل والثبور . . .
أى شمم كان شممك يا جان ! وأية بطولة كانت بطولتك ! فان
صفحات التاريخ لا تحمل مثيلاً لها في غير صحيفتك . . . إنك في
موقفك وفي ظروفك قد تحديت شأو البطولة والآباء ، في تاريخ
الإنسانية جمعاء . . .!! ولا عجب أن نطق أحد الإنجليز أمام تلك البطولة
بقوله وهو حيران آسف « ما أشجعها فتاة ! ليتها كانت انجليزية ! »
ولا ريب أن القارىء يوافقنى أن الشعوب جميعاً لا ذلك
الانجليزي وحده كانت لتتمنى أن تكون جان إحدى فتياتها . .

وفي ٣ يناير سنة ١٤٣١ تسلم « كوشون » بصفته رئيس المحكمة
جان من السلطة الإنجليزية واشترطت عليه تلك السلطة أن يردها إليها
إذا ثبتت لدى المحكمة برائتها !! وكان الشرط غريباً في بابه ، شاذاً في
نوعه ، لأن البراءة معناها أو يجب أن تكون معناها الحرية ، وخصوصاً
وهم لم يتهموا بغير تلك التهم الدينية . فلم يكن من حسن النية بعد
إعلانها بالتهمة وتحديد لها أن يحرض القوم على استردادها إلا إذا
كانوا يبيتون لها تهماً جديدة . . . وجان لم ترتكب أية مخالفة لقوانين
الحرب وتقاليدها يصح أن تكون موضعاً لاتهامها فلم تكن عاصية
ولا خارجة على السلطات في كل ما عملته . إذ كانت تشغل منصباً شرعياً
قلده إياها ملك البلاد الشرعى . . . فهى من هذه الناحية بريئة من كل

مخالفة . . فكيف إذن ترد للسلطة إذا ظهرت براعتها ! إن التفسير الوحيد لهذا الشرط الغريب هو أنهم كانوا في قرارة نفوسهم يشعرون بفساد التهم التي وجهوها للفتاة وأنهم رغم ما اتخذوه من احتياطات في اختيار الرئيس والأعضاء كانوا لا يؤمنون بأية شائبة تشوبها ولذلك خشوا أن تظهر براعتها رغم أنوفهم ، وأنوف صنائعهم . . وقد فسر الانجليز وقتئذ شرطهم الذي ألزموه رئيس المحكمة بانهم كانوا أصحاب الحق الأول في الفتاة ! بريئة كانت أو مذنبه لأنهم اشتروها بأموالهم ! وانسحق في هذا باد واضح لا يحتاج إلى تفنيد . . .

وقبل أن نشير إلى ماجرى في محاكمة جان يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى بعض مظاهر الشذوذ التي لازمت المحاكمة من أولها إلى آخرها . وأولى تلك المظاهر كان حرمان المتهم من محام يدافع عنها كما أسلفنا . وكان الشذوذ في ذلك بارزاً واضحاً لا يسيغه العقل المنزه عن الهوى . فقد تألفت المحكمة من كبار العلماء المنتسبين في اللاهوت وفضائل الفقهاء في العلوم العقلية والمباحث الجدلية . والمتهمة قروية أمية ، ليس لها من أهبة سوى عقيدة سليمة وقريحة وقادة وذهن حاضر وهذه كلها كانت هبات فطرية امتازت بها بالسليقة . فالموازنة بين هيئة المحكمة وما اجتمع لها من علم وخبرة ووسيلة وبين المتهمه عزلاء من كل معونة ، تبرز للقارىء أول وجوه الظلم الفاضح الذي لازم المحاكمة

إذا أضيف وهذا إلى بقية المظاهر من تصميم القوم على أن تجرى المحاكمة بين سمعهم وبصرهم في مدينة روان الجامعة لكل مظاهر نفوذهم ، ومن التحايل على إيقاع الفتاة في شراكهم بطرق ملتوية تأبأها الانسانية كما تأبأها الشرائع السماوية والوضعية ، مما سنذكر طرفاً منه في خلال بيان إجراءات المحاكمة ، ومن إرهابها بالسلاسل والاغلال وعدم خلعها عنها حتى وهي في حرم المحكمة تسمع وتجب سائلها ، فان ذلك جميعاً يحسم أمامك مقدار الغبن الفاحش الذي كان نصيبها من الأول الى الآخر .

وأغرب مما تقدم أن هيئة المحكمة بدأت المحاكمة وهي مقتنعة بصحة التهم التي وجهت للتهمة ، وكانت مهمة الأعضاء ورئيسهم ليست منحصرة في تعرف وجه الحق والعدل فيها كما كانت تقضى أوليات العدالة ، بل كانت كلها منصرفة إلى محاولة إثبات تلك التهم ... بالتعسف والتعننت في تفسير أعمال الفتاة وأقوالها ، وإثارة الشبهات والشكوك الدينية حول تصرفاتها . وقد تكبدو وهم الأعلام في مادتهم ، مشقات جمّة من كدالذهن وإعنات الخاطر ، لكي يدينوها بأقوال وتفسيرات لها ، تكون مخالفة الأصول الشرعية . فخابوا جميعاً ، وصمدت لهم جان وخرجت من المعركة في « شرعة الحق والانصاف » ، فائزة منتصرة واضطروا أخيراً أن يحكموا بادانتها ولكن بادانتها ثجراً واقتداراً .

وظلماً وعدواناً، ولا تقل في واضح تعسفها عن الأساس الذي قام عليه
الاتهام أصلاً.

وإلى القارىء وصف ما جرى في المحاكمة. وسيرى من هذا الوصف
المحاولات الجائحة التي قصد بها إثبات التهم على جان.

وقبل أن تبدأ المحاكمة أوفد « كوشون » رسولا إلى دو مريمي
يستطلع الرأي عن نشأة جان الأولى، وأمره أن يستقصي، وينقب،
لعله يهتدى إلى ما يعزز الاتهام. . . ! وكان إيفاد مثل هذا الرسول في
المحاكمات الدينية من الواجبات التي يفرضها القانون. وكما كان يفرض
تضمين نتيجة بحث الرسول محضر الجلسة ويكون جزءاً لا يتجزأ منه.
وذهب الرسول يبحث ويستقصي، وبعد انتهائه عاد يقرر في صراحة
أنه وجد سلوكها مثالا يحتذى في الصلاح والتقوى وأنه « يتمنى أن
تكون أخته من أمه وأبيه على ما كانت عليه جان سمعة وسلوكا »

اطلع « كوشون » على نتيجة التقصي، وكان واجبا عليه كما قلت
أن يضمه صدر المحضر، ولكنه عمد إلى عدم إدراجه، وحرص على
إخفائه. ولم يجرؤ انسان أن يسأل عن هذا النقص في المحضر، مما يدل
على ما كان مصلتا فوق الرؤوس من « سيف المعز أو ذهبه »

ولم تبدأ المحاكمة في أول أمرها في شكل جلسات علنية. بل بدأت
في شكل زيارات خاصة للفتاة في سجنها. كان يقوم بها « كوشون »

وأعضاء المحكمة . وكان الغرض من تلك الزيارات مناقشة المتهم في كل صغيرة أو كبيرة مرت عليها في أدوار حياتها المختلفة . وكان هم «كوشون» الأول أن يجد من زلات لسان الفتاة ما يدينها به ، وما يقوم أساساً للتهم الموجهة إليها . وقد بلغ به حرصه في هذا الباب أن ارتكب كبيرة من الكبائر التي تتنافى مع القانون ومع أبسط مبادئ الخلق الكريم ! ذلك أنه اختار من بين رجاله واحداً عرف بالمكر والنديدة والقدرة على التخفي وتقليد اللهجات المختلفة إسمه « نيقولا لواز يليير Nicolas L'oiseur » وأرسله إليها في السجن في زى صانع أحذية أصله من اللورين موطن جان . وأخذ «الصانع» الموهوم الذي ساقه سوء طالعته إلى السجن يتحدث إلى جان عن «ملك فرنسا» ويورد نتفا من أخباره ويصيغها في عبارات ودية . كل ذلك تمويهاً عليها لكي يكسب ثقتها ، وقد اطمأنت جان إلى الرجل وبادلته الحديث ، وانتقلا من موضوع إلى موضوع ، حتى شمل الحديث كثيراً مما جرى لها ومنها من الحوادث ..! وبينما كان «الصانع» وجان يتجادبان أطراف الحديث على النحو المتقدم كان «كوشون» ومعه فريق من الكتاب يسمعون في الحجرة المجاورة ، ومن ثقب أعد خصيصاً لذلك ، كل مايجرى بين الفتاة ونيقولا ، ويدونونه في المحضر !! على أمل أن يجرى لسانها ، في حديث كهذا يأتي عفواً ومن غير تحرز ، بعبارات تمس من قريب أو من

بعيد مبادئ الكنيسة الكاثوليكية وقواعدها المقررة . ولكن جان البريئة ، وإن كانت قد خدعت في حقيقة الصانع ، إلا أن حديثها معه دل على أن سرها وعلنها مصدرهما واحد وهو الإيمان الصادق بالله وصدق أصواتها وقدسية رسالتها .

ودامت المناقشات الخاصة بين جان وقضاتها أسابيع عدة ، وكان المحور الذي تدور حوله هو معرفة المصدر الذي كانت تصدر عنه « أصوات » جان . وهل كان مصدرها من القديسين أو كان من وسواس الشيطان الرجيم .! هم يريدونها على الاعتراف بأنها كانت « أصواتاً » شيطانية ، وجان تصمم وتقرر أنها كانت أصواتاً قدسية . ولم يكن لدى القضاة أدنى شك في أنها كانت تسمع أصواتاً ، ولم يكن سماعها موضعاً للتحقيق ، إنما كان التحقيق كله منصباً على المصدر . ومن الغريب أن من الأدلة — إن صح يوماً من الأيام أن تقول على السخف واللغو الفارغ أدلة — أن القضاة وعلى رأسهم « كوشون » كانوا على يقين من « شيطانية » الأصوات أتدري لماذا .!؟ لأنها كانت السبب في هزيمة الانجليز!؟ وما كان يمكن للانجليز أن يهزموا لولا أن « الأصوات » كانت شيطانية خبيثة .!!

وكانت إجابات جان دائماً واضحة سديدة مفحمة لا تعرف التلعثم أو التردد ، حين ثبتت ثبات الطود على أن « أصواتها » كانت من

عند الله وأنه سبحانه وتعالى أراد ولا راد لمشيئته أن يعود الانجليز الى بلادهم « التي أعطاهم إياها » وأن يتركوا فرنسا لأهلها وأخيراً قر الرأي على أن تبدأ المحاكمة في جلسات علنية كنص القانون . وفي يوم الأربعاء ٢١ فبراير سنة ١٤٣١ عقدت أول جلسة علنية في معبد القلعة ...

وبدأت الجلسة في تمام الساعة الثامنة صباحاً ... وهنا أترك القول لشاهد عيان (١) تمكن من أن يعمل كمساعد « لمنشون » رئيس الكتاب يصف الجلسة وما جرى فيها ... قال : « وفي الصباح الباكر كنت مع منشون في طريقنا إلى مكان الجلسة . وبالقرب من القلعة وجدنا الجمهور محتشداً يتزاحم على الباب . ولم يبق موضع لقدم ، لا في قاعة الجلسة ولا في الطريق المؤدية إليها . وقد وقف فريق من الجنود . يمنع دخول غير المختصين من رجال المحكمة

» ولما اكتمل العدد استوى « كوشون » في كرسى الرياسة وكانت منصة عالية وجلس الأعضاء أمامه صفا صفا ، وكانوا جميعاً رئيساً وأعضاء في ثيابهم الكهنوتية . وفي جانب المحكمة أقيمت منصة ووضع عليها مقعد خشبي من غير سند وكان هو المقعد الذي خصص لجلوس المتهم

(١) هو لويس دي كسنت غلام جان وقد سبقت الإشارة إليه .

« ولما وقع بصرى على هيئة المحكمة وتبينت من فيها من العلماء
« البارزين ، ذوى الخبرة والاضطلاع بالجدل الدينى والفقہ الشرعى
« وتذكرت أن جان تقف أمام هذه « الهيئة » الموقرة من غير معين ،
« مدافعة من عقيدتها وشرفها وحياتها ، وهى عزلاء مجردة من كل
« سلاح لإسلاح الحق واليقين . قلت فى نفسى ، كيف تستطيع تلك
« الفتاة القروية ان تجد لها مخرجاً فى هذا العراك غير المتكافئ ،؟! وشملى
« الحزن وبلغ اليأس منى الصميم . ولكن عدت وتذكرت موقفاً
« كهذا وقفته جان فى « بواتيه » حيث ناظرت فيه علماء كهؤلاء
« العلماء فقها وجدلاً ، وحيث انتصرت فى النضال عليهم نصراً مبيناً ،
« فسرت عنى ذكرى بواتيه بعض ما كنت أقاسيه من الهم والغم .

« وإنى لغارق فى تأملاتى ، سابع فى ذكرياتى ، واذا الرئيس ينادى
« هاتوا المتهمه ! . وهنا ساد صمت عميق ! وحبس الناس أنفاسهم
« وانصتوا كأن على رؤوسهم الطير ، واتجهت الوجوه جميعاً نحو باب
« القاعة . ودام الحال كذلك بضع دقائق ... ثم أخذنا نسمع صوتاً
« بعيداً كصوت رنين السلاسل ، كان فى أوله مبهماً غير واضح . ولكنه
« كان يقترب منا ، وكلما اقترب ، ازددنا يقيناً انها جرجرة السلاسل
« تلك التى نسمع صليلها ... وأخيراً ظهرت جان فى باب القاعة ،
« وعند ظهورها تملكك الحضور رعشة ، وأخذتهم رعدة وانحبست

«أنفاسهم عند ما رأوها تخطر خطرات وثيدة من ثقل ما تحمل من
«سلاسل، ومن أثر التعب المضني الذي لحقها من طول عذابها . وكانت
«ترتدى ثوباً كأثواب الرجال أسود قائماً يحاكي الليل البهيم في
«حلكته . وفي طريقها إلى المقعد ، انعكس عليها شعاع النافذة فبدأ
«وجهها على ضوءه كقطعة من الثلج الناصع ، وكانت لرؤيته هزة
«عنيفة سرت بين الحضور ، وانخلعت لها قلوبهم أسى وحرزنا ...

«وعلى المقعد المخصص لها جلست جان ، بعد أن جمعت سلاسلها
«بين رجليها ... وهنا غلبت أحد الجنود من الانجليز الحماسة فانتفض
«قائماً وأدى التحية العسكرية لها فابتسمت له وردت تحيته بمثلاً .
«فضج المكان بعلامات الاستحسان من النظارة بما دعا الرئيس إلى
«أن ينبه إلى مراعاة النظام

«ثم أعلن الرئيس افتتاح الجلسة . وأمامه ورقة حصر فيها ما جمعه في
«اثناء المقابلات السابقة من أدلة الاتهام . وكانت مدهشة بما احتوته .
«وما احتوت إلا أراجيف وأضاليل اعتبرها تهماً موجهة إلى جان ،
«وكانت كلها عبارة عما نسبته الاشاعات التي روجها الخصوم ضدها .. ليس
«فيها تهمة واحدة تنهض على أساس صحيح من أقوال جان أو أفعالها ..
«وبعد إعلان افتتاح الجلسة دعاها « كوشون » لأن تركع وتقسم
«اليمين القانونية على أن تقول الحق في كل ما يوجه اليها من الأسئلة .

« فاجابت وهي هادئة مطمئنة : « كلا ياسيدى لن أقسم كما تريد لاني
« لست أدري ما ستسألني عنه ! وقد تسألني عن أشياء مما حرم على أن
« أبوح بها !.. » . فلم تكذب تنهتني من ردها حتى كان ضجيج المحكمة يدوي
« في المكان . وكان « كوشون » أشد الجميع غضباً وحنقاً ، لأنه لم يكن
« يتوقع أن ترفض المتهمة أن تقسم اليمين وهي أساسية في الدلالة على
« شرعية الاجراءات أو بطلانها .. ولذلك صاح بها غاضباً ... » باسم
« الله أطلب منك أن تنفذى الاجراءات على وجهها الصحيح ، وأن
« تضعي يدك على الانجيل وتقسمي على أن تقولي الحق في كل ما يوجه
« اليك من الأسئلة » . وأتبع هذا ضربة عنيفة غاضبة على المنضدة .

« وفي هذه الأثناء كانت جان هادئة لم تحركها الضجة التي أثارها
« ردها الأول . وعندما انتهى « كوشون » من طلبه الثاني التفتت اليه
« وهي متمالكة لكل حواسها وقالت له : « في كل ما يخص أبي وأمي
« وعقيدتي وما قمت به من الأعمال في سبيل فرنسا تجدني على تمام
« الاستعداد للإجابة . ولكن في كل ما يخص ما تلقيته من وحي
« فقد أمرت ألا أبوح به إلا للمليكي .. » ولم تكذب تصل إلى هذا الحد
« من الاجابة حتى ثارت نائرة القوم مرة أخرى أشد من الأولى ، وحدث
« هرج ومرج سادا المكان كله . ولكن ذلك لم يمنعها أن تتم ردها
« قائلة : « ولن أبوح لكم بهذه الأشياء ولو فصلتم رأسي عن جسدي !.. »

«وكانت عبارتها الأخيرة سبياً في اشتداد هياج المحكمة حتى أن
الكثيرين من الأعضاء وقفوا في أمكنتهم صاخبين، وصاروا يهدرون
«كالأبل، ويلوحون بأيديهم في وجه الفتاة. وهي لا تكاد تفقه لهم قولاً
«من شدة ما اشتمل القاعة من ثورة وتفزز. وبما غاظهم وزاد في
«ثوراتهم مارأوه من عدم كترائها لغضبهم وصياحهم. وأخيراً أرغمتهم
«جان على الانصات بقولها لهم: «مهلاً يا سادة. تكلموا واحداً
«واحداً حتى تمكنوني من الرد عليكم جميعاً...»

واستمرت المناقشة مخدمة من أجل اليمين بين المحكمة من جانب
وجان من الجانب الآخر ثلاث ساعات كاملة لم يستطيعوا فيها
زحزحتها قيد أملة عن موقفها...! ولما أعيتهما الحيلة، وكان قد أدركهم
التعب من شدة ما اتابهم من انفعالات وتهميج، والفتاة باقية على
رأيها مستمسكة بهدونها وسكينتها، اضطروا إلى الاكتفاء بأن تقسم كما
شأت هي أن تقسم...؟! ولدى هذا الانتصار المعنوي الباهر من جانب
الفتاة قام الجندي الذي حياها عند قدومها وحياها مرة أخرى في
حماسة شديدة. وأردف تحيته قائلاً: «أقسم بالله لو كانت هذه الفتاة
انجليزية لما بقيت في سجنها ثانية واحدة...!»

لو كانت هذه الفتاة انجليزية...؟! ترى ماذا كان وقع هذه الكلمات
الصادرة من الاعماق على من كان حاضراً من الفرنسيين في الجلسة؟؟
لا شيء! ولكن هل كانوا فرنسيين حقاً؟ انهم كانوا أشباه الرجال ولا

رجال... ولذلك مرت كلمات الجندي فوق رؤوسهم ، لم تثر منهم
نخوة ولم تحرك هممة .

وأدت جان القسم كما أرادت . وبدأ « كوشون » يسألها الاسته
المعتادة عن ميلادها وعمرها وأسرتها . ولما سألها عن نصيبها من التعليم
قالت : « تعلمت صلاتي وأخذت عقيدتي عن أمي ، بل منها تعلمت كل
ما أعلم...! »

وبعد عدة أسئلة اعتيادية ختم الجلسة بتحذيرها من محاولة الهرب ،
لائها إن حاولته حقت عليها تهمة الزندقة...! ولم تشأ جان ان تترك
تحذيره من غير رد فقالت له : « انى لست مقيدة بهذا المنع ، وإذا أتيح لى
الهرب فلن أتأخر عنه ، لاني لم أعد ، ولن أعد أحداً بتجنب الفرصة إذا
سنحت لى...! »

وقبل أن تغادر مكانها عائدة إلى السجن التفتت الى الرئيس شاكية
له ثقل أغلالها واتمست رفعها عنها ، إذ لا داعى لها وهى فى حراسة قوية
وفى سجن مظلم . ولكن « كوشون » أبى ان يجيبها إلى ما طلبت ،
وذكرها بانها قد حاولت الفرار من سجنها مرتين ، ولم تشأ جان ان
تكرر الطلب ، بل اكتفت بترديد قولها : « حقاً لقد حاولت الفرار ولا
زلت أحاوله...! » وأردفت قولها فى صوت خافت بعبارة مؤثرة هى :

« أليس الفرار حقا لكل سجين !؟ » ثم سارت تجر اغلالها عائدة الى السجن بين صمت عميق وتأثر باد من الجميع ..

وفي اليوم التالي عقدت الجلسة في حجرة أخرى من حجر القلعة لأن المعبد دل على انه لا يتسع لكل الراغبين في الحضور فقد كان أعضاء المحكمة من قضاة وقضاة محلفين لا يقل عن ٦٢ شخصا ، عدا الجمع الغفير من النظارة الذين كانوا يتسابقون الى الحضور

وبعد اجراء المراسم المعتادة أعلن الرئيس افتتاح الجلسة ... وكان أول سؤال وجهه للفتاة . أن طلب منها أن تعود فتقسم اليمين كاملة من غير قيد ولا شرط .. ! وكأنه أراد بهذا أن يمتحن صبر جان مؤملا أن يجد من مللها أو إشفاقها من طول العراك لينا وقبولا في إجابته إلى طلبه ، لأنه لم يكن مطمئنا تمام الاطمئنان لصحة اجراءاته إذا بقيت جان مصرة على يمينها المقيدة . ولكن جان لم تكن تعرف التردد والنكوص على الاعقاب فلم تكذب تسمع ما طلبه خاصا باليمين حتى أجابت في هدوئها المعروف ... « سيدى ! لقد أقسمت بالأمس ، وفي قسم الأمس الكفاية ، فألح الرئيس وكرر إلحاحه . وعاوده غضبه وانفعاله . ولكن جان لم تزد على تكريرها عبارتها المتقدمة . ولما استمر يلح ويلحف قالت له في تأثر : إنكم حقاً لترهقوننى . !! وأخيراً يئس منها « كوشون ، وتركها غاضبا لا أحد زملائه المسمى

« بويير Beaupere » وكان بويير هذا من أعلام عصره المعروفين بقوة العارضة ، وله طريقة ماكرة في الجدل ، يأخذ مناظره بالنعومة الظاهرة في صوغ سؤاله تارة ، ويأخذه بالحيلة والخب تارة أخرى . فلما تولى توجيه الأسئلة لجان ابتدرها في نعومة ظاهرة بقوله : « ان الاشكال بيننا وبينك يا جان هين عليك انهاؤه ، لأنه ينحصر في إجابتك بالحق والصرامة برا بقسمك على كل ما نسألك عنه . » أرأيت كيف حشر « بويير » عبارة « برا بقسمك » في حوارهِ مع الفتاة ! يريد بذلك ان تجيب « بالحق والصرامة » على « كل ما نسألك عنه » ! وهل هي حقاً أقسمت على ان تجيب على كل ما تسأل عنه ؟ ألم تجعل حداً فاصلاً بين ما تبوح به وبين ما لا تبوح به ؟ ولكن « نعومة » السائل لم تغنه من الحق شيئاً ، لأن جان كانت حذرة يقظي يدلك على هذا إجابتها على قوله المتقدم إجابة سريعة موفقة حيث قالت : « . . . كلا ! فقد تسألني عن أشياء محظور عليّ ان أبوح بها ! » وبهذا الرد الحاسم اصطدم « بويير » بأول فشل له مع جان . ولذلك بادر باللف والدوران ، وشرع يهاجمها بأسئلة ظاهرها بريء ومعظمها تفه ، وذلك لكي يصل إلى غرضه من ناحية أخرى . سأهاها عما إذا كانت تعرف شغل الابرة والتدبير المنزلي ، فكان لها على هذا رد مشهور عنها إذ قالت له . . . « نعم تعلمت الغزل والنسيج والتطريز وإني من هذه الناحية لست بأقل من أية امرأة في

روان ! ، فضى يسألها ، وهل كان لك عمل آخر ! غير أشغال المنزل ؟ .
« نعم كنت أساعد والدتي وعند ما أفرغ من العمل معها أذهب للبرعى
بالغنم والماشية ، وهنا حاول في كثير من الخداع أن يسألها عن أشياء
تمس من بعيد المحظورات التي منعت من الخوض فيها ، فكانت نجيبه في
رفق ، انتقل إلى ما هو من شأئك أن تسأل عنه ، وهذا الرد أفسدت
عليه كل حيلة وأقفلت في وجهه كل باب ، ولم يتمكن أن يصل إلى سؤالها
في « محظوراتها » بالرغم من كل ما سلكه من سبل او التجأ اليه
من حيلة .

وانتقل « بويير » فجأة يسألها صراحة في موضوع « أصواتها »
قائلاً :-

— متى بدأت تسمعين الأصوات ؟

— بدأت أسممها لأول مرة لما بلغت الثالثة عشرة من عمري .

سمعت صوتاً يناديني بقوله « كوني ابنة طيبة و سنت حينئذاك في
حديقة المنزل وكان الوقت ظهراً وفي زمن الصيف ،

— هل كنت صائمة ؟

— نعم كنت صائمة .

— ومن أى جهة جاء الصوت ؟

— جاء من ناحية اليمين ومن جهة الكنيسة .

- هل جاء مصحوبا بنور ساطع ؟
- نعم كان ساطعا ، و بعد ذلك كنت أسمع الصوت عاليا
- وما صفة هذا الصوت ؟
- كان صوتا كريما . واعتقد أنه يهبط من السماء . وفي ثالث مرة سمعته تبينت أنه صوت ملك كريم .
- أ كنت تفهمينه ؟
- بسهولة تامة ، أنه كان فصيحاً واضحاً .
- ولما وجد « بويير » انها تجيبه ، ظن أنها اطمأنت إليه فحام حول « محظوراتها » وسألها :
- وعلى أية صورة من الصور كان الملك يظهر لك ؟
- هنا بدلا من أن تسمعه الاجابه على سؤاله حملت فيه بشكل دل على سوء ظنها بالسائل و اكتفت بان قالت له :
- لن أقول لك شيئا عن هذا .
- فلم « يتخرج بويير » من هذا الرد وكظم غيظه واستأنف استجوابه لها
- وهل كان الصوت يعاودك كثيراً ؟
- مرتين أو ثلاثة في الأسبوع الواحد . وفي كل مرة كان يقول لي « غادري قرينتك واذهي إلى فرنسا » .

- وهل كان والدك على علم بسفرك ؟
— كلا ! لأن الصوت كان يلح على في الذهاب إلى فرنسا فلم
أستطع البقاء أكثر مما بقيت
— وماذا قال لك الصوت غير ما تقدم ؟
— قال أنى سأرفع الحصار عن أورليان
— أهذا كل ما قال ؟

— وقال أيضاً بأن أذهب إلى فو كوليروان روبرت دي بودريكور
سوف يعطيني حرسا يذهب معى إلى فرنسا . ثم أخذت تسرد
قصتها مع « روبرت دي بودريكور » وما جرى لها في « فو كوليروان »
إلى ان قامت قاصدة « شنون »

أيدرى القارىء السر في مناقشة جان في شأن أصواتها على النحو
المتقدم ؟ السر هو ان « بويير » كان يأمل ان يجد في إجابتها منفذا
للتأويل السيئ عن صلتها بالشياطين ، ومن ثمّ يثبت عليها السحر ! هذا
ما كان يرمى اليه بجولاته المتكررة في موضوع « الأصوات » ، ولكن
جان كانت حريصة بقضة خبيت ظنه برودها البريئة ، وبايقافه عند حده ،
وعدم السماع له بالخوض في الشؤون التي حرمت عليها الأصوات ان
تبوح بها لأحد

ولما يئس السائل من باب الأصوات . انتقل يناقشها في باب ثيابها

ومخالفة جنسها في التزيى بزي الرجال . وشرع يسأها عنها ولسان حاله يقول « إن خبت في الاولى فلن أخيب في الثانية ! » قال

— أى رداء كنت تلبسين ؟

— كنت أرتدى ثوبا من ثياب الرجال وسيفا أخذته من .

« دى بودر يكور » ولم يكن معى سلاح غيره .

— ومن الذى نصحك بان تلبسى ثوب الرجال ؟

سؤال خبيث ..! فلو أنها قالت بان الذى نصحتها به هو « صوتها »

لكان قد فاز ببيغيته منها من أقرب طريق . وذلك لأن الصوت الذى

ينصح النساء بارتداء ثياب الرجال لا يمكن أن يكون صوتا قدسيا ،

ولان الأصوات المقدسة لا تنصح بما يخالف أصول الكنيسة وتقاليدها ،

اذن يكون الصوت الناصح بالمخالفة صوتا شيطانيا ، ومتى كان كذلك

ثبت من أقوالها أنها كانت متصلة بالشياطين ، وانها ساحرة تخدم أغراضا

سفلية ... الى هذا رمى « بويير » بسؤاله . ولكن جان أدركت فى الحال

قصده . فخفيت أمله وذلك بأن قالت له إنها ترفض الأجابه على السؤال .

ولكنه عاد وكرر السؤال . فكررت هى الرفض أيضاً . فهددها بقوله

« إني أمرك أن تجيبى السؤال » . فكان كل جوابها على هذا التهديد ...

« انتقل إلى موضوع آخر ! »

هل أدركت أيها القارىء الآن حكمة جان فى رفضها أن تقسم

على قول الحق عن كل ما تسأل عنه ؟ لو كانت أقسمت على الانجيل بان تقول الحق لكنت اضطرت في مثل الحالة المتقدمة أو ما يشابهها أن تبوح بسر أصواتها جميعاً ، أو كانت ترفض أن تبوح بالسر فتقع في محذور الحنث يمينها . والحنث باليمين جريمة لا تغتفر . أى أنها كانت تقع بين نارين ، نار البوح بالسر الذى أوتمنت عليه ، ونار الحنث باليمين على كتابها المقدس . هذا هو السر في تشدها في مسألة اليمين . ولذلك لما كانت حيال الأسئلة الخاصة أو المخرجة تكتفى بالرد على سائلها بقولها « انتقل الى موضوع آخر » لم يكن في مقدوره أن يعتبر ردها عجزاً عن الاجابة وأن يعتبر عجزها اقراراً له بما يريد ، وذلك لعلمه بتحفظها في مسألة القسم . . .

وانتقل « بوير » طوعاً لاشارتها الى موضوع آخر وعاد يسألها عن حوارها مع « دى بودريكور » وما شيعها به ، وغير ذلك من الموضوعات المختلفة . الا أنه لم يلبث حتى عاد الى موضوع الزى فافهمته الضرورة التى قضت عليها بالتزى بزى الرجال ولكنه لم يكتف بتفسيرها وفاجأها بالسؤال الآتى

— وهل الصوت هو الذى نصحك بهذا الزى ؟

فاجابته ببساطة « اعتقد دائماً أن الصوت كان ينصحنى نصائح

طيبة . . . ! »

و بذلك استيقن أن ليس في استطاعته زحزحتها من مكانها في
موضوع الزى واضطر إلى تغيير الموضوع ، و شرع يسألها في موضوع
مقابلتها للملك في « شنون » ثم عاد فجأة الى موضوع « الأصوات »
وابتدرها هذه المرة قائلاً

— ألا تزالين تسمعين الأصوات حتى الآن ؟

— أسمعها كل يوم

— وماذا تطلبين منها ؟

— لا اطلب منها جزاء ولا شكورا ، فكل ما ابتغيه هو رضاها عني

— هل كانت الأصوات تريدك دائماً على ان تكوني مع الجيش ؟

— في « سنت دنس St. Denis » امرتني الأصوات بالتخلف ، و كنت

فعلاً أود البقاء حيث كنت ، ولكنني لم أترك حرة في اختياري . ولما
كنت في ذلك الوقت جريحة لم أستطع مقاومة الفرسان الذين حملوني
على السير معهم بالقوة .

— ومتى كنت قد جرحت ؟

— جرحت في أثناء الهجوم على باريس

وهنا توجه نظر القارىء إلى الكيفية التي خدع بها « بوير » جان

في الأسئلة التالية حتى أوقعها في المحذور ، ثم إلى الكيفية التي تخلصت بها

جان من ورطتها الظاهرة . سألها بعد اجابتها الأخيرة قائلاً :

— وهل كان جرحك في يوم عيد ؟

وهنا بدت عليها علائم الخيرة ولكنها قالت

— نعم كان اليوم يوم عيد

— والآن نبئيني يا جان ، هل تعتقدين في صواب إعلان الهجوم

والحرب في يوم من الأيام المقدسة ؟

أرأيت ؟ كيف يمكن « لقديسة » ، أو لأمي مؤمن يصدر في أعماله عن خالص الايمان أن يحارب أخاه في الدين في يوم عيد من الأعياد المقدسة ؟؟ إلى هذا الشرك ساق « بوبير » جان دارك ، وقد احست هي بالفخ المنصوب لما سألتها عما إذا كان جرحها قد حدث في يوم عيد . وكان احساسها بهذا الفخ هو الذي ارتبكت له قليلا عند الاجابة . وهاهو بسؤاله الأخير يضعها أمام الأمر الواقع ، بل يضعها في اخرج المراكز و يطلب منها الاجابة . والاجابة سلباً كانت أم إيجاباً تجعلها تعترف بشذوذ مركزها إزاء الكنيسة وتعاليمها . ولذلك لم يكذب يفرغ « بوبير » من إلقاء سؤاله الأخير حتى ساد القساعة صمت رهيب ، واشترأت الاعناق نحو جان تلهفياً على سماع اجابتها التي ستكون فاصلة وقاطعة في اثبات التهمة عليها ، إذ ظن الجميع أن الرمية قد اصابت المحز ، ولا مفر للتهمة من الاعتراف بالجرم . . . جرى هذا ، ولكن جان بعد مظهر الارتباك البسيط الذي تولاها عند مفاجأتها بالسؤال ، عادت الى

هدوئها الطبيعي ، ولم تكترث لما كان يجري حولها بل فاجأت الجميع
بردها الخالد « Passez outre ! » أي « انتقل إلى موضوع آخر »
وبهذا الرد القصير الحاسم خرجت جان من المأزق. وإن كانت بردها
قد حيرت سائلها كما حيرت سامعيها وجعلتهم يغلون كالقدر، ويتميزون
من الغيظ ، لأنها فوتت عليهم فرصة نادرة وضيعت عليهم غنيمة
ظنوها باردة . والقارىء بالطبع يعلم أن جان لم تخرج بردها القصير
السالف عن الحدود التي رسمتها لنفسها في صيغة قسمها التي أعلنتها
للمحكمة وأرغمتها بعد التي واللتيا على قبولها منها

وبهذا الانتصار لجان انفضت الجلسة الثانية بعد أن دامت ماينيف
على أربع ساعات .

وقررت المحكمة أن تعقد جلستين في اليوم الواحد . واحدة في
الصباح وأخرى في المساء . ولك أن تتصور أنها القارىء هيئة مؤلفة
من ٦٠ عالماً وفقياً تعقد جلستين في اليوم لكي تستجوب فتاة قروية
أمية . وروى عن هذه الهيئة الموقرة أن أعضاءها كانوا يتناوبون العمل
بحيث تكون مناقشة الفتاة مستمرة طوال الجلسة . أما الفتاة فكانها
كانت من حديد تجيب وتدفع عن نفسها في بسالة مدهشة ويقظة
غريبة ، من غير أن تستريح لحظة واحدة في الجلستين صباح مساء .
وقد يدهش القارىء إذا علم أن تلك الفتاة التي تألبت عليها قوات

الخصوم على اختلافها كانت دائماً تجد من القوة وحضور البديهة ما كان يمكنها من ردودها الكثيرة التي أصبحت بحق مضرب الأمثال في الشجاعة المعنوية والجرأة في الحق أمام الباطل مهما تكاثرت مظاهر قوته... وقد شهد لها « منشون » رئيس الكتاب - وكان من العاطفين عليها - بقوله... « وكانت دائماً تجيب قضاتها في حكمة مدهشة ومثانة ظاهرة ، وكانت لها ذاكرة عجيبة . فكثيراً ما كانت تصحح للقضاة وتحيلهم في ردودها إلى ما سبقت الاجابة عليه من أسئلتهم وتقول لهم ارجعوا إلى المسجل أى « إلى » وشهد أحد القضاة بقوله : « سألوها أسئلة عويصة ، ولكنها كانت تتخلص منها بمهارة فائقة . وكثيراً ما كان السائلون يغيرون منحى الأسئلة فجأة وينتقلون بها بين شتى المواضيع لكي يحملوها على التناقض في الردود... وقد أرهقوها بالاستجوابات الطويلة التي كانت تستغرق ساعتين وأحياناً ثلاثاً يخرج بعدها القضاة أنفسهم متعبين مرهقين . . وكانت الشباك التي تنصب لها مما يصعب على أحذق الناس أن يجد لنفسه منها مخرجاً . وبالرغم من كل هذا كانت ردود الفتاة غاية في الحكمة والتعقل حتى أنى بقيت نحو ثلاثة أسابيع أعتقد أن إجابتها إنما كانت وحياً يوحى اليها . » وكان ذلك هو الحق أجراه الله على لسان أحد الذين جلسوا في مجلس القضاء . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وفي يوم ٢٤ فبراير سنة ١٤٣١ عادت الجلسة للانعقاد . وبعد افتتاحها كان أول هم الرئيس كعادته أن يطلب من الفتاة أن تقسم اليمين كاملة من غير قيد أو شرط . . . وهنا شعرت جان أنه يجب أن تضع حداً لهذا الإلحاح المتكرر في أمر سبق البت فيه ، فكان ردها على طلب الرئيس شديداً قوياً ، قالت وهى على خلاف عاداتها مغیظة محنقة يكاد يتطاير من عينيها الشرر قالت : « احذر ياسيدى مما تطلب ، أنت يا من تجلس منى مجلس القاضى . انك تحمل نفسك مسئولية بالغة ، انك تخرج عن الحد . . . !؟ »

بهذه القوة قذفت جان بردها على طلب القسم الكامل فى وجه القاضى ! بهذه القوة رفعت عقيرتها وبعد مكثها فى السجن مايربى على ثمانية أشهر قضت أكثر من نصفها وهى فى الحديد مصفدة . ارغى « كوشون » وأزبد ، وحق له أن يرغى وأن يزبد من جرأة الفتاة . ولم يتمالك من انذارها « بالاعدام » عاجلاً إن هى لم تدعن له فى الحال وكان « كوشون » فى تهديده جد مخطئ . لأن الفتاة التى تجاهه بقولها المتقدم ليست بالتي تخشى وعيداً وتخاف تهديداً ، لأنها لم تتركه يتم قوله حتى ابتدرته مسرعة . « اعلم ياسيدى انك وسائر رجال الكنيسة فى « روان » وفى باريس لا يستطيعون إدانتى ظلماً وعدواناً ولو كان بعضكم لبعض ظهيراً . . ! » وعلى أثر إجابتها سادت المكان ، ضجة هائلة

كان بعضها سخط أعضاء المحكمة والبعض الآخر تصفيق النظارة
استحساناً لموقف جان .

وكانت جان لما ألفت ردها واقفة . وبمجرد إتمامه جلست في
مكانها . وبعد هدوء الضجة حاول « كوشون » أن يعود للحاح في مسألة
القسم فاكتفت جان بعبارتها « Passez outre »

وفي هذه المرة لم ينتقل الرئيس إلى موضوع آخر بل عرض عليها
حلاً وسطاً وهو « أن تقسم على أن تقول الحق في كل ما يدون في
محضر الجلسة » وتأملت جان في الصيغة المعروضة عليها فلم تجد فيها
بعد تقليبها على وجوهها المختلفة ما يمنعها من قبولها « وبقبولها انتهى
إشكال طال أمده بينها وبين قضاتها . .

وبعد انتهاء « كوشون » إلى هذا الحل المؤقت في مسألة اليمين - ونقول
المؤقت قصداً لسبب يتضح لك فيما سيجيء - تخلى من مكان السائل
وسلم زمام المناقشة لزميله اللبق المشهور « بويير » الذي بدأ كعادته
يحوم حول « الأصوات » لعله يجد من ردودها ما يعينه على قصده في
إثبات شيطانية ، أصواتها ففشل من هذه الناحية كما فشل أول مرة ، ولكن
لفت نظره أن جان ختمت ردها على آخر سؤال له بقولها « إنها لم تكن
تستطيع أن تعمل شيئاً لو لم تكن متمتعة بنعمة الله . » فسألها فجأة
« وهل أنت متمتعة بنعمة الله ؟ »

سؤال محرج جداً كما يعلم اخواننا الكاثوليك . . وفي السؤال فوق
إحراجة خبيث وقسوة كان من نتيجتها أن أحد القضاة لم يتمالك أن
يقول « هذا سؤال مروع ، والمتهمة غير مكلفة بالاجابة عليه . . . ! »
ولكن « كوشون » أسكت القاضي المعارض في عنف وقال « على المتهمة
أن تجيب على السؤال » .

وفي هذه الآونة كانت « درجة الغليان » في قاعة الجلسة قد بلغت
أقصى حد . . والحرج في السؤال أن العقيدة الكاثوليكية لا تبيح للمتدين
أن يقول عن نفسه أنه متمتع بنعمة الله . فليس في استطاعه أن
يعرف ذلك لنفسه . تقول جان أنها لو لم تكن متمتعة بنعمة الله لما
استطاعت أن تفعل شيئاً . وسؤال « بوير » في ذلك كان يلزمها إما أن
تجيب بلا أو نعم . فان قالت « لا » اعترفت على نفسها بحرمانها من نعمة الله
وصارت باعترافها خارجة وملحدة ، وإن قالت « نعم » خانت العقيدة
الكاثوليكية التي لا تبيح للشخص أن يعرف لنفسه ذلك . ومتى
خالفت العقيدة في شيء كانت ملحدة الخ . هذا هو المأزق أو الشرك
الذي وصلت جان اليه . . . ! ؟

ولكن قريحة جان لم تخنها هذه المرة . وكانت كدأها وقادة
حاضرة جعلتها تظهر في وسط الزوبعة التي تلت السؤال المتقدم هادئة
مطمئنة . ولما عاد إلى الجلسة سكونها ردت جان على سؤال « بوير »

ردها الخالد الذي تراه بحق بارزاً بين سطور كل كتاب كتب عنها . .
قالت جان . . . « إذا كنت غير متمتعة بنعمة الله فاني أسأله تعالى أن
يتمتعني بها ، أما إذا كنت متمتعة بها فاني أرجوه تعالى أن يديمها علي . ! »
وعند الانتهاء من ردها المحكم ساد القاعة صمت ، ولكنه صمت
الدهشة والاعجاب بذلك الرد الحكيم الذي أخرجها من مأزق يضل في
الخروج منه أعظم الناس تفكيراً وفي ظروف خير من ظروف جان .
وبهذه الهزيمة الساحقة « لبويير » ختمت الجلسة بعد توجيه بضعة أسئلة
تفقه عن أيام طفولتها وعن زيتها . .

وفي يوم الاثنين ٢٧ فبراير عقدت الجلسة الرابعة وبين دهشة
الجميع استهلها « كوشون » بطلب القم الكامل من المتهمه . . لهذا السبب
وصفنا قبول جان للحل الذي عرضه كوشون في الجلسة السابقة
بالحل المؤقت . ولكن جان لم تدعه يطيل إلحاحه ، إذ فاجأته في حزم
وعزم بقولها « يجب أن تقنع بما أقسمت عليه ! » فاضطر أن يجاريها ،
وشرع يسألها عن القديسين الذين كانوا يخاطبونها ، وكيف ميزت بينهم
وعرفت الواحد من الآخر ، وعمما إذا كانوا قد جاءوا إليها باجسادهم
أم بارواحهم وكانت جان تجيب على الأسئلة في حدود مارسمته لنفسها ،
ومارسمه لها القديسون . ولما سئمت الأسئلة المتشابهة طلبت من المحكمة
أن ترجع إلى « ملف » قضية « بواتيه » فان فيه ما يغنيهم عن

التكرار الممل إلى درجة السخف . ولكن أحداً لم يجيبها إلى ما طلبت ، مع ما كان في طلبها من الوجاهة وتوفير الوقت لهم ولها ، وذلك لأن الرجوع إلى محاضر بواتيه كان فيه خزي لهم . إذ انتهت مناقشات بواتيه إلى ما فيه مصلحة جان . . ومصلحة جان كانت آخر ما تبحث عنه محكمة روان . وفوق هذا وذاك فإن محكمة بواتيه كانت برياسة «رئيس الأساقفة» أما روان فكان يرأسها أسقف وللفرق بين المنصبين قيمته من الوجهة القانونية فكان يلزمهم الخضوع للقرارات السابقة . وبعد التغاضي عن طلبها الرجوع إلى بواتيه شرع « بويير » يكرر سؤالها في موضوع ثيابها ، ومنه إلى موضوع رؤياها ، وكان أهم ما سألها عنه الادلاء ببيان عن «بشراها» التي حملت الملك على تصديقها عند ما قابلته على انفراد في أول مرة في « شنون » ، وقد أبت جان أن تبين عنها شيئاً وأدخلت البوح بذلك في دائرة « محظوراتها »

وبعد أسئلة عديدة ارفضت الجلسة الرابعة من غير انتهاء إلى نتيجة ولم يكن فشل القضاة المتكرر مع جان بموجب ليا سبهم منها . فقد كان رجال الدين في القرون الوسطى لا تضنهم المناقشات الجدلية مهما طالت . ولم يكونوا بالذين يسهل إقناعهم بالحق مهما كان واضحاً جلياً ما دام بنفوسهم مرض . ثم هم كانوا من جهة أخرى غير مرهقين لتناوبهم الحوار وتعاونهم على المناقشة وتبادلهم الراحة .

وفي يوم الخميس أول مارس ١٤٣١ عقدت الجلسة الخامسة ، وكان
القضاة قد أعدوا موضوعا للمناقشة حسبوه مزلة للفتاة ومزلقا تتردى
فيه ، وذلك أنه كان في الوقت الذي تحاكم فيه ، يتنازع كرسي البابوية
إثنان أحدهما كان مقره روما والثاني في إحدى مدن فرنسا الجنوبية ،
فرأى القضاة أن ينصبوا الأحبولة لها هذه المرة حول موضوع البابوين
ومن منهما أحق بالمنصب من غيره .

ولما أرهفت الآذان واستعدت للسمع سأهاها القاضي :

— أى البابوين أصدق ؟

فردت جان وكائنها ألهمت الاجابة إلهاماً

— وهل يوجد اثنان . . ؟!

وبهذا الرد الحاسم القاطع ألحمت السائل وأوقعته في أشد الحيرة
والارتباك ، إذ ألقت عليه عبء المسؤولية بعد أن ظن أنه ألقاه
عليها . وبعد إن كانت « لا » أو « نعم » مؤدية إلى وقوعها في خطأ
كنسى عظيم ، أصبحت المسؤولية في الاجابة بأيهما واقعة على السائل ، أى
انها ردت سهمه إلى نحره ، وردته في سرعة وبداهة جعلت احد القضاة
ينطق عفواً عندما سمع جوابها « تلك ضربة قاضية ! »

ولما زال أثر الصدمة أخذ القاضي السائل يناقشها في أمور

أخرى وظهر أنه لم ييأس تماماً من موضوع البابوين ، فعاد يكرر عليها السؤال في المعنى المتقدم ولكنه تلقى منها رداً صريحاً وباتاً إذ قالت .. « إن الواجب يقضى علينا أن ندين بالطاعة للبابا الذي يجلس في كرسي روما...! » ، وبهذا الرد حقت على السائل كلمة الفشل ولم يجد الهيمته موضوع البابوين فتبيلا ..

وأسرع السائل بالانتقال إلى موضوع آخر ، وأخذ يسألها عن الرسائل التي بعثت بها إلى الانجليز عندما وصلت إلى أورليان ، وكيف أملت على الكاتب ما جاء فيها ، وعن قصدها ببعض العبارات الواردة بها . وصار يلح عليها بالسؤال تلو السؤال حتى أثارها وأهاجها وجعلها تقول له : « ليكن في علمك أنه قبل مضي سبع سنوات ستصيب الانجليز مصيبة اكبر وأعظم أثراً من مصيبتهم في أورليان ! وسيغادرون فرنسا بقضهم وقضيضهم بعدها بقليل ..! » وبهذه النبوءة أثار جان دهشة الجميع لأنهم كانوا موقنين بأن نبوءاتها تتحقق ..! وكان كل اختلافهم معها محصوراً في مصدر إلهامها كما تقدم لك بيانه .

وقد تابع السائل مناقشته لها بعد أن هدأت العاصفة التي أثارها بنبوءتها المتقدمة :

— ومن أين تعلمين بأن الأمور ستجري كما تصفين ؟

— أعرفها عن طريق الوحي ، وأنا واثقة من وقوعها ، كما
أنا واثقة من جلوسك أمامي .. !

ومن الغريب أن النبوة قد تحققت فعلا ففي سنة ١٤٣٦ أى بعد
خمس سنوات من النبوة وقبل انقضاء سبع منها سقطت باريس في أيدي
الفرنسيين وبسقوطها تقلص أو قل أخذ النفوذ الانجليزي يتقلص
بسرعة من فرنسا وأصبح وشيك الزوال .

وبعد ذلك أخذ القاضي يناقشها مناقشة غريبة في موضوع
« الأصوات » قائلا :

— بأى اللغات كانت « الأصوات » تخاطبك ؟

— بالفرنسية .

— والقديسة مرغريت أيضاً ؟

— ولم لا يكون ذلك وهي تؤيدنا ولا تؤيد الانجليز ؟

ومن النفاق المر أن أعضاء المحكمة استاءوا من تمثيل جان
للقدسين في صورة من يأنف الكلام باللغة الانجليزية ! واعتبروا ذلك
منها كما دلت عليه صحيفة الاتهام (التي سنوردها لك بعد) والتي
اشتملت على التهم التي زعموا ثبوتها عليها

وبعد ذلك سألها عن « الشجرة » التي كانت تلعب مع أطفال

القرية تحت ظلالها والتي قامت حولها خرافاتهم ، كما تقدم لك بيانه .
سألها عن الأشاعات والاعتقادات التي دارت حول الشجرة ،
وعما إذا كانت هي قد شاركت الأطفال الآخرين في اعتقاداتهم ، محاولا
في كل هذا أن يثبت بأن ما كانت تسمعه من « أصوات » وما كانت
تراه من أشباح ، إن هو إلا أصوات تلك الجنينات وأشباحها ، ولكن
محاولته فشلت ، كما فشلت محاولات غيره من قبل ، ولم يستطع أن ينتهي
إلى نتيجة من هذه الناحية أيضاً .

ولعل القارىء يلاحظ أحيانا ان قضاة جان كانوا يعرفون دقائق
حياتها من طفولتها إلى وقت وقوعها في الأسر . وليس في هذا الأمر
غرابة إذا تذكرنا حادث « نيقولا » أحد القضاة الذي تمكن من
خديعتها في السجن في زى صانع الأحذية فقد عرف منها كل التفاصيل (١)
وقد وعاهها معه « كوشون » ورجاله من ثقب في الجدار أعد خصيصا
لذلك . وهذا وحده التفسير الوحيد المعقول ، عن المصدر الذي
استقى منه القضاة معلوماتهم المفصلة عن دقائق حياة جان . وفي
الواقع أن جان لم تكن تتكلم شيئا من حقائق حياتها ، فقد كانت كلها

(١) وفي إحدى الروايات ان « نيقولا » اعلن شخصيته لجان وبصفته الدينية حملها على ان
« تعترف » ومع ان الاعتراف يجب ان يبقى سرا الا انه اعلنه للحكمة !

معلومة ، ولم تحتفظ إلا ببعض « الأسرار » التي حرمت « الأصوات »
عليها اباحتها ...

ولعله من المدهشات التي لفتت نظر القارىء أيضاً ، ما بدا من عجز
القضاة عن إيقاع جان في نقائص أو مخالفات دينية ، بالرغم من معرفتهم
لكل تلك التفاصيل عنها ، ولهذا الاعتبار قيمته في تقدير التاريخ لجان
دارك ... ! ومن رأى بعض المؤرخين انه لو لم يكن لها من الفضل
سوى ما أظهرته من الثبات والنبوغ في ساحة المحكمة لكفى لذلك
فضلاً يخلد أسمها في التاريخ .

وانتقل القاضى إلى سؤال جان في موضوع « الأصوات » ثانية
ولكن بطريقة مبتكرة وفي منحى جديد :-

— هل أخبرتك « الأصوات » بأنك ستخرجين من السجن ؟

— لست أدرى متى يطلق سراحي ، ولكنى واثقة من أن
بعض الذين يودون موتى سيموتون قبلى .. !

وكان من المضحك للغاية أنها لم تؤكد تم جواهاحتى أخذ القضاة
يتبادلون النظرات ويتهامسون فى قلق وانزعاج ، من أثر النبوءة
الجديدة . واستمر القاضى يسأل :

— هل حددت « الأصوات » موعداً معيناً لخروجك من السجن ؟

— سألني بعد ثلاثة أشهر أنبتك الخبر اليقين . ! —

وقصدت جان بردها أنها ستخرج من السجن بعد ثلاثة أشهر !
ولقد صدقت في هذه النبوءة وكان صدقها حرفيا ، فقد قالت قولها
هذا في جلسة يوم الخميس أول مارس وسوف يكون خروج جان من
السجن في ٣٠ مايو . . . ! ولكن إلى أين . . . ! ؟ ستعلمن نأ ذلك بعد حين .
وقد ألح القضاة على جان أن تحدد في هذه الجلسة ، وفي ما تلاها من
الجلسات ، موعد خروجها من السجن بالضبط ! ولكنها أبت ، ولم تزد على
ما قالته حرفا واحدا ، لأنه لم يسمح لها بأكثر من ذلك . ولكن القاضي
أخذ يلح ويتلف على معرفة الوقت بالتحديد ، وصممت هي على أنه
غير مسموح لها ان تقول أكثر مما قالت .

وكانت « عقلية » أولئك القضاة غريبة . . يحاكمون الفتاة من أجل
اتهامها بالسحر والاحاد والاتصال بالأرواح الخبيثة . وهم يصدقون
الاتصال . ويصدقون « بالأصوات » . ولكنهم يحاولون بعد التصديق
أن ينسبوا ذلك إلى « روح شيطانية » ومن هنا جاء الحاحهم عليها
لمعرفة موعد خروجها من السجن وكانهم كانوا يخشون خروجها منه
رغم أنوفهم ، ولذلك رغبوا في معرفة تاريخ الخروج لكي يحتاطوا له
ويأخذوا له العدة

ثم انتهت الجلسة بعد محاورات بسيطة في شأن ثياب القديسين

وعن «بشراها» للملك التي جاءت بها في «شنون» وانتهت بالفشل المطبق
كغيرها من سابقاتها .

وفي يوم السبت ٣ مارس سنة ١٤٣١ عقد الجلسة السادسة
وكانت جلسة شديدة الجلبة كثيرة الزوابع... دخل القضاة الجلسة
ووجوههم عابسة عبوسة المصمم على شيء حاسم . وظهر بعد افتتاح
الجلسة أنهم دخلوا وهم متواصلون بالوصول إلى نهاية قاطعة مع الفتاة
في تلك الجلسة . ودل على ذلك التصميم السابق والنية المبيتة انيائهم
على الفتاة بالاسئلة من كل جانب ، وأمطارها وابلها منها حتى اضطروها
مرارا إلى أن ترجوهم في أن يسألوها واحدا واحدا بدلا من بلبلتهم
مرة واحدة . ودل عليه أيضاً أنهم عادوا يطالبونها في شدة وقوة بأن
تقسم اليمين كاملة من غير أدنى تحفظ ، وبدا عليهم ما يكونونه من
الامتعاظ لخضوعهم لها في مسألة اليمين في الجلسات السابقة ..؟! .

ولم تجفل جان من إجماع القوم على مناقشتها ولم تدعن لهم في
مسألة القسم وبقية مصررة على ما ارتضته من قول الحق في كل
ما يدون من أقوالها في المحضر . ولم تتزحزح قيد أنملة عن موقفها . غير
آبهة لاصرارهم ، وتجهمهم ، واضطرتهم مرة أخرى إلى الاكتفاء بما تم
عليه الاتفاق في شأن القسم . وانتقلوا بعد ذلك يسألونها عن ثياب
القديسين وعن شعر رأسهم ، وشكل قوامهم . ثم عن زيبها وأسبابه

وبعد ذلك ناقشوها في مسألة « علمها » . وكانوا قد جمعوا حوله عدة خرافات نسبوها اليها وإليه ، أخذت تبدها بصراحتها المعهودة وحسن بيانها . ولكن سؤالا عن العلم أهاجها لما بدا عليه من السخف والغثاثة ، فردت عليه في انفعال وحدة وإليك السؤال والجواب :

— ألم تقولى لجنودك ان كل علم يشبه علمك يكون التوفيق حليفه ؟
— كل ما قلته لهم هو : « اصرعوا الانجليز واسحقوهم ! وهذا عين ما كنت أفعله بهم أنى وجدتهم ! .. »

فلما سمع القضاة الرد هاجوا وماجوا وقاموا في أما كنهم يصخبون ويضجون . كأن السماء انطبقت على الأرض ! أو كأنهم خافوا إن سكتوا على هذا التعريض بأصحاب السلطة الفعلية أن تأخذهم أخذ عزيز مقتدر على ما فرطوا فيه من السماح للفتاة بهذه الجرأة في قلعتهم وعقر دراهم !؟ حدث هذا من القضاة وهم فرنسيون ! يحاكمون فرنسية ! ولكنهم كانوا في الواقع فرنسين قلبا وانجليز قلبا !؟

أما جان فقد قالت ردها ثم قعدت في مكانها ، ولم تلبث ان استردت هدوءها وعادت اليها طمأنينتها غير عابئة بالضجة التي وقعت إثر إجابتها . وبعد أن استنفذ القضاة هياجهم ، وعادت اليهم سكينتهم . استأنفوا المناقشة ودارت هذه المرة حول ما كانت تلاقيه من التفاف الشعب حولها ، والصلوات التي كانت تقام تكريما لها ، وتقجيل الناس ليديها وقدميها وأطراف ثيابها ، واعتقاد الشعب في صدق رسالتها .

وردت جان على كل هذه المسائل بانها لم تائم الناس بشى منها ، وأنها لم تكن تدري ما اذا كان الشعب يعتقد أو لا يعتقد فى رسالتها ، وان اعتقاد الشعب فيها أو إنكاره لا يؤثر فى صدق الرسالة ، وأن تعلق الناس بها والتفافهم حولها أنى سارت دليل على اخلاص لها لم تكن لتستطيع دفعه لو شاءت ، وان ذلك الاخلاص طبعى لأنها بذلت فى سبيلهم قصارى ما يستطيع مخلوق بذله . . .

وسألوها عن طفل « لانى » فاجبتهم تلك الاجابة البريئة التى أشرنا اليها فيما سبق ثم سألوها عن محاولتها الهرب من قلعة « بوريفوار » وجرت بينها وبينهم المناقشة التالية

— لماذا قفزت من قلعة بوريفوار ليلا وحاولت الهرب !

— كنت أود ان أذهب لمساعدة « كومبين » .

— ألم تصرحى أنك كنت تفضلين الموت على التسليم للانجليز ؟

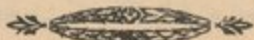
— نعم قلت أنى أفضل ان يقبضى الله اليه على ان أسلم للانجليز !

وقصدت الهيئة الموقرة أن تثبت عليها محاولة الانتحار . والانتحار

جريمة . كما قصدت ان تثبت عليها فى مسألة العلم السحر . ولكنها على

ما رأيت فشلت ، وأعجزها ان تثبت من أقوالها شيئاً . وختمت هذه

الجلسة العاصفة بالخبية للقضاة والنصر لجان .



٢٣٤ -

المحاكمة السرية

كان للفشل المتكرر الذي منيت به هيئة المحكمة في جلساتها السابقة في حوارها العلني مع الفتاة أثره في نواح مختلفة . كان له أثره في الرأي العام ، الذي بدأ يشعر بشيء من العطف عليها متأثراً في ذلك بما كانت تبديه من الصبر والجلد مع الصراحة ونبالة القصد والخلق ، وبما كانت تظهره من حدة الذكاء وقوة العارضة . وكانت أخبار الجلسات تنتشر بين الناس بسرعة البرق ، وتصبح حديث مجتمعاتهم وتبيت موضوع سمرهم . . . وكان له أثره في بعض القضاة أنفسهم الذين أخذت ضمائرهم تستيقظ بعد طول السبات ، وأخذوا يشعرون بفداحة ما هم قادمون عليه من ظلم فاضح وخسران مبین . فجعلوا يظهرن شيئاً من الميل وحسن الاعتقاد في أقوال الفتاة التي خلبتهم ببساطتها وطهارتها ، وسدت أمامهم منافذ الريية التي ولدتها لديهم الروح الرجعية المسيطرة على نفوسهم ، وعززها سلطان القوة الغاصبة بما لوحته من أطماع ومناصب .

شعر « كوشون » بان الأرض بدأت تمسد من تحت قدميه . وأن مجهوده في الانهام قد يصيبه العقم فتضيع عليه آماله ومطامعه ، فاسرع يدبر للحالة الطارئة ما ينجيه من عواقبها ، وأخذ يفكر تفكيراً عميقاً ،

في تدارك الخطب قبل أن يستفحل فاستقر رأيه على خطة جديدة
لاتمام المحاكمة ...

والخطة الجديدة التي استقر عليها رأيه ، هي إبطال علانية الجلسات
وجعلها سرية ! ورمى بالسرية الى التخلص من التأثير الذي بدأت تحدثه
شجاعة الفتاة في الرأي العام . ومنع انتشار اخبار مواقفها الجريئة في
الحق مع القضاة . ولكي يتخلص من بعض القضاة الذين بدت عليهم
بوادر من الميل نحو الفتاة ، تظاهر بان ما يلاقيه القضاة من المحاكمة
وامتداد الجلسات من التعب اصبح يقلقه ! ويقض مضجعه ! ولهذا
السبب وحده ! رأى ان يعفى من الحضور عدداً كبيراً منهم مكتفياً
بالسير في القضية في المدة الباقية لها بالعدد القليل منهم .

وتنفيذاً للخطة المتقدمة استبقى « كوشون » معه من وثق بهم من
القضاة ، وعرف فيهم الصلابة في الضلال والتبرم بالفتاة والنقمة عليها
وسرح العدد الأكبر منهم بنذهب وشأنه ثم عقد مجلساً صغيراً من خلاصة
الموثوق بهم واخذ يغربل معهم محاضر الجلسات السابقة . . . فما وجد
فيها في مصلحة الحق ومصلحة الفتاة تغاضى عنه وتجاهله ! وما كان
في ظاهره مسحة من الشك ابرزه وجسمه وجعل منه مادة اعددها
اساساً للنقاش في الجلسات القادمة . . . التي حرص على أن يظهرها
وكأنها رجع ما انقطع من الجلسات السابقة .

وفي العاشر من شهر مارس ١٤٣١ بدأت المحاكمة السرية . ولما سيقّت جان امام المحكمة كانت تبدو عليها امارات التعب وانحطاط القوى بشكل ظاهر وكانت قلقة يغشاها نوع من الذهول . . وكانت أبسط مبادئ الشفقة الانسانية تقضى على المحكمة ، وقد لاحظت عليها تلك الحال السيئة ، أن تعفيها من الاستجواب وعنت المناقشة حتى تسترد شيئاً من عافيتها . وهذا ما كان يقضى به ايضاً منطق الحوادث التي تظاهر « كوشون » بانها هي التي حملته على مراعاة حالة القضاة الصحية وما حل بهم من تعب ، وجعلته يسرح أكثرهم لكي يستريحوا وهذه المهمة التي استهدفت طول هذه المدة لهجمات الجميع وهي في أسوأ حال وأشد عذاب ، قد أصبحت وقواها بما قاسته خائرة . وبان ضعفها وبرزهاها ، ألم تكن تستحق ايضاً أن ينالها نصيب من عدل القاضي فتأخذ قسطها من الراحة حتى تستجم وتستجمع قواها وتستعد للنضال من جديد ؟ ولكن أنى لأمثال « كوشون » من عباد السلطة أن يرعوا عدلاً ، أو يفرقوا بين حلال وحرام بين . وقد سجل له التاريخ أنه فرح بما بدا على المهمة من مرض وسقام ، واستغل ما كانت فيه من آلام ، وانها هو وأعضاؤه عليها بالسؤال في أثر السؤال حتى وقعت في شيء من التناقض فيما يتعلق « ببشراها » للملك .

وفي اليوم التالي جروها الى مكان المحاكمة وكانت لا تزال مريضة

منهكة ، وأمطروها وابلًا من الأسئلة فكانت من شدة ما تعانیه ، تسرد
أشياء من غير وعى لم تكن لتقولها لو أنها كانت في حالتها الطبيعية .

وفي اليوم الثالث للمحاكمة السرية كانت جان أحسن حالا من
ذی قبل ، و بدأ عليها كأنها استردت شيئاً من عافيتها فانها عادت تجيب
على الأسئلة في مقدره وذكاء عليهما طابع ما تعودت ارساله في وجه
قاضيها من دمع الحجة و متانة المساجلة . سأها القاضي :

— هل تعلمين ما إذا كانت القديستان «كترين» و «مرغريت»

يكرهان الانجليز؟

— اعلم انهما يحبان من يحبهم الله و يكرهان من يكرههم !

— وهل يكره الله الانجليز؟

— لا أعرف شيئاً عن حب الله أو كرهه لهم . ولكن أو من بان

الله سينصر الفرنسيين عليهم ، وأنهم سوف يجلون عن فرنسا ولن

يبقى لهم فيها غير موتاهم !

— وهل كان الله في جانب الانجليز لما كان النصر حليفهم في

بادى الامر؟

— لست ادري ما إذا كان الله يكره الفرنسيين في ذلك الوقت

ولكنى أعرف أن هزيمتهم كانت عقاباً لهم على ما فرطوا في

حق الادم .

ثم انتقل القاضى يسألها في موضوعات شتى الى أن سألها عن
العلم قائلاً

— هل أنت التي ساعدت العلم على أن يكون أداة للنصر أم العلم
الذي ساعدك على كسب المعركة؟

— سواء أكان العلم أم كنت أنا فالنصر جاء من عند الله .

— ولكن هل كان جل اعتمادك في النصر على نفسك ام على علمك؟

— لا على نفسى ولا على علمى انما كان اعتمادى على الله وحده !!

— ولماذا كان علمك هو العلم الوحيد الذى رفر ف فوق رأس

الملك اثناء التتويج؟

وهنا يجب ان تنصت لجوابها الخالد .

— لقد خاض علمى كروب الحرب ، فحق له أن يلقى الفخار

Il avait été à la peine, C' etait bien raison qu'il fut à
l'honneur

وفي بقية هذه الجلسة والجلسة التالية كرروا عليها الأسئلة عن

ثيابها وعن رغبتها في الفرار من السجن ورأيها في مشروعية الفرار .

وفي خلاصها من السجن وكيف ومتى يكون ولكنهم رغم كل طريق

معوج سلكوه لم يستطيعوا ان يجدوا من الفاظها ما يعينهم على اثبات

التهمة ثبوتاً قاطعاً . وفشلوا معها فشلاً ذريعاً . الأمر الذى احقهم

وأثار حفيظتهم . وأخيراً حددوا جلسة ختامية فاصلة في يوم ١٧
مارس سنة ١٤٣١ .

وفي اليوم المحدد اجتمعت المحكمة وكانت قد أعدت نخاً دينياً
للفتاة وأعدته بمهارة فائقة ، وذلك أنهم دبروا مباغثة المتهمه بالسؤال
الآتي :

— هل تقرين بان أقوالك وأفعالك ، طيبة كانت أم خبيثة ،
خاضعة لحكم الكنيسة عليها ؟

لو أجابت « بنعم » وضعت كل أقوالها وأفعالها تحت تصرف هؤلاء
القوم الذين لا يرقبون في الله إلاّ ولا ذمة . ولو أجابت « بلا » أصبحت
وهي طائعة مختارة ترفض الازعان لحكم الكنيسة ، ومعنى هذا في نظر
الكاثوليكية هو الالحاد بعينه !

ولم يفت جان غرض القوم من السؤال . وفهمت ما فيه من خبيثة ،
وردت عليهم وهي حريصة تقول : « إنها تحب الكنيسة ، وإنها تؤيد
العقيدة المسيحية بكل ماتملك ، ولكن ما قامت به من أعمال هو نتيجة
لما كان يوحى اليها به فيجب أن يترك الحكم عليه لله وحده الذي أمر
بالقيام به ! » .

فتحير السائل من الجواب ولكنه أصر على أن تعلن إذعانها من

غير قيد ولا شرط لحكم الكنيسة على أعمالها وأقوالها ، شأنها في ذلك شأن كل مسيحية ومسيحي . فاجابت على اصراره بقولها « انى أفوض أمرى لله وحده » ثم التفتت لى السائل وحملت فيه قائلة « لماذا تخلق إشكالا من غير داع ؟ » ولكنه استمر على إصراره فى إعلان إذعانها واستمرت هى على رفضها ولما أعياه الأمر انتقل يسألها فى معادة سبق أن سئلت فيها مراراً ولما عيل صبرها طلبت من المحكمة أن ترفع أمرها للبابا . فوقع هذا الطلب المفاجيء من المحكمة وقع الصاعقة لأن المحكمة لم تكن تملك فى الواقع أن ترفض طلب الاستئناف إلى البابا فى مثل تلك القضية وإذا كانت القضية قد عرضت على البابا لكاتت نظرتة من غير تحيز لأحد طرفى الخصومة وكانت براءة الفتاة محققة . وكان « كوشون » يدرك هذا كله ويقدره ويقدر ما فيه من ضياع لآماله ولذلك بادر بسرعة مدهشة إلى تغيير موضوع المناقشة وختم الجلسة مسرعاً . . . وأمر بمضاعفة العناية بحراسة الفتاة وبث العيون والأرصاد حولها حتى لا يتصل بها مخلوق يمكن ان يتسرب بوساطته خبر طلب الفتاة للاستئناف لدى البابا . لأن فى تسربه مفسدة لكل مادبر وتعطيلاً للقضاء عليها . . .

و بين هذا الفشل المنجمل انتهت المحاكمة السرية . كما انتهت أختها

العلنية من قبل

توجيه الاتهام لجان دارك

لعل القارىء قد لحظ في الفصلين السابقين ان قضاة جان لم يوجهوا اليها تهمة معينة . لا في الجلسات العلنية ولا في الجلسات السرية . واكتفوا بترديد المآخذ التي لا كتبها السنة الخصوم ونسوا ان مواجهة المتهم بتهمة من أوليات القضاء العادل ، وبما تقضى به اجراءاته . ومن هذا يتبين مقدار ما وقع على الفتاة من ظلم حين كان قضاتها يسألونها في الموضوع تلو الموضوع ، ويسألونها أسئلة عامة غير محدودة ، وهي لا تدري ما يراد بها او منها إلا بمقدار ما كانت تستنبطه بقريحتها . . . جرى كل هذا عمداً من قضاتها على أمل إيقاعها في التناقض ، مثلهم في هذا كمثل الصياد ينصب الشراك للصيد في كل منطقة لعل القنيفة تتردى في هذه او تلك عفواً ومصادفة . . .

وحدث في اثناء المحاكمة ان مر بمدينة « روان » محام معروف من أهل نورمنديه اسمه « لويير Lohier » فانتهمز « كوشون » فرصة وجوده بالمدينة وأطلعه على ملف القضية وسأله رأيه فيه . وكان « لويير » رجلاً صادقاً شجاع الرأى نزيهاً . . . لا يغريه « ذهب » المعز ولا يرهبه « سيفه » . فلما اطلع على الملف التفت إلى « كوشون » وقال له في وقار وشجاعة إن الاجراءات التي اتخذت في القضية كلها

باطلة ! وأبدى له الأسباب الآتية لبطالانها : (١) ان المحاكمة كانت سرية في الغالب ولم تكن حرية المناقشة فيها متوافرة (٢) إن المحاكمة مست شرف ملك فرنسا ولم يدع للحضور أمامها للدفاع عن نفسه ، أو تعيين من يتولى ذلك بالنيابة عنه (٣) إن المتهم لم تعلن بتهمتها بادىء ذى بدء (٤) أن المتهمه اضطرت للدفاع عن نفسها من غير معاونة شرعية وهي صغيرة السن والتهمة الموجهة اليها خطيرة .

ولما سمع « كوشون » بانتقادات « لويير » استشاط غضبا بالرغم من أنه هو الذى طلب منه رأيه ! وكأنه لم يكن يتوقع منه كل هذه الجرأة والصراحه ! وبلغ من حنقه عليه أنه أقسم أن يغرقه فى النهر على « وقاحته » الزائدة . الأمر الذى اضطر « لويير » إلى التعجيل بالهرب إلى رومية فرارا مما عساه ينزل به من مقت « كوشون » وغضبه

وانصرف « كوشون » وجماعته الى دراسة المحضر لكي يستنبطوا التهم منه ، وأنفقوا . فى ذلك تسعة أيام كاملة خرجوا بعدها بست وستين تهمة أدانوا فيها الفتاة ..! أما كيف استنبطوا هذا العدد العديد من التهم ، وقد مر بك طرف من إجابات الفتاة فى المسائل المهمة ، فقد كان ولا يزال سرا من أسرار « مهنة » أمثال « كوشون » وأعوانه .

وفى ٢٧ مارس جمع « كوشون » ستة من القضاة وأخذوا فى دراسة الموقف وتداولوا فى الأمر وأخيرا استقر رأيهم على مواجهة

الفتاة بالتهمة المتقدمة وان تواجه بها تهمة تهمة ، ويطلب منها جواب صريح على كل تهمة واذا رفضت كان الرفض دليل ثبوت التهمة عليها . ويظهر من هذا القرار ان انتقادات « لويير » لم تذهب عبثا ...

ولما عادت جان أمام المحكمة افتتح « كوشون » الجلسة بخطبة قصيرة وجه فيها القول لجان وجاء فيها ان المحكمة مؤلفة من رجال أتقيا !! تفيض قلوبهم بالرحمة والحنان عليها !! وانهم لا يرغبون في الحاق الأذى بها !!! بل كل ما يرغبون فيه هو هدايتها إلى طريق الحق والخلاص !!

وكان نفاق « كوشون » في خطابه واضحا ، وباليته وقف فيه عند هذا الحد ، بل زاده بما هو أدهى وأمر ، وذلك باعلانه انه مستعد للسماح لها بمحام يدافع عنها !! ولكن على شرط ان تختاره من بين الأعضاء الذين يؤلفون معه المحكمة !! وكان هذا منه نهاية النفاق واللؤم ، لأنه لم يكن قد مضى على سخطه على « لويير » لمجرد انتقاده الاجراءات ومن بينها عدم اختيار مدافع عنها إلا وقت قصير جداً . هذا يدل من طريق غير مباشر على مبلغ تأثير انتقادات « لويير » عليه لأنه إذ قد بدأ يحتاط لها واحدا بعد الآخر وان كان الاحتياط يجيء في طريق ملتوية تتفق وأغراضه السافلة .

سمعت جان خطابه واقتراحه عليها وفهمت منه أنه يريد لها

على أن تستنجد بأشد الناس اهتماما بالكيد لها . أى كمن يطلب من الشاة أن تستنجد بالذئب ، فرفضت عرضه رفضا باتا ، فأسرع بتدوين الرفض اثباتا لانصافه !! وتديلا على عدله ! وبعد ذلك طلب منها ان نجيب على كل تهمة توجه اليها ، وحذرنا عاقبة رفض الاجابة أو مجرد التمهّل أكثر من مدة معينة ، وإلا حقت عليها كلمته

وتولى «توماس كورسل Thomas de Courcelles» قراءة التهم لجان وأخذ يتلوها عليها واحدة فواحدة .وهي تعقب على كل تهمة بانكارها تارة أو تكتفى بالاشارة إلى ردودها السابقة . واحتوت التهم كل ضروب الضلال التي يمكن أن تخترعها مخيلة رجل ديني مغرض . وإليك أمثلة منها : اتهموها بأنها كانت ساحرة ومدعية للنبوة . ومتصلة بالارواح الشريرة . ومتجرة بالسحر . وكافرة . وعابدة أصنام . ومرتدة عن دينها . تعبت باسم الله وملائكته وأوليائه . موقظة للفتن . عابثة بالأمن . محرضة على القتل وسفك الدماء . متبذلة بارتدائها ثياب الرجال . تحترف الجندية . ضالة مضللة للملوك والشعوب . مغتصبة للالقب القدسية . داعية الجماهير لتقديسها وتمجيد شخصها . عارضة يديها وثيابها لتقبيل الناس الخ . الخ .

تلك صنوف من التهم التي أبدعتها مخيلة «كوشون» وجماعته وأخذوا يقذفون بها في وجه الفتاة ، وهي تهم كما رأيت تناخص في

تزييف كل حقيقة من حقائق حياتها ، ومسوخ كل فعل من أفعالها ،
والباس كل حق لها لباس الباطل ..

وكانت التعليقات التي عللوا بها تلك التهم ، ودلوا بها عليها غريبة
شاذة لا يسيغها عقل إلا عقلمهم ولا يقبلها ضمير إلا إن كان على غرار
ضمايرهم . فقد عللوا اتهامها بالاتصال بالأرواح الشريرة بأنها كانت
تلاعب مع الأطفال تحت « شجرة الجنيات » وهي طفلة !! وعللوا
عشها بالآمن وإيقاظ الفتن بانها دفعت الناس الى القيام في وجه
الانجليز ! وكم كان عجيبيآ اتهامها بالسعى لتمجيد نفسها كأنما كانت هي
التي تقسر الجماهير على الالتفاف حولها عقب الانتصارات التي تمت
على يديها . وهكذا عكسوا الحقائق والمرئيات الى أضدادها شأن
المغرضين . والغرض يعمى ويصم ...

واليك بعض الأمثلة من الحوار المدهش الذي جرى بين جان
وبين القاضي عند مواجهتها بالتهم المتقدمة .

وجهت اليها المحكمة اللوم من أجل تخليها عن عملها النسائي وقيامها
بالحروب وهي من أخص أعمال الرجال . فلما سمعت اللوم بادرت
لائمها بقولها « لا تخف ! ان في الدنيا نساء كثيرات ليؤدين الأعمال
النسوية ، ولما قال لها القاضي متمكبا برسالتها ... « يظهر لنا ان
الرسالة التي تدعينها لنفسك وتقولين عنها أنها من عند الله لا شأن لها

إلا بالحض على الحروب وسفك الدماء ، فكان جوابها « ان الحرب لم تكن هي الغرض الأول ، فلقد حرصت على الدعوة الى السلم والمصالحة بادى ذى بدء فلما فشلت الدعوة السلمية جنحت مرغمة الى الحرب والقتال ، لانها ما بيننا وبين العدو من إشكال . » وقرعتها المحكمة على محاربتها للبرجنديين وهم فرنسيون ، ولا يسعها ان تدعى أنهم كانوا كالانجليز ، غاصبين لبلاد غير بلادهم ، فقتلها أياهم كان قتالا بين أبناء الوطن الواحد يخالف المسيحية في تعاليمها . وعلى هذا التقرير أجابت جان أنها كانت دائماً تفرق في المعاملة بين البرجنديين وبين الانجليز في القول وفي العمل ، فالى البرجنديين كانت تبعث بالرسل وترسل بالكتب تحض دوق برجندية على عقد الصلح مع فرنسا والعمل على شد أزرها ، فكان يابى ألا أن ينضم الى العدو الغاصب . أما الانجليز فكان الصلح الوحيد الذى يمكن قبوله منهم هو جلاؤهم عن فرنسا والعودة الى بلادهم . لأنهم كانوا غاصبين ملكا لم يخلق لهم . . . وبالرغم من هذا فقد كنت دائماً أوتر ان أعرض عليهم السلم أولاً فكانوا يستهزئون ويستكبرون . ثم رددت جان نبوءتها وكررتها بان الانجليز سوف يخرجون من فرنسا قبل مضى سبع سنوات . ولما أخذت المحكمة تتجنى عليها فى مسألة زيتها قاطعتهم بقولها « افعلوا ما شئتم فلن أغير زى ولو قطعتم رأسى ! » وأخذت تنتقل بها المحكمة من تعسف الى تعسف ومن أعنات

إلى اعنات حتى وصلوا إلى اتهامها بالخطرة والكبرياء لتسميتها باسم
« القائد العام للجيش » وهنا لم تمهل المحكمة تمادى في التجنى عليها
وصدعت بقولها الحازم « . . إن كنت القائد العام للجيش فذلك كان
لسحق الانجليز وطردهم . . . ! »

وانتهت الجلسة ولم تستطع المحكمة ان تلزم جان الحجة في أمر
من الأمور وبات بالفشل . ولم تصل الى نتيجة معها . مادعا
« كوشون » الى ان ندب لجنة لغربة التهم مرة أخرى وتخفيضها
إلى أدنى حد ممكن . وقضت اللجنة الجديدة عدة أيام تتذاكر وتتشاور
حتى نزلت بالتهم الى اثنتي عشر تهمة أو كما وصفها بعض المؤرخين
اثنتي عشر كذوبة .

وحدث في أثناء بحث اللجنة الأخيرة أن ذهب « كوشون » ومعه
قاضيان احدهما كان يدعى « ازامباردى لا بيير Isambard de la Pierre »
والثاني « مرتن لدفينو Martin l'Advenue » وطلب من جان أن تستغفر
من ذنبها وتذعن للكنيسة في كل أمورها . ولكنها أبت كل الإباء .
وهنا أشار عليها « إزامبار » أحد القضاة المرافقين لكوشون ان
ترفع استئنافا عن قضيتها أمام « مجمع بال » أحد المجمع الدينية
المنعقدة في ذلك الوقت . فوافقت جان على إشارته في الحال ، لأنها
كانت واثقة من عدالة أية محكمة ترفع اليها القضية غير هذه المحكمة
التي تألفت في ظل الغاصب وبين سمعه وبصره ، ولكن « كوشون » لم

يكذ يسمع إشارة « ازامبار » حتى استشاط غضبا وقال له « اخرس
ان هذا من عمل الشيطان ، ! وما كان من عمل الشيطان إلا عمله هو
واصراره على البغى والعدوان .

وأراد « منشون » أن يسجل طلب جان للاستئناف في المحضر
لأنه كان حقاً مشروعا لها ولكن « كوشون » حال دون ذلك . وهنا
صاحت جان في وجهه « إنك ياسيدى حريص كل الحرص على تدوين
كل ماتزعمه ضد مصلحتي ، أما ما كان في مصلحتي حقاً فانك ترفض
تدوينه !!! » وحقاً قالت جان لأنه لم يكن في قضيتها قاضياً بالمعنى
المفهوم من الكلمة . بل كان كما أراده خصومها المستترون « خصما وحكما »
ومن هذا جاء حرصه على عدم رفع القضية إلى أية جهة من جهات
الاختصاص الأخرى حتى لا تفلت الفريسة من يده فتضيع عليه الغنيمة
ومما زاد قسوة « كوشون » بشاعة أن تصرفه المتقدم وقع في
وقت كانت فيه جان مريضة .

وفي أوائل ابريل تمت صياغة التهم الاثنتي عشر وتقرر إرسالها
إلى « الجامعة » في باريس ، وفي مساء ٤ ابريل كانت نسخة التهم قد
أعدت للإرسال . وفي هذه الأثناء حدث من « منشون » ما يمكن أن
يعتبر آية من آيات الشجاعة والصدق في مثل تلك الظروف الشاذة .
وذلك أنه جاء على النسخة المعدة للإرسال إلى باريس ودون

على هامشها ما يفيد أن كل مانسب إلى جان من الأقوال المقدمة كدليل
على صحة التهم مخالف تماماً لما ورد من أقوالها في المحضر . وفي يوم ٥
أبريل قام الرسول إلى باريس يحمل التهم . . .

وتتلخص هذه التهم في أن جان خلافاً للعقيدة الكاثوليكية
تؤكد أنها وجدت طريق « خلاصها » من غير طريق الكنيسة .
ولذلك ترفض الاذعان لها . وتعلن أنها كانت تستمد الوحي في
كل ما عملته من الله ، كما وأنها هددت كل من لم يدعن لها . وهي تدعى
أنها لم تذنب قط مع أنها ارتكبت الخطيئة بتزيينها بزى الرجال وادعت
بأن القديسين والقديسات لا يتكلمون اللغة الانجليزية وأنهم من
أنصار الفرنسيين فقط . هذه هي خلاصة أهم التهم التي استقر رأى
رجال الدين في « روان » على إلصاقها بالفتاة التي ساقها نكد الطالع
للحكاكة أمامهم .

وفي مساء اليوم الذي بعث فيه بالتهم إلى باريس شاع في المدينة أن
جان دارك مريضة مرض الموت . . . وتحقق الانجليز من صدق الاشاعة
فاستولى الذعر على قلوبهم خشية أن تموت موتاً طبيعياً ، وقبل أن تصدر
الكنيسة حكمها عليها ، فتصبح في نظر الشعب بطلة شهيدة وضحية مقدسة
غالية . وتكون في موتها على هذه الصورة أقوى منها وهي حية وذاك
ما تحاشوه من أول الأمر . . .

ومن المضحك المدهش معاً أن «ورك» لما سمع بمرضها خف إلى القلعة مهرولا ومستصحباً معه «كاردينال أف ونشستر» وطلبوا أن يلحق بهم بعض الأطباء. ولم يكن ذلك بطبيعة الحال شفقة عليها أو رحمة بل كان خوفاً أن تفلت منهما الغنيمة. يدلك على هذا قول «ورك» للأطباء وهو بجوار سريرها وبين سمعها وبصرها يوصيهم بها «أذكرم بان تعنوا بالفتاة عناية فائقة، لأن جلالة الملك غير مستعد لأن يسمح بموتها موتاً طبيعياً، فقد كلفته ثمناً غالياً، فهو لا يرضى لها إلا الموت حرقاً. فابذلوا جهدكم. وخذوا حذرهم. واشفوها من المرض.!!» وقال «ورك» عبارته هذد في لهجة عسكرية جافة. ولم يرحم شقاء الفتاة بمرضها. ولم يأبه لما في قوله ولهجته من زيادة في ألمها. ورضى أن يكون فظاً غليظ القلب في وقت كانت الفتاة فيه تغالب الموت ويغالبها، وتعالج سكراته بين اليأس والرجاء. ومن المؤلم المدهش أن تعلم أن مرض جان الأخير كان ناشئاً من أكل سمك أرسله إليها «كوشون»!! وهذا ما أجابت به الأطباء حين سألوها عما تعتقده السبب في مرضها الأخير. وأكد فريق من المؤرخين أن «كوشون» قد تعمد قتلها بذلك السمك المسموم!

«كوشون» رجل الدين. ورئيس المحكمة التي تفصل في القضية يدس السم للتهمة!! ويل له! ترى لماذا أراد موتها؟! أهى وخزة من

وخزات الضمير دفعته لكي يختصر طريق الهول والعذاب الذي ينتظر الفتاة؟ أم هي نزوة من نزوات النفس الأمارة بالسوء حملته على تلك الفعلة الشنعاء لكي يزداد زلفي عند ساداته الانجليز؟ . ولكن الانجليز كانوا يكرهون موتها موتاً طبيعياً ، كما دل على ذلك فزعهم عند علمهم بمرضها وخطورته . . . لعله أراد بفعلته أن يخلص من المشاكل والزوابع التي أثارها بمواقفها معه ومع قضاته . .

وبقيت جان مريضة نحو أسبوعين . ثم أخذت تتماثل للشفاء . ولما عرف « كوشون » أنها تماثلت ذهب اليها في جمع من العلماء وأخذ ينصحها بالتوبة والعودة إلى الكنيسة . . فردت عليه جان شاكرة له نصحه ثم قالت أنها مشرفة على الموت بسبب ما انتابها من مرض . وكل ما ترجوه هو أن تموت مؤمنة صادقة .

وفي هذه اللحظة ظن « كوشون » أن المرض قد هدأ إرادتها وأنها قد تقبل ما كانت ترفض ، فتشجع وطلب منها أن تعلن إذعانها لكل ما تقضى به الكنيسة في أمرها . . .

ولكن جان خيبت ظنه في ضعفها . وقالت له رداً على طلبه : « ليس عندي ما أضيفه على ما سبق لي قوله وتكراره » . وعندما أحس بالخيبة انتقل إلى التهديد والوعيد وعلا صوته وارتفع ضجيجيه . فتركته جان يصخب ويتوعد حتى هدأ وأصبح مستعداً لسماعها ثم

قالت له في وضوح . . . « ليكن ما يكون ، فلن أفعل وإن أقول غير ما فعلت وقلت في جلسات المحكمة » .

وفي الثاني من شهر مايو ١٤٣١ عقد « كوشون » جلسة كاملة في قاعة الجلسات بالقلعة حضرها ٦٢ قاضياً ، وكان المقصود من عقدها أن يعظ جان وعظاً دينياً على أمل أن ينجح في إخضاعها للكنيسة عن طريق النصيح والارشاد ، حيث قد فشلت معها كافة الوسائل الأخرى ويظهر أن حمل جان على إعلان خضوعها لأحكام الكنيسة أصبح أخيراً شغل « كوشون » الشاغل . لأن ذلك الخضوع كان يمكنه من التحكم فيها بما شاء وشاءت له أغراضه بطريقة مشروعة . . . وقام الواعظ وأخذ يلقي عظته التي كانت عبارة عن شرح المطاعن التي كملت لها من كل جانب ومقدارها بين كباثر الذنوب . وبعد أن أسهب الواعظ في مطاعنه ومثالبه وبالغ في ذكر الذنوب والآثام التي اقترفتها ، أراد أن يرى مبلغ تأثير وعظه وإرشاده ، فطلب منها أن تعلن إذعانها للكنيسة . وانتظر في زهو وإعجاب أن يسمع منها كلمة الخضوع التام والاذعان الكامل ، ولكنه سمع بدلا من هذا كلمات التصميم والآباء . فأخذته الحدة وصار يلح عليها ويكرر حتى ضايقها ، وأخيراً التفتت إليه غاضبة وقالت في حدة وحزم : « لن أغير حرفاً مما سبق لي بيانه ، ولو رأيت الجحيم أمامي لكررت قولي السابق » . . . وكان لهذا

الجواب القاطع رنة إعجاب شملت الخصوم والأولياء . ولم يتمالك
« منشون » من إظهار إعجابه بذلك الرد إذ كتب أمامه في الهامش العبارة

التالية « رد مجيد Superba Responsis

وبعد أن اصطدم الواعظ بهذا الرد الطاحن أخذ يحاورها في
الموضوعات التي تكرر سؤالها عنها حتى أصبحت حديثاً معاداً مملولاً
إلى أن انتهت الجلسة بين الخيبة والفشل .

وفي الحق لقد أصبح « كوشون » وعجزه عن التغلب على الفتاة
مضغة الأفواه وحديث مجالس العامة وأندية الخاصة . وجعلوا منه
مادة للسخرية ، وموضوعاً للتسلية . وساعد على ذلك أن الكثرة من
الناس كانت تكرهه وتسخط عليه . وقد آلمته هذه الحالة وأدخلت عليه
الهم والغم . وتسبب من ذلك أن صمم على إكراه الفتاة عنوة على
الاعتراف بسلطان الكنيسة المطلق ، وكانت طريقته التي دبرها لحملها
على ذلك هي أن يلقي في قلبها الرعب ، وذلك بادخالها حجرة التعذيب
التي تقوم فيها آلات الاعدام ومعدات التحريق ، حتى إذا مارأتها انخلع
قلبها من الخوف والهلع فتخور قواها ، وتسلم أمرها .

وفي يوم ٩ مايو ١٤٣١ نقلت جان إلى القلعة التي كانت فيها
« حجرة التعذيب » وجاء إليها فيها « كوشون » ، ووكيل النائب العام
وستة من الأعضاء وحضر معهم الجلاد ، ولما دخلت جان الحجرة

كان هؤلاء القوم فيها فلما أن وقع بصرها على آلات التعذيب وعلى الرغم من تأكدها أن للحكمة طبقاً لتقاليد الزمن أن تستعمل معها تلك الوسائل لكي ترغمها على الاعتراف ، فانها نظرت اليها نظرة احتقار مصحوبة بزم الشفتين إزدراء وقلة مبالاة ، وجلست جان في مكان أعد لها في وسط الآلات وقام بجوارها الجلاد مشمراً عن ساعده استعداداً للتنفيذ . ثم ألقى عليها وكيل النائب العام ملخص الاتهام وقال « كوشون » في لهجة الواثق من الظفر ، أن قد آن الأوان لكي نأخذ من جان الحق ، والحق كله غير منقوص ، ثم التفت اليها وقال « ها هي آلات التعذيب قائمة . وها هم المنفذون حاضرون . فاما أن تقولى كل شيء ، وإما سلمتلك للعذاب . تكلمى ! »

وإليك في غير تقديم أو تأخير ، أو زيادة ، أو نقصان رد جان الخالد في وسط غرفة التعذيب على قول « كوشون » المتقدم :

« لن أقول لك أكثر مما قلت ، ولن أغير شيئاً منه ولو مزقت جسمى إرباً إرباً ، واذا جعلنى الألم أنطق بما يخالف عقيدتى ، فلن أتأخر لحظة عن العدول عنه حالما ينتهى التعذيب . »

وجاء رد جان صدمة قوية « لكوشون » الذى بنى الأعالى والقصور على حيلته الجديدة . وعندما سمعه أخذ يتهامس مع من حوله ، ولعله كان يشاورهم فى تطبيق العذاب فعلاً ، ولكن يظهر أن الأكثرية

الحاضرين لم توافقه على التنفيذ، لأنهم جاءوا من مبدأ الأمر على أن تكون الجلسة لمجرد الإيهام والتخويف . ولعلمهم أيضاً خافوا أن تموت منهم في سياق التعذيب فتصبح « ضحية مقدسة » ولا يستفيدون شيئاً . . . ولعلمهم أيضاً رأوا ما في اعتراف يؤخذ قسراً مع انكاره بمجرد انتهاء التعذيب من سخف وهراء لا يستأهل تعريض حياتها بعد مرضها الأخير إلى خطر محقق . وسواء أكان هذا أم ذلك فإنها لم تعذب فعلاً وأمر « كوشون » بإعادتها إلى سجنها في القلعة الأولى . . .

وانتهت الجلسة التي علق عليها « كوشون » جل آماله في قهر الفتاة والتغلب عليها ، بخيبة تضم إلى خيائته السابقة . وهو بين السخط والغضب واضطرابه والقلق

وفي هذه الأثناء وصل إلى « روان » مندوبون من « الجامعة » في باريس يحملون ردها على الاثنتي عشر تهمة التي كانت قد أرسلت إليها . وكان الرد يتلخص في التأييد الكلي لجميع التهم . ومشفوع به كتاب شكر للرئيس « كوشون . . . ! »

وفي يوم ١٩ يناير عقدت جلسة حضرها خمسون قاضياً في قصر الأسقفية للمشاورة في مصير الفتاة . فاقترح البعض « تسليمها للدولة » أي للحكومة ومعنى ذلك أنها أصبحت تستحق العقوبة المقررة لمثل التهم التي أيدتها الجامعة وهي الحرق بالنار . واقترح البعض الآخر

ان تنصح للمرة الأخيرة في جلسة كاملة قبل ان تسلم للدولة . فوافقت
الهيئة بالأغلبية على الاقتراح الأخير .

وفي يوم ٢٣ مايو عقدت الجلسة في القلعة وسيقت إليها جان
ووقف « بيير موريس Pierre Maurice » من كبار رجال الدين في
روان ينصح جان بالتسليم واستنكار ما قدمت من ذنوب وما اقترفت
من آثام . وختم خطابه بتهديده أياها انها إذا أصرت كانت كمن يلقي
بنفسه الى الجحيم جسماً وروحاً . وجاء رد جان على الخطيب كسائر
ردودها السابقة يفيض كرامة وشهامة إذ قالت : « لو كنت ساعة الحكم
أنظر الجلاد يستعد لأشعال النار بل لو طرحت في النار ذاتها أتلظى
في سعيرها ، فلن أتحول عن كلمة واحدة مما قلت في المحكمة . هذا كان
رأى وعلى رأى سابقى صامدة . . . »

عند هذا الرد ساد القاعة سكون غريب استمر بضع دقائق
وقطعه « كوشون » بقوله للخطيب . ألدبك شيء آخر تضيفه ؟ فأجاب
« كلا يا سيدي » ثم التفت الى جان وسألها نفس السؤال فأجابت
قائلة « لا شيء » .

وأعلن كوشون انتهاء المحاكمة ، كما أعلن ان الحكم يصدر في
صباح اليوم التالي ، ثم أمر باعادة المتهمه الى سجنها .

اعلان الحكم

وجاء الغد الذى تقرر أن يعلن فيه الحكم . . . وكانت الليلة السابقة لصدور الحكم من أطول ليالى الدهر وأثقلها وطأة على «كوشون» ، قضائها كلها في التفكير والتدبير، أما التفكير ففما كان قادماً عليه من ظلم لنفس بريئة في سبيل مطامع خسيسة ، والظلم قد يكون أشد إيلاماً للظالم منه للمظلوم . أما التدبير فكان في ابتكار الوسيلة التي يتقى بها مظنة الناس به ويحفظ بها في الوقت ذاته مظاهر العدالة ، لكي يكون للحكم الذى يصدره أثره في إقناع الناس بعدله وإنصافه !! و بات «كوشون» ليلته مهموماً إلى أن هداه تفكيره إلى طريقة طريفة في خبثها قد اعتقد أنها تنيله غرضه من فريسته وتحفظ له كرامته بين الناس . ذلك أنه اتفق هو و « كرينال ونشستر » رأس الكهنوت الانجليزى المعروف ، على أن يفاجئ الفتاة قبيل إعلان الحكم ، أى عندما يستولى عليها الدهول لرؤية معدات الاعداد على أتم أهبة ، والجلاد مائل مشمر عن ساعديه ، ويطالبها بان تعلن في الحال إذعانها للكنيسة . . . وفي تلك الساعة الرهيبة والجمع الحاشد ينتظر متلهفاً صدور الحكم لا بد أن تخضع جان ! لأنها تكون وقتئذ فضلاً عن ذهولها خائرة القوى ، منحلة

الأعصاب ، ياثة من الحياة . فاذا ما أذغت أصبح الحكم عليها مشروعا بقبولها تصرف الكنيسة في شأنها . وفي هذا القبول أيضاً أماناً من المخاوف التي طالما ساورت « كوشون » من أن يعده الشعب منفذاً ظالماً وصنيعة في أيدي الأجنبي . فليس غير إذعانها أمام الشعب الحافل منقذاً لشرفه من الريبة التي كان يعتقد أنها تخامر الناس نحو تصرفاته مع الفتاة .

وكانت القوانين المعمول بها تقضى بأن المتهم في تهمة دينية لا يحكم باعدامه اذا هو أذعن ولو في اللحظة الأخيرة . فكان المفروض ألا يحكم على جان بالاعدام اذا هي « اذغت » كما كان يتوقع « كوشون » . ولكن لم يكن عبثاً اطلاع « كاردينال » انجلترا على السر .. ! فقد اتفق هو و « كوشون » على الحرص على عدم إفلات الفتاة من الاعدام ..

ودبر الاثنان طريقة إبليسية أشد شناعة من تديرهم الأول يوم مفاجأة الفتاة بطلب الاذعان والخضوع وهي ترى الموت رأى العيان ماثلاً لها في أدوات التعذيب والتنكيل .. دبر القسيسان اذا هي أذغت حكموا عليها بالسجن المؤبد كنص القانون . ولما كان السجن المؤبد وحده لا يشفي غليل الانجليز ! دبراهما أن يحملها على أن تطرح زيتها النسوي . وذلك بأن تسرق منها ملابسها النسوية التي تكون قد قبلت العودة اليها عند ما تزج في السجن ، فلا تجد مناصا

من الرجوع إلى ارتداء ملابس الرجال . وهذه العودة تعد في عرف الكنيسة «ردة» والردة عقابها كعقاب الجريمة ذاتها أى الاعدام حرقا .
أرأيت كيف قضى «كوشون» ليلته؟ أفهمت ما اتفق عليه مع «كاردينال ونشستر»؟ ولقد اتفق الاثنان على كتمان التدبير عن جميع رجال الدولة . لأن ما اتفقا عليه مؤامرة أو قتل «جريمة» لا يمكن الافضاء بها لمخلوق . ولم يعرف المؤرخون هذا السر إلا بعد غرابة الحوادث غرابة دقيقة ، ودراسة «قضية رد الاعتبار» التى سيجيئك نبؤها بعد قليل ، وتفهم الظروف والملابسات التى وقعت يوم الحكم وبعده .
وكيف قضت جان ليلة الحكم؟ لم يتركها «كوشون» تنام ليلتها هادئة أو على مضض . لم يشأ أن يتركها تفكر لنفسها كما فكر هو لنفسه . بل شاء أن يسلط عليها خبثه بل قل دسه ولؤمه فى ليلتها الأخيرة تمهيدا لتدييره وتحضيرا لابقاعها فى شركه . .

أرسل اليها «نيقولا» . وما أدراك ما «نيقولا»؟ هو «صانع الأحذية» اللورينى ! الموالى للملك الكاره للغاصبين ! ذاك الذى زارها فى السجن وخدعها حتى استدرجها للكلام فى ذكريات أيامها ووقائع حياتها .. ! أرسله هذه المرة فى زيه القسى؟ وهى أحوج ما تكون إلى قسيس يواسيها ويشد أزرها فى ليلة ليس لها بعد . ودخل عليها «نيقولا» يعلن شدة كراهيته الانجليز ويلعن أيامهم وما جلبوه

وراءهم من خراب ودمار... ويصعد الحشرات على النسل الذي أهلكوه
وعلى الحرث الذي أبادوه... وهكذا سار يتنقل من لعنة إلى لعنة ضارياً
على النعمة التي تحبها جان. ثم تدرج من هذا الى وعظها في نعمة مؤثرة في
شئون نفسها وخلصها ووجوب احتفاظها بحياتها من أجل خير الوطن!
وخير مليكها! ثم استطرد معها الى الحديث في شأن إذعانها للكنيسة
وتسليم أمرها لها، مبيناً لها ألا حرج عليها في الاذعان، وأنه لا يكلفها
شيئاً، بينما هو يحفظ لها حياتها. وانطلق يصور لها الاذعان في صور خلافة
ويهون عليها أمره في عبارات منمقة. واستمر الخبيث يضرب على هذه
النعمة ساعات طويلة. لأنه كان يرمى إلى غرضين سافلين: أولهما: حملها
على السهر حتى لا تنأ بسنة من النوم ولا تأخذ قسطاً من الراحة لكي
تصبح وهي مضعضة الحواس منهوكة القوى أقرب ما تكون إلى الاذعان
للفجأة التي أعدها لها «كوشون» وثانيهما: تهيئة نفسها بالوعظ
والارشاد لقبول ما يعرض عليها في الغد.

ولو تذكر القارىء أن جان كانت قد براها المرض وحطمها عذاب
السجن لأدرك تماماً مقدار ما أثر فيها حوار «نيقولا» معها في تلك
الليلة السوداء!

وباتت «روان» ليلة الحكم على أحر من الجمر تنتظر ما يتمخض عنه
الصباح من حوادث جسام. وكان قد تقرر أن يكون إعلان الحكم في

فناء كنيسة « سنت أون St ouen » ، ولذلك كانت الحركة حولها قائمة على ساق وقدم ، فالعمال مكبون على إعداد مكان الجلسة ومنصة الاعدام ، والأهلون يتزاحمون ويسابق بعضهم البعض بالمناكب في لهفة ، الى المكان الذى يدينه من المنصة ويجعله اقرب الى مشاهدة ما سيحدث

وفي الصباح كنت تجدد في الفناء ثلاث منصات : الأولى والثانية متقاربتان وتفصلهما فرجة غير متسعة . أما الثالثة فقد أقيمت على بعد ٢٠ خطوة من المنصتين السابقتين . وأعدت المنصة الأولى لجلوس النظارة من رجال الدين ورجال القانون . أما الثانية فقد فرشت بأنجر الأثاث والرياش . ونصبت فوقها مظلة تحجب عن المستظلين أطوار الجو من قيظ أو مطر . وتعالى من بين المقاعد المصفوفة مقعدان كانا أفخر المقاعد زينة وأثاثاً ، كما كانا أرفعهما مقاماً ، وخصصت تلك المنصة لجلوس هيئة المحكمة وخصص الكرسيان الرفيعان لجلوس « كوشون » و « كاردينال أف ونشستر » وكان الكاردينال كما تعلم من أمراء البيت المالك فى إنجلترا .

اما المنصة البعيدة فكانت هرمية الشكل بنيت من الحجر و اقيمت فى اعلاها سارية من الخشب . وتلك كانت منصة الاعدام . وقد جهزت بكل ما يلزم من وقود ومواد للحريق . إذ جمع حولها

أكوام الخشب ووقف بجوار قاعدتها ثلاثة من ذوى القمصان الحمراء .
هم الجلاد ومساعدوه . وكانت أمامهم أدوات إشعال النار وهى عبارة
عن جذوة مشتعلة وحو لها الفحم . وعلى مسافة قدمين منها أعد الجلاد
مدخراً من الوقود والخطب .

وكانت الجنود الانجليزية تحرس المنصات الثلاث وتحيط بها فى
شكل نصف دائرة . ومن خلف الجند تراصت الجماهير فى تزاخم شديد
كما ملأت الناس الطرقات ، وسدت المنافذ وتعلقت بالنوافذ وانتشرت
على السطوح المظلة على المكان وبالطرقات المؤدية اليه .

وفى الميعاد المحدد غصت المنصتان بمن خصصت لهم ولم تبق إلا
منصة الاعداد فى انتظار فريستها .

وأخيراً سمعت جرجرة السلاسل . فأنصت القوم جميعهم وعلقوا
أنفاسهم وأمسكوا قلوبهم بأيديهم .. لأنهم أحسوا بقدم جان ...
وبعد قليل دخلت المسكينة وكانت تسير فى خطى اشبه بخطوات الطفل
عند أول محاولة المشى . فقد أنساها طول السجن وثقل الأغلال مشيها
المعتاد .. وقد هد من قوتها ، وبرى من جسمها ، المرض والجهد
المتواصل فى أيام المحاكمة السالفة . فهى من الاعياء والسهر أقرب الى
الموتى منها إلى الأحياء . ومن الغريب وفوق الغريب أن « نيقولا »
كان ملازماً لها حتى دخولها ، يهمس فى أذنها ويلقنها ما كان يريد

عليه . كأنه لم يكفه حوار الليل كله ونقاشه . أو كأنه خشى أن يظن به سادته تقصيراً في أداء ما كلف به .

صعدت جان على المنصة المعدة لها وكانت ذاهلة عما حولها . وقعدت مطبقة العينين ، ويدها مستقرتان في حجرها ، وبدا عليها كأنها لا تدرى شيئاً عما كان يجري حولها . وكأنها قعدت تستريح من مجهود مضنٍ أو تفكير في أمر ذي بال . . . وبينما هي على هذه الحال من الغموض والابهام كانت عيون الجميع اليها شاخصة محددة .

وافتح « كوشون » الجلسة . وكان قد تقرر أن تبدأ بعظة دينية يلقيها أحد الوعاظ على الفتاة ! واختير لهذه المهمة واعظ مشهور اسمه « وليم إراراد W. Erard » ، ولما قام لكي يلقي عظته رفعت جان رأسها متناقلة وألقت عليه نظرة خاطفة ثم عادت على عجل إلى سيرتها الأولى

وأخذ « إراراد » يلقي عظته . وكان قد بناها على الاثنتي عشرة تهمة المعروفة . وصار يهدر كالجل في حملاته على الفتاة المسكينة وهي مطرقة لا تأبه له ولا لما يقول ، إلى أن وصل إلى وصف ملك فرنسا بالاحاد . وهنا انتفضت جان واقفة نائرة متحمسة ترد على الواعظ تهمته التي وجهها « لمليكاها المحبوب » ، وتعلن في قوة ووضوح أن ملك فرنسا من أصدق الناس إيماناً وأرسخهم عقيدة !!! وكان لهبة جان أثرها في الحال إذ لم تسكد تلتهمي من ردها حتى ضج المكان بتصفيق

النظارة المتفرجين لا إعجاباً منهم بصدق إيمان الملك بل إعجاباً بموقف الفتاة التي تألّبت جميع القوى على النيل منها . وحنق «إرارد» واغتاظ من تصفيق الجمهور وتهليله فضرب الأرض بقدميه وصاح في وجه الحارس طالباً منه أن يلزمها الصمت .

وفي غير قليل من الوقت تغلب الواعظ على ما استولى عليه من ارتباك وحيرة ، وشرع يستأنف وعظه ويدلى ببيانه ، إلى أن ظن أن الفرصة قد سنحت لمفاجأة الفتاة بما دبر لها من قبل وهو مطالبته بالخضوع والتسليم فطالبها بذلك في لهجة الواثق من نزولها على رغبته وإجابته إلى طلبته .

ولكن جان التي ظنوها قد « نضجت » للمفاجأة . خيبت ظن الجميع . لأنها لم تكده تسمع الطلب حتى بادرت قائلة : « قد أجبته المحكمة على مثل هذا الطلب من قبل . . . وقد طلبت منها أن ترفع أمرى إلى البابا فله وحده في الأرض كفاً لله في السماء أرفع ظلامتى وأشكو بشى . »

وكانت مفاجأة جان أقوى تأثيراً وأشدّ ابتعاثاً للدهشة ومدعاة للارتباك بين قضاتها والنظارة من الجمهور ، من مفاجأة المحكمة لها على لسان الواعظ بطلب خضوعها واذعانها تلك المفاجأة التي أعدوا لها العدة ومكروا لها ما مكروا . بالليل وبالنهـار

والذى هزّت المحكمة وغير المحكمة في رد جان أنها طلبت رفع

الأمر للبابا . لأن القانون كان يقضى فى مثل تلك الأحوال برفع
الأمر إليه فى الحال متى طلبته المتهمه وارتضته ، وكما انه يقضى بتعطيل
اختصاص القضاة بالحكم بمجرد صدور هذا الطلب من المتهمه . ولهذا
السبب بادر « إيرارد » بتغيير الموضوع . وانطلق يعظ و يلح فى
الوعظ . حتى يصرف الناس عن الالتفات الى ما فى طلب الفتاة من قوة
شرعية واجبة الاحترام .

وبعد جولات الواعظ معها هنا وهناك ، عاد يطالبها بان تعلن
استنكارها لكل قول قالته أو فعل فعلته واعتبره قضاها مخالفا للدين !
ولكنها فاجأته مرة أخرى بجوابها المربك : « انى أفوض أمرى لله
وللبابا » وحقاً كان الجواب مربكاً لأن البابا الذى تفوض أمرها له
هو رئيس الكنيسة الأعلى التى يتهمونها بمخالفة أصولها . فان كان ما
يشغل بالهم ويقلقهم هو مخالفتها للكنيسة ، فهامى ترضى حكم رب
الكنيسة . وما كان لأحدهم كبيراً كان أو صغيراً أن يدعى ان شخصه
فوق شخص البابا ، وأن حكمه أحق بالاتباع من حكمه . لهذا كان
التجاؤها الى البابا رئيس الجميع مربكاً لهم ، ومظهر الفساد نيتهم ، وكاشفاً
عن خبيثة نفوسهم . لأنه أظهر حقيقة أغراضهم ودخيلة مرادهم ، الا
وهو الحكم عليها لمجرد خدمة غايات الانجليز منها ، وقضاء لمصالحهم
الشخصية من طريق خدمة تلك الغايات !!

ولكن هيئة المحكمة لم تكن لتستطيع ترك طلب جان الخاص

برفع الأمر للبابا مع تكراره من غير جواب . ولذلك باغتوها هذه المرة بقولهم - وكان قولهم زورا وبهتاناً - ان البابا بعيد ، ولا داعي لرفع الأمر اليه ، لأنهم وهم خلفاؤه يمثلون كنيسته . وينوبون عنه في تنفيذ سلطته . وتلك كانت سفسطة منهم فارغة .

وفي هذا الوقت بدأ الجمهور - وبالطبع كانت ميوله انجليزية ، وضد الفتاة - يتململ من طول انتظاره فهم جاءوا ليسمعوا الحكم ويشاهدوا تنفيذه على طريقة ذلك الزمن . وكان القيظ في ذلك اليوم محرقا لاخفا ، والزحام آخذا بخناقهم . وأحست المحكمة بروح التذمر تدب بين الجماهير من المطاولة والمناقشة في غير جدوى . فأوعزت إلى « إراردا » أن يحسم أمره مع الفتاة . فما كان منه إلا ان صاح بها : « إما الردة حالا واما حرقك حالا...!! »

فوقعت كلمات « إراردا » على جان وقوع الصاعقة . ونفذت كلمة الحرق إلى أعماقها وتفتحت عيناها على ما حولها من معدات الحريق وبجوارها عين الجلاد تتقد سرا . فصارت تلهث وتلفظ ألفاظا متقطعة لا يربطها معنى . وتتلقت يمنة ويسرة محدقة في كل شيء وكأن عينيها قد تضاعفت اتساعهما مرارا . وأخذت المسكينة تنتفض كالعصفور بلله القطر . وتقدم إلى جان رجال الدين أفرادا وجماعات يطلبون منها أن توقع الورقة التي كان « إراردا » يطلب توقيعها منها وكان إراردا أوقل

« كوشون ، قد أعد ورقة من قبل فيها اعلان للردة لكي توقعه الفتاة .
وأخذت أفراد من الجماهير تصيح في وجهها : « وقعي ! وقعي ! انجى
بنفسك ! لا تلقى بها الى التهلكة ! ، وتصاعدت الصيحات من كل جانب
تدعوها للتوقيع ، حتى القضاة أنفسهم توسلوا اليها ان تشفق على نفسها
بان تعلن اذعانها ، حتى لا تضطرهم اضطرارا الى تسليمها للجلاد !!!
وفي هذه الاثناء قام الرئيس ، واخذ يتلو حكم الاعدام وبدأ يتلوه
متباطئا متمهلا كأنه يعطيها فرصة . او كأنه يعطى صيحات الجميع
وقتا تفعل فعلها في تلك النفسية الجبارة التي صمدت في نضالها ،
وثبتت أمام النوازل ، التي تدك الراسيات من الجبال دكا . وهنا سمعت
جان صوتا يتصاعد قائلا « لماذا تؤثرين الموت على الحياة ... اين
أصواتك الآن » ، وها هو الموت يمد يده اليك . الا تعتقدين انها
خدعتك ... !؟ »

وفي هذه اللحظة ركعت جان او قل خرت من الأعياء ساجدة
ثم قالت في خفوت ورعشة « أعلن خضوعي ، !!!

أعلن خضوعي ! بهاتين الكلمتين نطقت جان . وهاتان هما الكلمتان
اللتان كانت تطلبهما الكنيسة ، واللتان من أجلهما تكبدت الفتاة
ماتكبدت من مشقات وأهوال تشيب من هولها الولدان . وفي
هاتين الكلمتين طلبت السياسة الانجليزية وضالة الساسة من الانجليز

أخذوهما من المسكينة بالخب والخديعة لما أعيتهن معها طرق الصراحة
والرجولة . . . وأخذوهما منها وهي بين الحياة والموت مريضة منهوكة
مخدوعة .

ومما يدل على مقدار ما هزته القوم من الظفر والغبطة بما نطقت به
الفتاة ، أنهم سارعوا الى تلقينها الصيغة التي عليها ان تقولها . وشرع
« ماسيو » الحاجب في الحال يردد ألفاظ الصيغة وهي ترددها خلفه
في غير وعي أو فهم لما تردد وسرعان ما تقدم لها أحد كاتمي السر
من الانجليز وأمسك بيدها وأجراها بالقلم على الورقة وكتب بها
اسمها توقيعاً كأنما كانوا يحسون بما في عملهم من الزور والبهتان ، او
قل البطش والطغيان . فعمدوا الى حملها على التوقيع لكي يخذعوا
أنفسهم بالاطمئنان الى صحة الاجراءات !

اذن وقعت جان الصيغة وأعلنت عدو لها عن الكفر الى الايمان !
واعترفت بما ارتكبت من ذنوب وآثام ؟! واستغفرت عما قامت به من
عمل الشيطان !؟ واذن حقت على كل ما عملته في سبيل وطنها كلمة
الكنيسة أو قل كلمة الغاصب لأن الكنيسة والغاصب في أمرها
سيان !؟

ولاحظ انجليزى ما جرى ، ولاحظ حالة جان وهي تردد في غير
وعى ، وتوقع في غير احساس بما تفعل ، وتبتسم ذاهلة في كل الانحاء

فقال موجهها قوله لرئيس المحكمة « ان هذا العدول غير صحيح . انه مهزلة وعبث ...! »

فاسكتته الرئيس في الحال « أنك مخطيء ، واني أعرف واجبي نحو هذه المرأة ..! » ، وكان خضوع جان يقضى الا يحكم عليها بالاعدام ، كما أسلفنا ورأى « كوشون » حفظا للمظاهر أن يعفيها من الحكم بالاعدام ، وان كان متفقاً مع الكاردينال على ما يوصلها اليه لا محالة فيما بعد وان يكتفى بالحكم عليها بالسجن المؤبد .!

هنا ثارت نائرة « ورك » وقام في وجه « كوشون » صاحبها صائحاً .. « مولاي الأسقف ! » انك بهذا الحكم تسيء خدمة جلالة الملك ، وتمسك الفتاة من الافلات من الموت ! »

وقد دل « ورك » بشورته هذه على أنه لم يكن عالماً بالسر المتفق عليه بين « كوشون » والكاردينال أف ونشستر ، ودل من ناحية أخرى على غلظته العسكرية بعدم تقديره للقيمة المعنوية لعدول جان ، من حيث أثرها وتأثيرها في السياسة التي كانت تجرى عليها انجلترا في فرنسا في ذلك الزمن . ولعله فهم أن الاعتراف في ذاته كان للوصول إلى الاجهاز عليها . ولذلك فهم انه كان يجب ان تحرق بعد اعترافها بدون مراعاة لقانون أو تقاليد مما جرى عليه العرف الكنسي .

ولم تفت تلك الملاحظة « أناتول فرانس Anatole France » في كتابه عن جان دارك ، فقد قال تعليقا على ما وجهه ورك من اللوم الى كوشون عندما نطق بالحكم عليها بالسجن المؤبد : « ان هؤلاء الانجليز قد تسرعوا في الحكم على مافعله « كوشون » ، لأنهم لم يقدروا حق التقدير ما بذله في حمل جان على الاعتراف بأن حياتها كانت كلها خدعة وأكذوبة ، وكان ذلك الاعتراف أكبر خدمة يمكن ان تؤدي لانجلترا في ذلك الزمن .. ! »

وقد ناقش كثير من المؤرخين موضوع خضوع جان للكنيسة في آخر لحظة . فقرر بعضهم بأن الوثيقة التي حملت على توقيعها لم تكن هي الوثيقة التي قرأها « ماسيو » ورددها جان معه . لأن الذي وجد موقعا عليه منها كان اعترافا مطولا ، شاملا لعدوها عن كل قول قالته وعمل قامت به وهو اقرار لكل تهمة وجهت اليها في تفصيل دقيق وبيان واف . مع ان البيان الذي قرأه « ماسيو » كان في جملة لا يتجاوز بضع كلمات في أسطر قليلة لم يستغرق القاؤها سوى دقائق معدودات . ! ويقول من أحسن هؤلاء الناس ظنا أنهم إنما قرؤا عليها في أول الأمر روس موضوعات الاعتراف في سرعة ولهفة انقاذا للموقف وحتى لا تعطى فرصة تعدل فيها عن الاعتراف ولما جاء دور التوقيع ، قدموا لها الوثيقة الأصلية الكاملة والتي

يهم المحكمة والكنيسة ان تعترف بها جان .

والواقع سواء كانت الصيغة الاصلية أو كانت صيغة أخرى هي التي قرئت على جان - أنها رددت ووقعت وهي لاتدرى علام وقعت ولا ماذا رددت . . . والوثيقة التي أجريت عليها يد جان بالتوقيع مكتوبة باللاتينية وتشمل الفاظاً يحار في فهمها الفقهاء الأعلام فما بالك بفتاة أمية لم تكن تعرف كما قالت مرة « الألف من الباء . » فمن هذه الناحية على الأقل يمكن الجزم البات بأنها لم تكن تفهم ما وقعت عليه . وان أقصى ما يمكن به تفسير تصميم المحكمة على توقيع جان للوثيقة هو أنها أرادت المحافظة على صحة الاجراءات ولو من الناحية الشكلية . وفي هذه الحالة لم يكن يهم القوم أن تكون جان واعية لما يجرى أو غير واعية .

بعد صدور الحكم

ووقع الحكم بالسجن المؤبد على جان كانقضا الصاعقة لأنهم لم تكن تتوقع بعد أن أذعنت لما أرادوه منها أن يكون نصيبها السجن . فقد وعدھا « نيقولا » بأنها اذا ما أذعنت انتقلت من حالة السخط الى حالة الرضا ، وأن كل شيء يكون وفق مرامها . وكانت آخر كلمات « ارارد » لها « انك لو فعلت ما نطلبه منك لخرجت في الحال من السجن الى حيث تكونين حرة طليقة » .

مسكينة تلك الفتاة المجاهدة . فقد أجمع الكل على خدعها وتضليلها وهي هي الفتاة البريئة لم ترتكب ذنبا ولم تأت شيئا أدا .

تلقت الحكم وهي باهتة مغشى عليها . ولما أفاقت قليلا من غشيتها التفتت الى من حولها والحزن يمزق نياط قلبها . وتساءلت قائلة « وهل انا عائدة إلى السجن الذي كنت فيه . ! ! وهل استمر تحت رحمة هؤلاء الانجليز ! ! » قالت هذا وهي تحاول النهوض وتستجمع قواها ، لأن « كوشون » وكأنه لم يسمع تساؤلها ، أمر الحراس في سخرية قائلا : « خذوها إلى السجن الذي جاءت منه ! » وعند ما أتم « كوشون » أمره مادت الأرض تحت قدميها وتمايلت من أثر الصدمة ذات الشمال وذات اليمين . ونسى « كوشون » ما أنساه إلا الطمع وحب النفس

أنه وعدّها مرة وهو يزورها في السجن إن هي أذعنت لما يريد مني
فانه ناقلها في الحال إلى سجن ديني حيث تحرسها النساء !

وسارت جان متهدمة في طريقها إلى السجن . أما الجمهور على
اختلاف طبقاته فقد تولته الدهشة لما رأى المسألة ينتهي بها المطاف الى
حيث كانت ! وكانت دهشته راجعة إلى أنه لم يكن يتوقع النتيجة
التي انتهت المسألة اليها . بل كان الكل يتوقعون أن يمتعوا أنظارهم بحرق
« الساحرة » التي طبق صيتها الخافقين . كان الجمهور يجمل بالطبع أن
الرواية لم تتم فصولها ! وأن الفصل الذي كانوا يتحرقون شوقا لرؤيته لم
يحن مواعده بعد . وكان عليه عند « كوشون » و « كاردينال أف ونشستر »
فقط ، ولم يكن يعلم السر في « روان » أحد غيرهما . . ولذلك اشتد
سخط الجمهور وامتدت يد البعض من رجاله الى الأحجار والطوب
وقذفوا به هيئة المحكمة . وظنوا أن « للخيانة » دخلا كبيرا في كل
ما حدث . وجاهر أحد القسس من الانجليز في وجه « كوشون » بقوله :
« اقسم بالله انك خائن !! » فأكد له الأسقف وهو مطمئن انه كاذب
في دعواه . أما « ورك » فلم يهدأ له بال حتى هُمس في اذنه بأن الفريسة
لم تفلت من الأيدي بعد

وما كادت جان تصل الى السجن حتى لحق بها « كوشون » ومعه
فريق من رجاله وهناك نبهها في قوة أن عليها ان تتذكر بأنه من بين ما

« وقعت ، عليه شرط يحرم العوده بأى حال من الأحوال الى التزني بزى الرجال !! » وانها ان عادت كانت عودتها كفرا بعدايمان ، وعقوبته الحرق بالنيران. وكانت تسمع ولا تفقه معنى لما تسمع ، لأنها من هول ما نزل بها كانت كمن تناول مخدرا يجعله يحس احساسا شديدا بالحاجة الى النوم . فقد كانت تنظر بعينها ولا تدري شيئا وتسمع بأذنيها ولا تفقه قولا . . .

و بينما كانت جان تتردى فى ذكبتها ، خرج « كوشون » باسمها بما قبض له من نصر ، فهامى ذى جان تتردى ثوبا نسويا . بعد ان اعلنت خضوعها التام للكنيسة واستنكارها لكل حقائق حياتها الماضية .

وخرج كوشون ورفاقه وترك جان فى زيتها النسوى وجها لوجه مع حراسها الغلاظ . . . ومن تلك اللحظة أخذ هؤلاء الوحوش يزدادون بها عنفاً ونكالا . وكان كوشون قد أوصاهم بأن لا يدخروا وسعا فى الاساءة اليها بالقول والععل

ولما كان لكل شىء نهاية . أخذت جان تعود شيئا فشيئا الى حالتها الطبيعية . وكانت كلما هدأت أخذت تدرك خطورة ما جرى منها وما جرى لها . وبدأت تقدر أن حقيقة ما جرى تنحصر فى إنكارها « لأصواتها » ولقدسيها وفى جحودها لأفعالها ، ولملكها . وفى

اعترافها بان حياتها كلها كانت خدعة ، و كانت أ كذوبة . و أنها دفعت كل هذا ثمنا للحياة في سجن أشبه ما يكون بالقبر . و بين حراس لا يتصلون بالانسانية إلا في مشابهمهم و مظاهر تكويهم الجسماني . و هكذا أخذت حقائق الحالة تنكشف لها . و كلما تنكشفت لها ثارت نفسها ضد نفسها و تبغ الدم في عروقها . . . و زاد في انكشاف الأمر لها أنها في صباح يوم الاحد الموافق ٢٧ ما يولم تجد ثوبها النسوي ! ؟ و تفقدته فلم تهتد اليه ، و وجدت ثيابها المسترجلة ملقاة على مقربة منها ! ؟ فالتفت اليها و قالت للحراس أنها ممنوعة من العودة لمثل تلك الملابس . فلم يعرها الحراس التفاتا كأن الأمر لا يعينهم . و كان طبعيا أن تخضع للأمر الواقع ، و لا بد مما ليس فيه بد . فقامت و ارتدت ثياب الرجال . و سرعان ما علم كوشون بالأمر . و سرعان ما هرول الى السجن مع رفاقه ، فظاهروا بالدهشة من عودة الفتاة الى زي الرجال بعد ان حذروها عاقبة الأمر و ما فيه من خطر على حياتها . . . :

و شرع « كوشون » يستجوب الفتاة عن الذي حملها على التغيير . . . و لحظ احد القضاة ما في الأمر من دسيسة فتساءل قائلا : « إن في عودة جان إلى زي الرجال لسراً خفياً يثير الظنون ، إذ كيف يمكن ان يحدث منها ما حدث من غير ان يعلم به الحراس ؟ » و ما كاد القاضي يفرغ من تساؤله حتى هاج « كوشون » و جعل يصيح في وجه القاضي المتسائل « صه ! ولا تفتح فمك !! ، و ثارت نائرة الحراس و قالوا له متحمسين

« إخرس يا خائن ! ، وهاجموه بحراهم ولم ينج منهم إلا بأعجوبة
ولما هدأت الزوبعة طفق أحدهم يسألها
— لماذا عدت إلى هذا الزى ؟
— عدت لرغبتي في ذلك .

ودلت جان بهذا الجواب على ما طرأ على حالتها النفسية من التغيير
واستمر السائل في استجوابها قائلاً .

— ولكنك وعدت واقسمت الاتعودى إليه مرة أخرى ؟
فأجابت في هدوء « لم أقصد مطلقاً ولم أعن أبداً إلا أعود إليه .
وان كنت لم أراع الوعد ، فان أحدا منكم لم يرعه معى ، وقد أعطيت لى
وعود كثيرة منها مثلاً أن ترفع عنى هذه السلاسل ولكنها لا تزال
ترهقنى حتى اليوم ! »

— ولكنك قد اعلنت عدولك وأعطيت وعداً بعدم العودة
لهذا الزى ؟

— عدت لانى وجدت نفسى بين الرجال ، ففضلت أن أكون مثلهم
مادمت بينهم ، وطالما بقيت معهم وفى قيودى هذه ، فلموت خير لى من
العودة الى زى النساء . ولكن اذا سمحتم لى بتأدية فرض الصلاة ، واذا
نقلتمونى الى سجن مناسب حيث تحرسنى النساء ، فأنى أخضع وأفعل
ما تحبون . « ألا تلحظ عودة الشجاعة بل ثورة الشهامة التى أعلنتها جان

لم تشأ أن تشكو عدم اهتدائها الى ثيابها بل فضلت أن تهاجم أعدائها
في الميدان الذي اختاروه ضاربة صفحاً عن الدسيسة احتقاراً لمديرها

— ألم تخاطبك « أصواتك » منذ يوم الخميس ؟

— نعم خاطبتني .

— وماذا قالت لك ؟

— « أبدت أسفها لنكوصي ، وفهمت منها بأن ما حدث
منى هو بمثابة تعريض نفسي للجنة في مقابل انقاذ حياتي ... وقد
علمت منها بأنى كنت جد مخطئة في عدم ثباتي على أن اعمالى كلها
كانت باردة الله . » واستمرت جان تضرب على هذه النغمة إلى أن
قالت « لكوشون » وهي تحاوره :

— « لقد وقعت لاني كنت خائفة من النار ! ولكنى لم أقول ولم أقصد
ان أقول بانى أنكر أصواتى أورؤياى ، ولم يدر بخلدى قط أنى بتوقعى
انقض كل ما قلته عن القديسين ، لاني لو نقضته وانكرته أكون كمن
نقضت الحق وانكرته »

بهذه الصراحة الحاسمة عادت جان الى طبيعتها الأولى، وان كانت
صراحتها هذه المرة قاضية على حياتها وقدر « منشون » ، الخطر الذى
سينجم عن صراحتها هذه المرة ، ولذلك كتب على هامش الاجابة
تعليقه الخالد Responsis Mortiferi أى ، الرد القاتل ،

وقد تحقق الخطر في الحال لان « كوشون » بمجرد أن سمع جوابها السابق أعلن إنتهاء الاستجواب . لأنه كان قد حصل على بغيته منها وزيادة ! وتحقق له كل ما توقعه في تدبيره من بادي الأمر ! وقد روى بعض المؤرخين ان « كوشون » خرج بعد هذا الاستجواب من السجن هاشا باسم الثغر ، وذهب الى الانجليز بعلمهم في زهو و فخار بقوله « لقد قضى الامر ، وتم كل شيء وفق ما تريدون . فانشرحوا ...؟! »

وفي الحال دعا « كوشون » ، هيئة المحكمة للمداولة في الاستجواب الجديد وعقدت الجلسة في مقر الاسقفية وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢٩ مايو وبعد المناقشة قرر الرئيس أن ترفع دعوى المجرم العائد الى الاجرام على جان تطبيقاً لمواد القانون الكنسي وفي الحال أعلنت جان بالتهمة الجديدة ودعيت للحضور في يوم الاربعاء الساعة ٨ صباحا الموافق ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ في ساحة السوق القديم (الساحة المعدة للاعدام)

الماءساة .

وفي الصباح الباكر من يوم الاربعاء ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ دخل
الحاجب علي جان في سجنها وسلها إعلان الحضور للجلسة التي تقرر
أن تعقد في «ميدان السوق القديمة» في الساعة الثامنة صباحا . وجاء بعده
مرتين لادفينو وازامبير دي لايبير ، وكانا من رجال الكنيسة
الذين يعطفون عليها . ولما دخلا عليها وجداهما في هم وجزع وبأس
وقنوط ، لانها أدركت من قول الحاجب خطورة ماستلقاه بعد
قليل في ميدان السوق القديم ... وعندما وقع بصرها عليهما قالت لهما في
لطفة وجزع : « قد كنت أوثر ان تقطع رأسي سبع مرات ، على أن
أحرق حية !!! وا أسفاه على جسدي يقضى عليه أن تأكله النار وهو لم
يلوئه دنس قط ! أفوض أمري الى الله خير القضاة جميعاً يمحو بفضله
ورحمته ما يقع علي من ظلم ... » وجاء بعدهما القضاة الآخرون ولما
وصل « كوشون » صاحت جان في وجهه : « أيها الأسقف إنى أموت
بسبيك ! » ثم أخذت تصلي لله وتستغيث بأوليائه لكي يمدوها بالتجلد على
اقتحام الهول الذي هي مقبلة عليه ... وهنا بكى جميع من حولها حتى
« كوشون » على ما رواه البعض ، والتفتت جان الى أحد القضاة « بيير
موريس » وقالت له « أين تظن يكون مشواي الليلة القادمة ؟ » فأجابها

على الفور « أليس عندك ثقة في الله؟ » فقالت « بلى والحمد لله . أتى
سأ كون الليلة في الجنة...! »

ثم سبقت جان إلى « ساحة الاعدام » يحرسها مائة وعشرون جنديا
ولما وصلت الى المكان المعد لعقد الجلسة ولتنفيذ الحكم عليها في
الحال، كان الجمع الذي احتشد لرؤية مايجرى لا يقل عن ١٠ آلاف،
بين رجل وامرأة جاؤا من كل فج يشهدون مصرع الفتاة . وكان
قد أقيم في الساحة ثلاث منصات، واحدة للقضاة وكبار رجال الكنيسة
والثانية أعدت لجان ولو اعظ كانت تقضى الأصول بقيامه بوعظها
في اللحظة الأخيرة ، والثالثة جلس عليها رجال الدولة .

وعلى سند مرتفع من الجبس في وسط الميدان نصبت المحرقة
وعلق عليها لوحة كتب فيها خلاصة التهم واللعنات التي صبها
المحكمة على رأس الفتاة المسكينة . وإليك مثال مما جاء فيها . . .
« جان المدعوة بالعدراء ، الكاذبة . الكافرة . المملحة . حليفة
الشیطان الخ... »

وحشدت السلطة ما لا يقل عن ثمانمائة جندي حول الساحة .
وبدأت الاجراءات بعد افتتاح الجلسة بعظة الواعظ . وكانت لا تخرج
في ميناها ومعناها عما ألفه القراء . من ألفاظ المطاعن والمثالب التي
كيلت للفتاة... وفي أثناء التلاوة كانت جان غارقة في أحلامها . ساجدة
في خيالاتها ، ذاهلة عما يجرى حولها .

وبعد انتهاء الواعظ من عظته التفتت جان الى الجماهير ثم قالت :
« ... مهما كان تقديركم لاعمالى حسنا أو سيئا . فاني أرجوكم ألا تحسبوا
أني كنت في القيام بها متأثرة بنفوذ الملك على . وسواء أكنتم من
أنصارى أم من خصومى فاني أضرع اليكم أن تشفقوا على . وإني من
ناحيتي أغفر ذنب كل من أساء الى ، وألتمس منكم جميعا أن تصلوا من
أجلي ... »

وعلى هذا النحو استمرت تخاطب من حولها من النظارة والقضاة
ورجال الدولة ، حتى استدرت مآقيهم واستدرفت دموعهم . وقد بكى
« كاردينال ونشستر » ، كما بكى « جين دي لوكسبرج » الذي باعها وكان
حاضرا ، وبدا على « كوشون » التأثر الشديد ولكنه بالرغم من تأثره
أعلن حكم الكنيسة عليها باعتبارها ملحدة ، ضالة ، ساحرة ، كافرة
يجب تسليمها للدولة . وتسليمها للدولة يساوى في عرفنا القضائي إحالة
الاوراق على المفتى . لأن الكنيسة كانت تنهى وظيفتها بانتهاء
ثبوت الادانة . وعلى سلطات الدولة التنفيذ العملي .

وبعد أن فرغ « كوشون » من النطق بالحكم ، سلمت جان لقائد
القوة باعتباره ممثلا للسلطة التنفيذية . ولم يمهلهما القائد حتى تم اجراءات
صدور الحكم من الدولة عليها . بل اكتفى بأن قال للجلاد « قم
بواجبك ... »

فألبسوها تاجا من الورق يشبه تيجان الأساقفة . وكتبوا حوله
بحروف بارزة : « ضالة ، مرتدة ، رفضة ، عابدة أو ثان ،

ولما تسلم الجلاذ جان خرج جميع رجال الدين من المكان ما عدا
« مرتين لدفينو » و « ازامبير دلايبير » فقد رغبا في البقاء معها
الى النهاية .

وفي منتصف الساعة الثانية عشرة صعدت جان منصة الاعدام
بخطى ثابتة ، ومن غير أن يساعدها أحد ! وكأنها كانت تصعد سورا
من أسوار حصون العدو . . . وعند ما بلغت القمة حيث السارية التي
ستربط فيها ، التمسّت صليبا فلم تجد ، فتقدم اليها جندي انجليزى وكسر
عصاته نصفين وجعل منها صليبا قدمه لها ، فتقبلته منه شاكرة . ولكنها
طلبت أن يؤتى لها بصليب من الكنيسة المجاورة ، فجاءها به « ماسيو »
الذى كان يقوم بدور حاجب المحكمة وقام يمدده اليها « ازامبير دى
لايبير » بينما كان « لدفينو » واقفا بجوارها .

وبينما كانت جان فى أعلى المنصة ، والجلاذ يستعد لشد وثاقها
الى السارية ، تلفتت حولها كمن كان يتوقع هجوما حريبا على المدينة
ثم قالت : « روان ! أخشى ما عساه يصيبك من سوء بسبب موتى ! »
و شد الجلاذ وثاقها ، ثم أشعل النار فى الوقود المعد حولها ، وبدأ

الدخان يتصاعد . وهنا التفتت جان فوجدت ، لدفينو ، لا يزال بجوارها فودعته شاكرة عطفه ومحبتة ، وطلبت منه أن يسرع بالابتعاد عن الخطر . وتكاثف الدخان حولها وامتد اللهب إليها ... ولما اشتد السعير صرخت من أعماقها قائلة : « لست ضالة ولا كافرة ! وإن ما تلقيته من الوحي كان من عند الله .. » . ولما بدأت النار تأكل جسمها أخذت تصيح بملء فيها « عيسى ! عيسى ! مريم ! مريم ! » وصارت تردد هذه الألفاظ حتى تدلت رأسها وفاضت روحها .

وشهد الجمهور المحترق السنة النار وهي ترعاها حتى استحالت رمادا ، وقد تولاهم حزن عميق ووجوم بين ، مع أن مناظر حرق الكفار والملاحدين كانت من المناظر المألوفة لديهم في ذلك الزمن .

وكان « كاردينال أف ونشستر » قد أوصى الجلاد بان يجيد حرقها حتى لا يبقى لها أثر . وبالرغم من تنفيذ الجلاد للأمر بدقة تامة ، بقي قلبها سليما لم يحرق . فجمعه مع بقاياها والقي بها جميعا في النهر طبقا لما تلقاه من التعليمات . وكان حرص الإنجليز على إخفاء كل أثر لها حذرا من تمكين الأهلين من اتخاذ بقاياها رقي وتعاويز لهم .

ومن أغرب ما روى عن حرق جان ، أن الجمهور الذي كان في بادئ الأمر يعتبرها كافرة ساحرة كما شاءت لهم الكنيسة أن يعتبروها لم يكذبها تحرق ، حتى تبدل شعوره نحوها وغلبه الحزن . وشملته الكآبة ،

وكانت «روان» في يوم موتها تشبه مدينة أموات لاحتيا فيها. وتجلت مظاهر الرزة الذي حل بها في كل مكان. وقد سجل التاريخ لانجليزي اسمه «جين تريسارت Jean Tressart» أحد كاتمي السر أنه غادر ساحة الأعدام بعد حرقها وهو يقول «لقد هلكنا جميعاً فقد حرقنا قديسة...»، وكان الجلاد الذي تولى تنفيذ الحكم من أول المحزونين المكومين، وروى عنه أن ذهب إلى «مرتن لدفينو» في صومعته وصارحه بأنه يشعر بأنه أصبح «محروماً» لأنه حرق «قديسة». أما «متشون» وقد كان أشد الناس وجداً عليها فقد كتب يقول.. «ما بكيت في حياتي على مصاب كما بكيت على جان لما رأيتها تساق إلى السارية المعدة لحرقها. وقد مكثت شهراً كاملاً مشتت الفكر، لا أملك زمام نفسي. ورأيت تخليداً لذكرها ان اشترى بالمال الذي أخذته أجراً (١) على عملي في المحكمة كتاب صلاة أتلوه كلما صليت من أجلها...»

(١) وبمناسبة ذكر «المال» الذي اخذه «متشون» اجراه على عمله كرئيس للاكتتاب نذكر ان «كوشون» كوفي. على عمله كرئيس للمحكمة باعطائه مبلغ ١٠٠٠ جنيه اما الاعضاء فلم تتجاوز ما اخذه الواحد منهم ٢٠ إلى ٣٠ جنيهًا. وامتاز «توماس كورسل» باعطائه مبلغ ١١٣ جنيهًا والحكومة الانجليزية هي التي دفعت كل مصاريف المحاكمة من ابتدائها إلى نهايتها...

حياتها بعد موتها

ماتت جان حرقاً بالنار كما أراد لها الانجليز ، وبعد أن حاكموها أمام المحكمة التي اختاروها لها ، ومن أجل التهم التي رموها بها ، وبعد المحافظة منهم على الظواهر القانونية في جميع أدوار المحاكمة .

وقد القوا ببقاياها في اليم أملاً في نحو أثرها فهل نالوا بغيتهم منها ؟ وهل نحو أثرها فعلاً بحرقها والقاء ذراتها في النهر ؟

وهل دانت لهم الرقاب بعد موتها ؟ أم هل لانت لهم الصعاب ؟ وهل استردوا ما فقدوه من شجاعة ؟ أو ما ضيعوه من بلدان ؟

كلا !

فان موتها أنهى حياتها الفانية . ولكنه كان فتحاً لحياة لها خالدة . إنه أنهى عمرها المحدود ، وافتتح عهد خلودها غير المحدود . نعم بدأت جان بموتها حياة الذكرى . والذكرى للانسان عمر ثان ... وهكذا جرت سنة الله بأن يكون موت الشهداء مؤذناً بانتصار حقهم على باطل خصومهم .

وتدعيماً للقول المتقدم انقل اليك ما كتبه جون لاموند Jhon Lamond وهو انجليزى فى كتابه عن جان دارك قال ... « إن الرعب

لذى اوجدته جان فى قلوب الانجليز فى أثناء حياتها ازداد قوة بعد موتها . فان مجرد ذكر اسمها كان كافياً لزعزعة ثقتهم فى انفسهم ولزعزعة يقينهم فى الغرض الذى من اجله جاءوا يحاربون

وانتهز « بدفورد » عم ملك انجلترا ووصيه فرصة موت جان وظن ان سياسته فى تزييف جان ومليكتها قد نجحت . واقدم على إقامة حفلة تتويج للملك الطفل هنرى السادس فى باريس . لىكى يضع الفرنسيين امام الأمر الواقع ، ولىكى ينسيهم ملكهم « المزيف » . ولكن « بدفورد » وغير بدفورد من سياسة الانجليز نسوا ان الروح التى بثتها جان فى فرنسا قد غيرت من روح الشعب ، وجعلته يحس بما فى وجود الانجليز فى بلادهم وبين ظهرانيتهم من عار وشنار يمسهم فى رجولتهم ، ويعتبر سبة لكرامتهم . فهم إن كانوا يريدون ملكا فملكهم يجب ان يكون فرنسيا مثلهم . وان الملك الذى اقامته قديستهم لا يعدل به احد . وكان نصيب بدفورد الفشل التام . وفى الواقع ان السياسة الانجليزية بعد موت جان أخذت فى التدهور والانحطاط ، ومنيت بالفشل يعقبه الفشل . وكانت أول بوادره انفصال برجنديه عن انجلترا ، وانفصام ما بينهما من عرى المودة والتحالف ، وسرعان ما انقلبت برجنديه من عدوة مناجزة لملك فرنسا الى صديقة مناصرة له . وكان هذا التحول ضربة قاضية أصابت النفوذ الانجليزى فى الصميم . وكانت اولى النتائج الباهرة

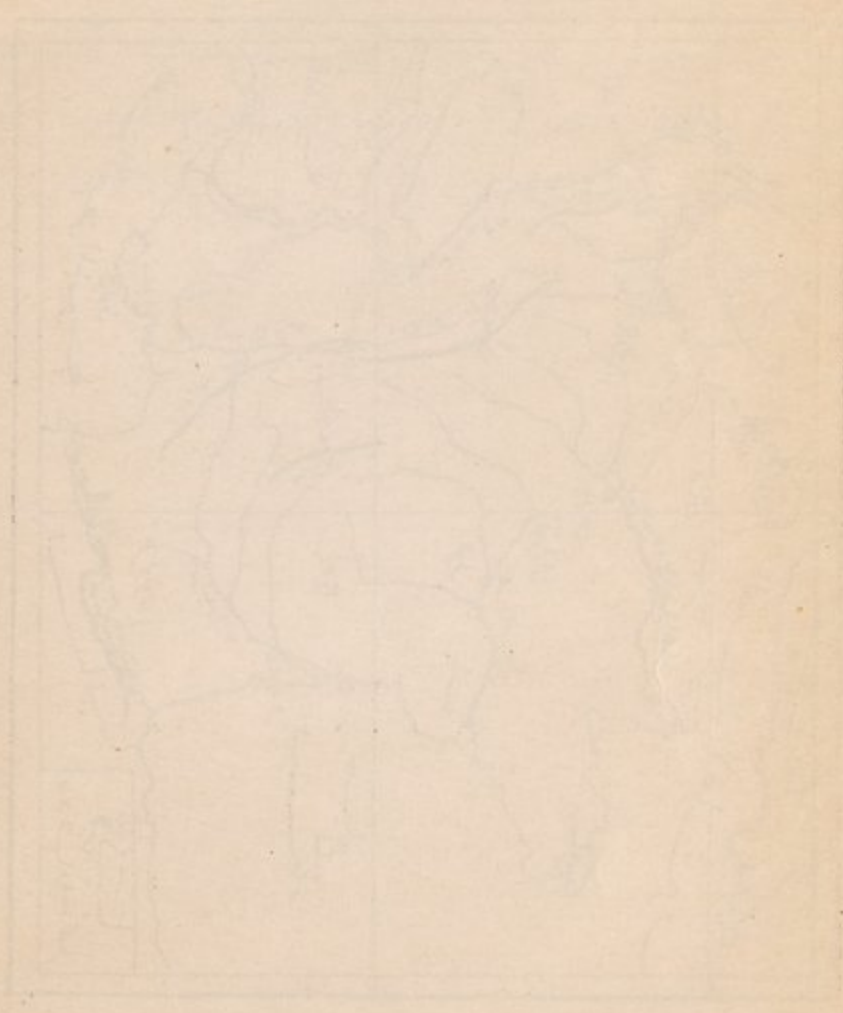
للتحالف الفرنسي البرجندي ان دخلت الجنود الفرنسية باريس في سنة ١٤٣٦ ظافرة منصوره ، وتحققت بدخولها نبوءة جان التي صدرت منها في جلسة ٣١ مارس ١٤٣١ كما مر بك . وكان الذين يقومون بقيادة الجيش الفرنسي في انتصاراته ضد الانجليز هم القواد الذين شاركوا جان في انتصارها واقتبسوا منها طرقها ، وتشبعوا بروحها . أمثال «دناو» و«لاهير» وغيرهم .

وفي تلك الاثناء أصيب الانجليز بضربة أخرى قاضية . وذلك بموت «دفور» وصي الملك ، وهو الذي كان يمثل فكرة الاستيلاء على العرش الفرنسي وقد وقف حياته على تنفيذ فكرته ، فموته ماتت الفكرة وخصوصا بعد الفشل الساحق الذي كانت جان سببه .

ولما كان تفصيل ما جرى بعد موت جان من الحوادث التاريخية لا يدخل ضمن ما افردنا له هذا الكتاب ، فما على من يريد تفصيلا أو تحقيقا لها إلا أن يرجع للمصادر التاريخية فيجد فيها طلبته . . . ويكفي لغرضنا هنا أن نذكر أن الانجليز أرادوا أن يستبقوا «نورمنديه» أقرب المقاطعات اليهم ، ولكن الأهلين هبوا في وجههم ثائرين ، انتقاما لما فعلوه بهم عند ما جمعوا منهم ما فرضوه عليهم من المال فدية لجان . ونذكر أيضا أنه في سنة ١٤٤٩ هبت «روان» ثائرة في وجه رجال الحامية الانجليزية وطردهم منها . كما نذكر

نصراً مؤزراً ناله «رينشمونت» القائد الفرنسي الذي اصلحت جان
بينه وبين شارل السابع، وكان قد أصبح من اكبر القواد وكان انتصاره
على تالبوت (١) المشهور، في ميدان «كستيون» Castillon في ١٧ يولييه سنة
١٤٥٣ حيث حصد الانجليز حصداً، ومات تالبوت نفسه في الموقعة.
وبهذه الموقعة فقدت انجلترا كل أملاكها في فرنسا ما عدا مدينة «كاليه»
وكان انتصار «كستيون» خاتمة المواقف في «حرب المائة عام» التي
نشبت بين الدولتين.

(١) كان في ذلك الوقت يسمى ايرل شروزبرى Earl of Shrewsbury



محاكمة جان دارك

بعد موتها

في أكتوبر سنة ١٤٤٨ زار شارل السابع ملك فرنسا مدينة أورليان . ونزل في بيت « جان بوشيه J. Bouchér » وهو على ما يذكر القارىء البيت الذى نزلت فيه جان عند دخولها أورليان أول مرة . وكان نزول الملك في ذات البيت الذى نزلت فيه جان ، هو من قبيل إحياء ذكرها . . وقد لوحظ بعد تلك الإقامة أن حالة الملك النفسية تغيرت تماما فنفض عنه غبار الخمول وخلع رداء التواكل ، وصار يخوض غمار المعارك ، ويقود الجيش بنفسه ، متحملا معه شظف العيش ومشقات القتال . . ! وينسب المؤرخون هذا التحول في طباع الملك الى زيارته أورليان ، كأن روح جان التى كانت تدفعه وتبث فيه الاقدام وهى حية ، عادت تنفخ فيه من همتها وعزمها وهى مية . ويضيف بعض المؤرخين الى هذا السبب ، سبباً آخر ساعد على التغيير الذى حدث . وذلك انه حوالى ذلك الوقت كان قد تخلص من نفوذ « لاتريمواى » ورئيس الاساقفة اللذين كانا متغلبين عليه يقودانه إلى حيث شاءا وشاءت لهما أهواؤهما . فقد مات الأول في سنة ١٤٤٦ ومات الثانى في سنة ١٤٤٤ .

ولما زار الملك أورليان قابل السيدة « إزابل روميه » والدة « جان دارك » وكانت قد هاجرت اليها للاقامة فيها تلبية لدعوة أهلها الذين

دعوها للمقام بينهم ، لماعلموا بما كانت تقاسيه من الضنك الشديد ،
الذى أصابها من توالى الكوارث عليها . فقد رزئت بموت زوجها والد
جان بعد موت جان بقليل ، لانه كان شيخا فانيا لم يحتمل
الصدمة التى نزلت به فى ابنته . وفى ذلك الحين كانت السيدة « إزابيل »
قد بلغت من الكبر عتيا . وكانت طول الوقت تذكر ابنتها وما أصابها ،
وكلما تحققت نبوءة من نبوءاتها تجددت لوعتها . ورددت ما وقع عليها من
ظلم وقسوة ، وصارت تسعى لدى الملك تارة ، ولدى البابا تارة أخرى ،
لكى يمحوا العار والظلم اللذين نزلا بفتاتها . . . ولهذا السبب بعينه
قابلت الملك فى أورليان ، وشكت اليه ما تشعر به من مرارة من بقاء
عار الحكم الذى صدر فى « روان » ظلماً على ابنتها . وكان الشعب
الفرنسى قد تنبه إلى وجوب محو العار عن الفتاة ، فكان يشارك
أمها فى التماساتها التى كانت ترفعها للبابا فى كل عام ، أولملك كلما سمحت
الفرصة . وكان الشعور بالحيف الذى وقع على الفتاة يزداد استفحالا
عاماً بعد عام .

وبعد زيارة أورليان أخذ الملك يهتم بصفة جدية بأمر إعادة النظر
فى القضية . وفى مارس سنة ١٤٤٩ كان قد بدى « باعادة فحص الأوراق
وسماع الشهود من جديد وجمع المعلومات المفيدة .

ولما سمع الانجليز باهتمام ملك فرنسا باعادة النظر فى القضية

احتجوا لدى البابا، وكانوا في ذلك الوقت من اتباعه على اعتبار ان القضية قد بتت فيها هيئه مختصة طبقا للاصول المرعبة في الكنيسة . وقد أمر البابا فعلا بوقف التحقيق في المسألة حتى لا يغضب الانجليز . ولكن شارل السابع كان قد تشبع بوجوب إعادة النظر في القضية . فدير له مخرجا يخرج منه من مازق اعتراض البابا على الاعادة . وذلك أنه اوعز الى والده جان بان ترفع التماسا للبابا تعترض فيه على التهم التي وجهت لابنتها . فلم يسع البابا الا ان يجيها الى طلبها . وقدم مندوب من قبله واشترك مع المدعى العام لمحكمة التفيتش واخذ يحققان في الالتماس . وفي سنة ١٤٥٥ تعين البابا كاليكستس الثالث Calixtas وكان أجراً ، من سلفه ، لا يخشى في الحق احتجاج الانجليز ولا غير الانجليز فكلف المندوب بان يبذل جهده في معرفة الحقيقة . وارسل التعليمات الى رئيس اساقفة ريمس واسقف باريس واسقف كنستانس بان يشتركا مع المحققين وان يبحثوا المسألة بحثا مستفيضا .

وفي ٧ نوفمبر ١٤٥٥ عقدت المحكمة في كنيسة «نوتردام» في باريس وازدحمت الكنيسة بمن جاءوا يشهدون الجلسة . وجاءت والده جان تتوكاً على ولديها بيبر وجين دي ليس . وتقدمت للمحكمة تلتمس منها بصفة رسمية مراجعة الحكم الصادر من محكمة روان في سنة ١٤٣١ ضد ابنتها ، وختمت التماسها بأنها ترجو أن تنتصر العدالة وأن يسود الحق ! واستمعت المحكمة لها والتأثر الشديد باد على جميع اعضائها ، لأن منظر

الأم التي بلغت السادسة والسبعين من عمرها وهي تجاهد مدافعة عن سمعة ابنتها يحرك النفس لا محاله الى اقصى حد ، ولم يتمالك كل من شهد الجلسة من أن يذرف الدمع السخين ، لما رأوا تلك الأم العجوز تدخل متوكئته وتقدم الالتماس للمحكمة ويداها ترتعشان . وبما أهاج شعور الجمهور وحرك اشجانها واطلق لسانه ، ان الأم لما وصلت أمام اعضاء المحكمة ارتمت على اقدامهم باكية ، تسألهم العدل والانصاف لابنتها التي عاشت وماتت من أجل بلادها ومليكها .. وهناصاح الجمهور صيحة ارتج لها المكان مطالبا المحكمة بان تلغى حكم « كوشون » .. وكان صوت الشعب في زجرته الأخيرة يحمل في طياته احتجاجاً قويا على الآباء الذين عاصروا جان واحتملوا العسف يقع عليها وهم ينظرون ...

وفي الحال شرعت المحكمة تدرس القضية في عناية فائقة . واستمرت في دراستها ستة أشهر كاملة تجمع المعلومات عن حياة جان من أول نشاتها في « دومريمي » الى آخر حياتها في « روان » ، وقد استلزم ذلك سؤال الأحياء من رفاقها في عهد الطفولة ، أمثال الصديقتين « هوفت » ، ومنجت « وكانتا لا تزالان على قيد الحياة . وسئل (خالها) دوران لا كسار وجين دي مترودي بولنجي ودوق دانسون الذي قدم للمحكمة

(١) وبلغ من هياج النفوس ضد « كوشون » في تلك الاونة ان الناس ذهبوا في هياج شديد الى قبره والقوا بعظامه في « المجرور العمومي »

معلومات هامة عنها . وسئل « دنوا » القائد المشهور الذي وصفها بأنها كانت ذات شخصية مقدسة جعلتها خارقة للعادة وسئل « دولون » خادمها الأمين الذي أسر معها في كومبين ، كما سئل قسيسها « بسكرل » الذي « اعترفت » له بكل أسرارها . وسألت المحكمة الأحياء من أعضاء المحكمة السابقة ، وكل من كان له صلة بالمحاكمة وشهد لها « لدفينو » « وازامبير دي لا بيير » و « منشون » و « ماسيو » شهادات طيبة . ومن هذه الشهادات التي كانت تدون بكل عناية عرفت حقائق حياة جان دارك .

وفي ٧ يوليه ١٤٥٦ كانت المحكمة قد أتمت دراسة القضية — قضية رد الاعتبار — كما تعرف في التاريخ . وفي سراي الاسقفية في « روان » اجتمعت المحكمة وأصدرت حكمها الآتي ، وهو بعد تلخيص شهادة الشهود ينص على مايلي : « أولا في سبيل العدالة تعلن المحكمة بان التهم المبدوءة بكلمة (المرأة المذكورة) في نص الحكم السابق والتي كانت السبب في الحكم على المتهم (وذكرا الحثيات التي يشير اليها) كلها باطلة ويتحتم الغاؤها تماما . ونقضى بأن يعلن حكمنا هذا على النحو الآتي : اليوم في فناء كنيسة « سنت أون » بعد صلاة عامة ، ثم غدا في ميدان السوق القديم (ساحة الاعدام) ويعقبه صلاة عامة ووضع صليب تخليدا لذكرى الشهيذة . . . »

وبهذا الحكم رفع عن سمعة الفتاة عار حكم « روان » . وكان أول

خطوة في رضا الكنيسه عنها ذلك الرضاء الذي تدرج من سنة الى
اخرى حتى رفعها الى مكان القديسين

ولا يزال الزائر لمدينة « روان » حتى اليوم يرى على جدار سراي
الاسقفية القديمة لوحين في الأولى الحكم الذي صدر في ٢٩ مايو
١٤٣١ بدعوتها للحضور في ساحة الأعدام في اليوم التالي ، وفي الثانية
حكم سنة ١٤٥٦ القاضي برد اعتبار جان اليها

وفرحت الأم العجوز فرحا عظيما بما نالته من ترضية لاسم ابنتها
واسمها . وعاشت بعد الحكم سنتين وماتت في أورليان سنة ١٤٥٨ في سن
الثامنة والسبعين .

أما شارل السابع فقد كسب بالحكم الجديد كسبا عظيما أيضا ، إذ
رفع به عن كاهله ما سجله عليه الحكم الأول من أنه تلقى الملك على
يد ساحرة زنديقة . بيد أنه لم يعيش بعد هذا الحكم طويلا ، إذ مات في
سنة ١٤٦١ في سن الثامنة والخمسين و كانت حياته في سنيه الاخيرة
منغصة بالمتاعب العائلية التي كدرت عليه صفو ما كان يحرزه من النصر
في ميادين القتال ...



جان دارك بين الامتين

الانجليزية والفرنسية

من المسؤول عن موت جان دارك؟ الانجليز أم الفرنسيون؟ وأى الفريقين يحمل وزر إعدامها بتلك الطريقة الوحشية البشعة؟ إذا رجعت الى المصادر الانجليزية وجدتها إلا نادراً تلتقي المسؤولية على عاتق الفرنسيين، وتحاول في كثير من الحيطه والحذر أن تنقذ السمعة الانجليزية من وصمة العار الخالد، وحجتها التي تبرزها تنحصر في نسبة كل ما أصاب الفتاة من يوم أسرها الى يوم إعدامها الى الفرنسيين الذين قاموا به عن رضا وطيب خاطر. وتلك الحججة ظاهرها معقول. وقد اقتنع بها اللورد بركنهد الوزير الانجليزى المعروف ولذلك ختم قصته التي رواها عن حياة جان دارك بأن « موتها سيبقى أبداً الدهر لطنخة عار في جبين فرنسا... ». ولكن اللورد بركنهد المتطرف في قوميته، والمحافظ المستميت في نزعته، ليس بالحكم الذى ترضى حكومته في مسألة تمس قومه كهذه المسألة.

ولكن، هل كان عار مصرعها من نصيب فرنسا وحدها؟ للرد على

هذا السؤال نورد للقارىء ما كتبه مسز اوليفانت Ms Oliphant

في كتابها عن جان، وهي بريطانية ولا يمكن أن تتهم بالتحامل على أبناء
وطنها. قالت بعد أن أشارت الى ما يلصقه الكتاب من العار بانجلترا
من جراء الدور الذي لعبته في المحاكمة . . . « لا رغبة لي في التقليل من
ذنبنا ، ولا فيما ارتكبناه من ضروب القسوة ضد الفتاة المقدسة - وقد
ارتكبنا في هذا الباب الشيء الكثير - القفص الحديدي والسلاسل
والحراس الغلاظ والسارية الخشبية التي شددنا وثاقها إليها . كل هذه
كانت جرائم فظيعة وقعت منا ، نسأل الله والناس أن يغفروها لنا
لأننا نقر بها ونعترف اعترافا كاملا . . . » ثم أشارت « مسز اوليفانت »
الى نصيب فرنسا من العار . وكانت اشارتها حقة حيث قالت « إن
معاينة أسير الحرب (تشير إلى جان وقد كانت أسيرة حرب) عقاب
المجرم العاصي - وهذه كانت أول خطوة خاطئة اتخذت ضد جان - كانت
شائنة للطرفين الانجليزى والفرنسى ، ولكن أكبر العار في هذا يحق
بالذى باع الأسير أكثر مما يحق بالذى اشتراه ، كما يحق إلى أقصى حد
باؤلئك الذين لم يجر كوا ساكننا في سبيل إنقاذ الأسير . . . » وتقصّد
الكاتبة أن ما يلحق الانجليز من عار شراء جان أقل بكثير مما يلحق
الفرنسيين الذين باعوها لهم . . . والذين لم يعملوا شيئا لانقاذها . . .
وفي الواقع أنه لا يمكن تبرئة الفرنسيين من عار التقصير المخزى والعار
الفاضح في حادث جان دارك . ولكن لا يمكن أن يذهب منصف الى
الحد الذي ذهب إليه اللورد بركنهد في طمعه بالبراءة التامة لبني وطنه

لما لا يمكنه أن يقبل من الفرنسيين دعواهم في أن رجالهم كانوا في ذلك الوقت مسيرين لا مخيرين ، وانهم فعلوا ما فعلوه تحت ضغط العد والسياسي وجبروته العسكري ...

وهكذا ذهبت جان فريسة لشهوة الانتقام من جانب ورذيلة نكران الجميل والجمود والاستخذاء من الجانب الآخر

وقد كان تقاعس الفرنسيين عن إنقاذ جان ، ولا يزال الى اليوم ، موضع دهشة المؤرخين ! وقد تولاه البعض بالشرح وقدموا له أسبابا شتى لخصها « مارك توين » في قوله الآتي : ... « كيف أعلل هذا التقاعس ؟ أظن أنه لا يوجد لهذا الجمود إلا تفسير واحد ، قد نجده اذا تذكرنا أنه في كل مرة كانت جان تتخلف لسبب من الاسباب عن مقدمة الجيش ، كانت عزيمة تفتت وهمته تقعد ثم يرتد يائسا مقهورا ، وأنه في كل مرة كانت تتقدمه كان يكتسح كل شيء أمامه ، فاذا ما جرحت أو اشيع عنها أي سوء تولاهاهم الفرع وفروا مزعورين ، من هذا نستنتج أن الفرنسيين كانوا لم يغيروا بعد ما بأنفسهم تغييرا تاما حقيقيا ، وانهم كانوا في أعماق نفوسهم لا يزالون متأثرين بما رزحوا تحته سنين عدة من نير الغاصب ومن توالى الهزائم عليهم ، الأمر الذي ولد فيهم فقدان ثقتهم بأنفسهم وبزعمائهم . ومن ثمة كانت ثقة الجند محصورة في جان وفي جان وحدها ..!! فاذا ما ذهبت ذهب كل شيء بذهاها ، وعادوا سيرتهم الاولى من الذل والخنوع ، أي أنها كانت منهم ثابتة الشمس التي

تذيب كتل الثلج وتحيلها حميما ساخنا طالما هي طالعة ، فاذا غربت عاد
الماء ثلجا كما كان ... »

ولبت الانجليز يعتقدون في جان السحر والزندقة سنين عديدة
وأجيالا كثيرة .. واستمر اسمها نيفا وثلثمائة سنة موضع اللعنة
والتحقير، حتى اوائل القرن التاسع عشر لما بدأت مبادئ الحرية تنتشر
وتزيل ما علق بالاذهان من رجعية وجمود. وكم كان فكها ظريفا الاب
برنارد فوجان « Father Bernard Vaughan » الانجليزى عندما
كتب عن جان دارك عبارته التالية : . . . « قد حيرني دائما فهم
السبب الذى حمل أبناء وطنى الذين حاربوا جان دارك على التشبث
باعتبارها ملحدة ساحرة بدلا من اعتبارها بطلة قديسة . ألم يكن الأحرى
بنا نحن الانجليز أن تهزمننا قديسة أرسلها الله من أن تهزمننا ساحرة
يحر كها الشيطان . . . ؟ ! »

وفي القرن الحالى تغيرت عقيدة الانجليز في «جان دارك» تغيرا كلياً.
ولا نكون مغالين أو مجازفين إذا قررنا أن خصوم الأمس قد أصبحوا
يقدرونها ويرفعون من شأنها كما تقدرها فرنسا تماما . . .

وفي الواقع أن جان في حقيقة تاريخها لبثت مجهولة من فرنسا ومن
العالم أجمع في الاربعة القرون الأولى من ابتداء حياتها الخالدة . ولم
تبدأ فرنسا ومن بعدها سائر البلدان في فهم حقيقتها على الوجه الصحيح

إلا بعد أن اهتدى « جيل كشيرات Julés Quicherat » إلى محاضر قضية ردا اعتبارها في دار المحفوظات الاهلية بباريس . وعكف على حل رموزها ونقلها إلى الفرنسية الحديثة ، ونشرها للعالم المتمدين وتبعه فريق من الباحثين كان في مقدمتهم « الأب أيرول Ayrolles » الذي كتب خمسة مجلدات عنها برهن فيها على أنها لم تكن بطلّة مجاهدة فحسب بل كانت قديسة أيضاً ، وقد تبعه في هذا البحث « كاردينال توشيه (١) » أسقف أورليان في كتابه المسمى « قديسة الوطن La Sainte de La Patrie » (٢) وإلى هذا الأسقف يرجع الفضل في تفهيم الكنيسة حقيقة جان من الوجهة الدينية ، حتى أنها رفعتها رسمياً إلى مصاف القديسين في سنة ١٩٢٠ . وبين حرق الكنيسة لها في سنة ١٤٣١ على اعتبار أنها كافرة ساحرة ، ورفعها لها إلى مرتبة القداسة في سنة ١٩٢٠ مجد القاري مجالا واسعا للتأمل فيما شمل الأفكار والعقائد من تطور وتحول من الشيء إلى نقيضه ولو بعد حين .

وبعد أن نشر « Quicherat » محاضر المحاكمة بدأ الانجليز رويد رويداً يغيرون عقيدتهم العتيقة فيها ، وهن ذلك أن « Hume » المؤرخ والكاتب المشهور ملأ ثمانية عشر صفحة من كتابه « تاريخ إنجلترا » بتقريظها ووصف فيها الحكم الذي صدر ضدها « بالحكم الفاضح ! »

(١) مات في سنة ١٩٢٦ (٢) طبع في مجلدين سنة ١٩٢١

ومن بعد « هيوم » كتب « سوزى » R. Southey الشاعر المعروف
قصيدته « جان دارك » ومن بعده وصفها « هالام » (١٨١٨) في
كتابه « نظرة في حالة أوربا في خلال القرون الوسطى » بأنها
الفتاة القروية التي هدمت سلطة إنجلترا في فرنسا. ومن بعد هؤلاء
تتابع مديح الكتاب لها والاشادة بذكرها...

وفي أثناء الحرب العظمى ذهب أعضاء من مجلس النواب
واللوردات إلى باريس ، وكان ذلك في فبراير سنة ١٩١٦ ، وهناك
تقدموا جميعاً ووضعوا اكليلاً فخماً من الأزهار تحت أقدام تمثال
« جان دارك » في ميدان البيراميد Place des Pyramides

وقد قال « رديارد كبلنج » في قصيدته « نشيد الى فرنسا Hymn
to France مشيراً إلى جان دارك بقوله :

That undying Sin we shared. in Rouen Market Place.

« تلك الخطيئة الخالدة التي تقاسمنا وزرها في ساحة روان »

وكتب كبلنج أيضاً حوالى سنة ١٩١٦ رسالة إلى « ليون برتو
M. Leon Berthaut » الروائى الذائع الصيت يشير فيها الى حادث
جان دارك بنفس المعنى الذى ورد في قصيدته المشار اليها آنفا حيث
قال « لقد أخطأنا بان كنا السبب فى اعدامها ، ولكن روحها التي
صعدت الى السماء هى التي أنقذت فرنسا ، وكانت سبباً فى توثيق الروابط
بين بلدينا ... »

أما شأن فرنسا مع جان دارك وتعلق الشعب بذكرها فنحن نحصيل
الحاصل البحث فيه . . . وأمامك الميادين العامة في المدائن والقري
وكنائس الذكرى هنا وهناك، والمآثر القومية التي يتردد ذكرها على كل
لسان ، تنبئك عن المكانة التي تحتلها جان دارك في قلوب الفرنسيين .
ومن الحقائق المقررة أن الوطنية الحارة المعروفة عن الفرنسيين ترجع
في نشأتها وفي بروزها في كل مكان وزمان الى الروح ومثل الوطنية التي
بثتها جان دارك فيهم أثناء حياتها القصيرة ، وبعد حياتها بذكرياتها
الخالدة . ولعل الكثيرين من القراء يذكرون الاحتفالات الهائلة التي
أقامتها فرنسا حكومة وشعباً سنة ١٩٢٩ لإحياء لذكرى مرور خمسمائة
عام على ظهور جان دارك . فقد مثلت فيها أدوار حياتها تمثيلاً اشترك
فيه الشعب الفرنسي بأسره . وقد جاملت إنجلترا فرنسا في ذلك
الاحتفال باشتراكها فيه مجاملة كان لها أبلغ الأثر في تنمية الصداقة
بين الشعبين الكبيرين . هذا مع العلم بان البرلمان الفرنسي أصدر قراره
في سنة ١٩١٩ بجعل الاحتفال بيوم ٨ مايو وهو اليوم الذي رفعت فيه
جان دارك الحصار عن أورليان «عيداً قومياً» لفرنسا . وقد جعل بيتها في
دومرني ملكاً للأمة وأقيمت لها في موطنها كنيسة تذكارية كبرى .

الختامة

في مقدمة الكتاب وفي خلال فصوله ، وردت بعض عبارات
تقديرية لجان وما قامت به من جلائل الأعمال . والواقع أن جان دارك
قد حيرت ولا تزال تُحير بشخصيتها الفذة ألباب فطاحل الكتاب
وأعلام المؤرخين . وتساوى في الحيرة في تفسيرها وتفسير أعمالها الذين
رفعوها إلى مصاف الأبطال والقديسين ، والذين حاولوا أن يروا فيها
شخصية عادية عاشت في زمن وشبت في بيئة لا يوجد فيها ما يدعو
إلى استغراب أو استحالة ظهور أمثالها من الأبطال المغامرين . ولعل
أصدق الكلمات التي قيلت في المعنى المتقدم هي كلمة « سنت ييف
C. A. Saint Beuve (١٨٠٤ - ١٨٦٩) إذ يقول . . . » انك من
أى النواحي نظرت إليها ومهما بذلت في كبح نحمسك لها ، ألفتيتها
شخصية مؤثرة لا تجد في التاريخ كله من هو أكثر استحقاقاً منها للثناء
والعطف والاعجاب ولعل السر في الحيرة في أمر جان راجع
إلى ما في تاريخها من حوادث أغرب وأروع من الحوادث التي يخترعها
الخيال الخصب . فحين يقرأ المرء حوادث حياتها ويتعرف ظروفها ، تأخذه
الروعة وتساوره الحيرة ، لأنه بينما هو موقن أن الوقائع صحيحة لا ريب

فيها ، يجدها وقعت على صورة لم يالفها إلا في وقائع الخيال ، والخيال في حدوده الواسعة الرائعة . قال «هنري مرتين Henri Martin» عن جان أنه لم يظهر في تاريخ العالم كله شخصية تماثل شخصيتها . وقرر «ليون دنس Leon Denis» بأن قصتها كبقية قصص الأنبياء والرسل ستظل منقوشة على صخرة التاريخ الخالدة . أما «برنارد شو» ذو العقل الجبار فقد رأى فيها لغزاً عز عليه حله وتفسيره . وقال عنها نابليون مفاخرأ «... لقد برهنت جان دارك للملأ على أن الأمة الفرنسية تقوم بالمعجزات إذا ما تهدد استقلالها بالخطر...»

وليس من قصدي في هذه الكلمة الختامية تقصي البحث في تقدير جان دارك ، وما قيل فيها مدحاً وهو الأغلّب أو استنقاصاً ، إنما أردت أن يلم القارىء المصرى بطرف من نواحي عظمة تلك المجاهدة الباسلة ، وأن يعرف لمحة من تاريخ فتاة هي من غير شك أنبل شخصية في القرون الوسطى . ولست أشك في أن القارىء الكريم ستأخذه الروعة عند تلاوته قصة تلك الفتاة التي دوخت انجلترا ، وقوضت أركان سلطانها في مدة لم تتجاوز أحد عشر أسبوعاً ، هي كل المدة التي حاربتها فيها حرباً فعلية . وبدلت فيها نصرها خذلاناً ونجاحها الوطيد فشلاً محققاً . وستخلب لبه سيرة الفتاة التي طبقت شهرتها الخافقين في سن لم تتجاوز التاسعة عشرة ، أى في مثل السن التي كان فيها الاسكندر أو


قيصر أو نابليون غير معروفين إلا في أوساطهم الخاصة . وستشير حماسته أبناء تلك، المجاهدة التي علمت أبناء وطنها أنهم إن أرادوا إنقاذ بلادهم من الكارثة التي تردت فيها وجب عليهم لكي يفوزوا بغرضهم أن يقاتلوا مستبسلين ، وأن يهاجموا مستميتين .

والآن أختم هذه الكلمة بل وأختم الكتاب كله ، بما ختم به الأب « برنارد فوجان Bernard Vaughan » كتابه عن جان دارك حيث قال ... « إن ما قامت به هذه الفتاة من الأعمال يحق أن تزدان به صحف التاريخ . وخصوصاً عند ما يقدر المرء الظروف التي اكتنفت تحقيق تلك الأعمال ، والصعاب التي اعترضتها في الطريق ، والوسائل التي تذرعت بها لتحقيقها . إن فتوحات قيصر قد امتدت هنا وهناك ، ولكنه قام بها بواسطة جنود روما المحنكين ، وكان هو نفسه جندياً عظيماً . واكتسح نابليون جيوش أوروبا المدربة ، ولكنه كان أيضاً جندياً مدرباً ، وقام على رأس قوات تلهبها وتلهمها روح الحرية التي خلقتها الثورة . أما جان دارك ، الطفلة في سنها الأمية في تعليمها ، والقروية الساذجة ، المجهولة من الدنيا ، فقد وجدت أمتها ترسفت في أغلال الظلم والضعف والخراب ، جنودها أشتات يائسة ، قلوبهم هواء من أثر الذل والاستعباد آجالاً طويلة ، ووجدت على رأس هذه الأمة ملكاً تنكر له الدهر حتى أنكره أبواه ، وأصبح العوبة في أيدي

طغمة من السفلة والاوغاد يجر كونه كما تتحرك الريشة في مهب الريح
وقد قادوه إلى الهاوية ولم يبق على ترديه فيها إلا حفرة واحدة. فما هي الا
أن ظهرت على رأس تلك الأمة ووقفت بجوار هذا الملك ، حتى أحييت
منه ومنها العظام وهي رميم . ونهضت بالأمة من كبوتها ، وقادتها هي
ومليتها من نصر إلى نصر ، وغيرت مجرى التاريخ . وضربت النفوذ
الانجليزى فى الصميم . ثم استشهدت ، وهي تحمل عن جدارة واستحقاق
لقب « مخلصه فرنسا » ولا تزال تحمله حتى اليوم .

إلى أن قال . . . « وأنى أختم هذا الكتاب مترسماً أثر جان فى
دعوتها وحياتها وصفاتها ، وكلى أمل خالص أن تبعث قراءة قصتها فى
قلوب القارئ نور الايمان الصادق ونشوة الوطنية الحقة . . . أن
ماحقته جان فى مقدورنا أن نحققه إذا ما ارتفعت بنا ، كما ارتفعت
بها هى من قبل ، أجنحة الوطنية والدين . . . أيتها الفتاة المنقطعة النظير !
انفخى فينا من روحك و بثى فينا من حماسك ، لكي نحيا حياتنا ونموت
فى سبيل الله والوطن !! »

[Faint, illegible handwriting in Arabic script, likely bleed-through from the reverse side of the page.]



I Can't Smile without you, I Can't
Smile without you. I Can't Laugh and I
Can't Think about any heart or do anything.
I feel bad when you're sad. I feel glad when
you're glad. If you already knew what I'm
going through I just Can't smile without you.
You came along just like a song to brighten
my day.

i 15069114
b 13214494

1950

5 FEB 1987

DC
103
M9x

The American University in Cairo Library
November 02, 1993



0 0 0 0 0 2 9 1 8 6 0

